

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

نموذج رقم (٨)
إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) محمد محمود عبد الله بن بيه كليـــة : الشريـعــة قســم : الدراسات العليا في التاريخ والحضارة

الأطروحــة مقدمــة لنيـل درجــة : ماجستير في تخصص : تاريخ اسلامي

عنـوان الأطـروحــة : « الأثر السيـاسي للعـلمـاء في عصر المرابطين »

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى اله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٩/١/١هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ،،،

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د. محمد احمد حسب الله	الاسم : د. محمد المنسي محمود عاصي	الاسم : د. فوزي محمد الساعاتي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد ،،،

رئيس قسم الدراسات العليا في التاريخ والحضارة

الاســم : د. يوسف بن علي بن رابع الثقفي

التوقيـع :

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضـ



الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب

محمد محمود عبد الله بن بيه

إشراف

الدكتور/محمد أحمد حسب الله

العام الدراسي ١٤١٨هـ /١٩٩٧م

ملخص

حاول هذا البحث ان يلقي الضوء على الدور الذي اضطلع به العلماء في عصر المرابطين من خلال مشاركتهم السياسية في الأحداث فوصل إلى حقيقة مهمة وهي أن العلماء في العهد المرابطي كانوا يشكلون طبقة اجتماعية نشطة وفاعلة اثرت في التاريخ السياسي لمنطقة المغرب الأقصى والأندلس وموريتانيا . وكانت اهم اعمالهم السياسية التي ابرزها هذا البحث : اقامتهم للدولة المرابطية . وقد اسدى العلماء بتكوينهم لهذه الدولة خدمة جليلة إلى الأمة الاسلامية إذ لمّت هذه الدولة شمل شعوب اسلامية كثيرة كانت متناحرة .

كما اظهر هذا البحث الدور الفاعل الذي اسهم به العلماء في توحيد العدوتين المغربية والأندلسية من اجل انقاذ الأندلس من الهجمة النصرانية التي كادت تقتلع الاسلام من هذه البلاد .

وقد جلّى البحث الدور الجهادي الكبير الذي قام به العلماء في الأندلس فساهم جهدهم في إضعاف حركة الاسترداد المسيحية في الأندلس وأجل سقوط هذا الجزء من ديار الاسلام حوالي قرنين من الزمن . كما ابقوا بجهدهم جذوة الجهاد حية في النفوس. وفي موريتانيا وغرب افريقيا اثمر جهد العلماء انتشار الاسلام وتوسع رقعته وتحول السودان الغربي من منطقة وثنية إلى منطقة اسلامية .

وقد بين البحث كيف ان العلماء في العهد المرابطي قاموا بتوحيد المشارب الفكرية والعقائدية وأن هذا التوحيد الفكري أدى في النهاية إلى توحيد سياسي وصار هوية لأهل المغرب الأقصى وموريتانيا والسودان الغربي .

كما تطرق البحث إلى نظرية العلماء المرابطين في الحكم وبين الباحث أن هذه النظرية القائمة على الشورى واستقلال القضاء تستمد اصولها من القرآن والسنة كما عرض البحث لبعض تجارب العلماء في الحكم والمعارضة وناقش نجاحات تلك النماذج واخفاقاتها معللا كل ذلك ومبر هنا .

الطالب	المشرف
محمد محمود عبد الله بن بيه	د . محمد احمد حسب الله
رئيس قسم الدراسات العليا في التاريخ والحضارة	يعتمد ،،، عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
أ. د. يوسف بن علي الثقفي	د. محمد بن علي العقلا

٢٢/١/٩١٩

﴿الإهـــــداء﴾

إليك شيخي الوالد الجليل ...حفظك الله ورعاك.

إليك أيتها الوالدة الكريمة... حفظك الله.

﴿شكر وتقديـــــر﴾

لك أيها الشيخ الكريم د. محمـــــد حسب ا لله

على صبرك علي وحسن توجيهك وإشرافك.....

بسم الله الرحمن الرحيم

- تقـــــديم:

أ - أهمية الموضوع

ظفر تاريخ المغرب والأندلس بحظ وافر من عناية الباحثين عرباً وغير عرب ، على أن هذه العناية تركزت على بلورة ما كان للحكام - أمراء وخلفاء - من أعمال وانجازات وغزوات وفتوحات على حين ظل ما أسهم به غيرهم من فئات الشعب المغربي والأندلسي في صنع تاريخ هذا البلد ونسج رقعته الواسعة غير مدروس ولا معرف به ، ولعل هذا كان في جملة ما تذرع به المستشرقون للطعن في التاريخ الإسلامي حين وصفوه بأنه تاريخ أمراء وخلفاء وليس تاريخ أمة بمجموع فئاتها ، ومع أننا ندرك جيداً أن تاريخ الأمة الإسلامية في المغرب أو الأندلس أو في غيرهما كان يتجسد في تاريخ خلفائها خاصة حينما تستقيم سيرهم ويلتحمون مع شعوبهم ، إلا أننا لا ننكر أن الإهتمام برصد الاسهام الذي كان لمختلف أبناء الأمة في صنع تاريخها أمر بالغ الأهمية لأننا نستطيع به أن نستكمل حلقات البحث التاريخي ونصل بينها ، وفي نفس الوقت نستطيع أن نضع من خلال ما ننجزه من دراسات حول إسهام هذه الفئة أو تلك في هذا القطر أو ذلك من أقطار الإسلام في صنع تاريخ أمتها وتوجيهه نماذج حية نابضة بالحركة تحت أنظار أبناء الأمة للعلم والذكرى والإحتذاء.

وإذا كان المؤرخون المتخصصون في تاريخ الغرب الإسلامي لم يولوا - شأنهم في ذلك شأن غيرهم من غالبية المؤرخين - غير الحكام إهتمامهم فإن المؤرخين القدامى والأندلسيون خاصة أولوا إحدى فئات المجتمع الأندلسي وهي فئة العلماء عناية بالغة حين ترجموا لرجالاتها فيما ألفوا من معاجم وحين تتبعوا مروياتهم ومبادراتهم العلمية وغير العلمية وفيما ألفوا من فهارس ، وفي هذا كما هو واضح رد غير مردود على مطاعن المستشرقين (بجزئية) التاريخ الإسلامي.

ومن المؤكد أن هذه الفئة ، وهي فئة العلماء ، وإن كانت قد ظفرت من المؤرخين القدامى بمثل العناية المشار إليها آنفاً لم يلتفت إليها – إلا نادراً – من قبل المؤرخين المحدثين فكان هذا وذاك مما دفع بي إلى التفكير في إجراء البحث والحفريات التاريخية عن دور العلماء ليس في مجال الدرس العلمي وما إليه – فهذه كلها قد استهلكت بتكرار البحث فيها وإعادة درسها – ولكن في مجال السياسة والحكم ورأيت أنه يمكن إنجاز مثال لهذه الدراسة في هذا الموضوع من خلال البحث في الدور السياسي للعلماء في عصر المرابطين. وهو موضوع بكر – على حد علمي –.

فباستثناء دراستين اثنتين حول العلماء في تاريخ الغرب الإسلامي لا نعلم أن أحداً من الدارسين من العرب والمستشرقين عني بالبحث في هذا الموضوع. أما الدراستان المذكورتان فاحداهما جزئية وهي حول علماء الأندلس في عهد دول الطوائف وقد تتبع فيها كاتبها الدكتور/ محمد بن عبود – ما نهض به علماء الأندلس خلال حكم الطوائف من أدوار هامة إجتماعية وسياسية وهي كما نلاحظ تتعلق بالفترة السابقة لفترة المرابطين. أما الدراسة الثانية فهي دراسة إجتماعية وهي التي أنجزها الدكتور (دومنيك أرفوي) بعنوان "عالم العلماء الأندلسيين من القرن الخامس إلى القرن السادس الهجري ، باللغة الفرنسية.

وكانت الغاية عند مؤلف هذه الدراسة تطبيق المنهج الرياضي الإحصائي على العلماء في القرنين المذكورين. لذا اكتست أهمية خاصة باعتبارها تجربة فريدة تطبق منهجاً سيسيلوجياً عصرياً على فترة تاريخية قديمة ، ومن الإنصاف القول أنها أسهمت في الكشف عن المعالم الرئيسية لحركة العلماء في القرنين المذكورين الثقافية والفكرية خاصة ، كما أنها إستطاعت أن تقدم كشفاً بالتخصصات الثقافية والاتجاهات الفكرية لدى علماء الفترة المذكورة.

٢- عرض لمصادر البحث ومراجعه:

ورغم أهمية الموضوع فإن مصادره عزيزة فلا يجد الباحث في كثير من المظان إلا عبارات مبهمة وإشارات خاطفة وإيماءات خفية ومع ذلك فقد حاولت أن أشيد من تلك الحصيات بناءً وأن أشكل من تلك المتفرقات نظاماً.

وقد اعتمدت في بحثي على كثير من المصادر ثم على بعض المراجع العربية والأجنبية. وكانت كتب التراجم هي معتمدي الأكبر ، فمنها تعرفت على العلماء موضوع البحث عن كثب: حياتهم وثقافتهم. ولإن امتازت هذه الكتب بوفرة في المعلومات عن الحياة العلمية للعلماء فإنها في غالبها فقيرة في تسجيل الحياة السياسية لهذه الطبقة. وسأكتفي هنا بذكر أهم كتب التراجم التي اعتمدت عليها: كانت كتب القاضي عياض بن موسى بن عياض (ت٥٤٤هـ) من أهم مارجعت إليه من كتب التراجم ، فهو إمام ثقة صدوق معاصر للدولة المرابطية وعاش في كنفها وتولى القضاء في ظلها فكانت تراجمه للعلماء في عهدها شهادة عيان وبالتالي ذات قيمة كبرى. وقد اعتمدت أساساً على كتابيه "ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك" وهو موسوعة عظيمة الفائدة بسط فيها القول عن علماء المالكية إبتداءً بالإمام مالك بن أنس إلى عصر المؤلف فجاءت مليئة باللمحات التاريخية والمباحث العلمية والوقائع السياسية ، وقد طبع الكتاب في ثمان مجلدات بتحقيق مجموعة من الباحثين ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية١٩٦٨م.

أما كتابه الثاني فهو الغنية وقد ترجم فيه للشيوخ الذين أخذ عنهم وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٧٨م بتونس بتحقيق د. محمد بن عبد الكريم. ومن الجدير بالذكر أن القاضي عياض ألف كتاباً عن تاريخ الدولة المرابطية أشار إليه في كتاب المدارك عند ترجمته للإمام عبد الله بن ياسين حيث ذكر أنه بسط الحديث عنه في هذا الكتاب ، غير أنه لم يعثر إلى الآن على هذا الكتاب.

أما المصدر الثالث فهو كتاب الصلة لابن بشكوال وهو في نفس أهمية سابقيه إن لم يكن في بعض الأحيان أهم منهما. فمؤلفه أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف

بابن بشكوال (٤٩٤هـ - ٥٧٨هـ) معاصر للقاضي عياض وممن عاش في عهد الدولة المرابطية وقد أثنى العلماء عليه ووثقوه. وكتاب الصلة ، كما يدل على ذلك اسمه ، تتمة لكتاب سابق هو كتاب "تاريخ علماء الأندلس" للقاضي ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) فبدأ حيث انتهى ابن الفرضي ثم مضى يترجم لمن جاءوا بعده إلى سنة ٥٣٤هـ كما أنه ترجم لمن أهملهم ابن الفرضي ممن سبقوه. وقد ترجم ابن بشكوال في كتابه هذا لألف وخمسمائة وواحد واربعين شخصاً. وقد حوى الكتاب بين ثنايا التراجم أخباراً تاريخية مهمة ، يندر وجودها في الكتب الأخرى ، وتتعلق بأحوال العلماء وأخلاقهم وما تعرضوا له من المضايقات والنكبات ، ونصوصاً عن الفتن والإضطرابات وموقف العلماء منها ، ومع هذا فإنه يعرض في كثير من الحالات عن ذكر سبب بعض المحن التي تعرض لها بعض العلماء ويكتفي بالتلميح دون التصريح. وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات منها طبعة بتحقيق عزت العطار الحسيني ، القاهرة ، ١٩٩٤م (الطبعة الخامسة).

وممن عاصروا الفترة المرابطية عبد الحق بن عطية (ت٥٤١هـ) وقد خلف لنا فهرساً عن شيوخه وقد استفدت بعض المعلومات منه وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي - لبنان ١٩٨٠م.

ومن كتب التراجم المهمة كتابا محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨هـ) "المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي" وكتاب "التكملة" فكتاب المعجم ترجم فيه ابن الأبار لتلاميذ علم كبير من أعلام العهد المرابطي هو أبو علي حسين بن سكرة الصدفي (ت٥١٤هـ) وهو رغم صغر حجمه كتاب نفيس يحتوي على كثير من المعلومات التاريخية عن العلماء في الفترة المرابطية ويفصح أكثر من ابن بشكوال عن ملابسات عدد من الأحداث التي كان العلماء طرفاً فيها وإن كان مع ذلك يتوخى الإيجاز فلا يذكر كثيراً من التفصيلات والأحداث. وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة إحداها بتحقيق ابراهيم الإبياري سنة ١٩٨٩م ، أما كتاب "التكملة" فهو تتمة لكتاب "الصلة" لابن بشكوال ، السالف الذكر ، فابتدأ حيث وقف سلفه واستدرك ما أهمله فجاء كتابه موسوعة حافلة تضم أكثر من ألفي ترجمة فيها الكثير من الفوائد. وقـــــد

طبعت "التكملة" طبعات غير كاملة منها طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م التي نشرها عزت العطار الحسيني.

ولابن الأبار كتاب آخر مهم هو كتاب "الحلة السيراء" ويتناول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري. وقد طبع الكتاب بتحقيق د. حسين مؤنس بالقاهرة ١٩٦٣م. وقد أفدت من هذا الكتاب بعضاً من المعلومات المهمة. وإلى جانب كتب تراجم العلماء اعتمدت موسوعات أدبية ترجم فيها مؤلفوها لكثير من أعيان أهل الأندلس وفي مقدمة هذه الموسوعات كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ). ويمتاز هذا الكتاب بكون مؤلفه معاصراً للفترة التي ندرس فجاء كتابه مليئاً بكثير من الفوائد التاريخية وكان في كثير من الأحيان في ما يقدمه من تاريخ المترجم له يظهر جوانب حياته المختلفة وتفاعله مع أحداث عصره ووقائعه السياسية والاجتماعية ويربطها بغيرها من أحداث العصر. لكن المؤسف أن هذه الموسوعة لا تغطي إلا جزءاً من الفترة الزمنية موضوع البحث إذ أن ابن بسام أنهى تاليف كتابه حوالي ٥٠٥هـ ثم لم يضف إليه شيئاً بعد ذلك رغم أنه عاش بعد ذلك مدة مديدة. وقد حقق هذا الكتاب د. إحسان عباس ونشره ١٩٧٩م في ثمان مجلدات.

وإلى جانب الذخيرة هناك كتابا الفتح بن خاقان (ت٥٢٩هـ) "قلائد العقيان" و "مطمح الأنفس" وكلاهما مطبوع ورغم أن ابن خاقان عاش في الفترة التي نؤرخ لها وترجم لبعض من العلماء والشخصيات السياسية فإن معلوماته عامة مقتضبة وهو فيما يبدو معني بالمبنى أكثر منه بالمعنى فجاءت تراجمه خالية من القيمة التاريخية. لذلك استعملت ابن خاقان استئناساً لا أساساً.

وإلى جانب الصنفين السابقين من المصادر استعملت كتب التاريخ العام ومن أهمها كتاب "التبيان" للأمير عبد الله بن بلقين بن زيري آخر ملوك بني زيري في غرناطة والكتاب يؤرخ لدولة بني زيري في غرناطة في القرن الخامس الهجري. وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه معاصر للأحداث التي يكتب عنها وطرف رئيسي في

كثير منها فجاء كتابه تسجيلاً لشهادة أحد صانعي تلك الأحداث ، ولاشك أن شهادته تمثل على الأقل جزءاً من الحقيقة خصوصاً بالنسبة للعشرين سنة الأخيرة من فترة ملوك الطوائف (٤٦٩هـ - ٤٨٩هـ) وهي فترة مهمة تميزت باشتداد "حرب الاسترداد النصرانية" وبتدخل المرابطين في شؤون الأندلس ثم أخيراً خلع ملوك الطوائف وكان الأمير عبد الله أولهم. والكتاب مطبوع سنة ١٩٩٥م بالرباط بتحقيق أمين توفيق الطيبي الذي كان تحقيقه عملاً رائعاً.

كما اعتمدت على كتاب أحمد بن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب وخاصة الجزء الخاص بتاريخ المرابطين وهو الجزء الرابع من الطبعة الثالثة ١٩٨٣م. بتحقيق د. إحسان عباس. وقد احتوى هذا الجزء على كثير من المعلومات المهمة عن دولة المرابطين وتطورها التاريخي ولكن - لسوء الحظ - يوجد فراغ في القطعة المنشورة من سنة ٤٦٩هـ إلى عام ٤٩٥هـ بإستثناء قطعة عن بلنسية وقد حاول د. إحسان عباس أن يسد تلك الثغرة بإلحاق بعض النصوص التي تعالج الفترة المفقودة. ولكن رغم أهمية ذلك بالنسبة للقاريء العادي فإن هذه الضمائم تظل بالنسبة للباحث غير متناسقة مع كتاب ابن عذارى إذ هي إنتاج آخرين.

وإلى جانب "البيان المغرب" اعتمدت كتاب " الحلل الموشية" لمؤلف مجهول (مطبوع) ، فرغم صغر حجمه فهو كتاب قيم ومفيد يمدنا بمعلومات مهمة عن الدولة المرابطية استمدها من كتب أصيلة عاصر أهلها الدولة المرابطية مثل كتاب "الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية" لابن الصيرفي الذي كان كاتباً للأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين في غرناطة. وكتاب ابن الصيرفي هذا مفقود إلى الآن.

وقد أفدت كثيراً من كتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس" لابن أبي زرع إذ فيه كثير من التفاصيل المهمة عن الدولة المرابطية في معظم مراحلها. ولا يقلل من شأن هذا الكتاب في شيء ما وجهه إليه بعض الباحثين من نقد[1] ، إذ لكل مؤلف سقطاته وهفواته.

---

[1] أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧٤.

كما اعتمدت في بعض الفصول على كتابي لسان الدين ابن الخطيب: "أعمال الأعلام" و "الإحاطة في أخبار غرناطة" ففيهما كثير من الفوائد التاريخية بالنسبة لموضوعنا وخصوصاً "أعمال الأعلام". وقد عطرت أرجاء هذه الرسالة بأرواح ندية من "نفح الطيب" و "أزهار الرياض" للمقري واتخذتهما مصدرين تكميليين.

ومن كتب الرحلات ومعاجم البلدان فقد عولت كثيراً على أبي عبيد البكري في المسالك والممالك ، فعلاوة على أنه معاصر لقيام الدولة المرابطية فقد كان دقيقاً في ما جمع من أخبار فجاءت معلوماته قيمة ومفيدة عن الفترة الأولى من تاريخ المرابطين.

وكما أفدت في التعريف بكثير من البلدان والمواقع على كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميرى.

وأراني غنياً عن ذكر استفاداتي من كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر" لعبد الرحمن بن خلدون إذ هو مصدر لا غنى عنه لكل باحث في تاريخ المغرب حتى القرن الثامن الهجري.

وقد استعنت أيضاً بكثير من المراجع استقيت منها في معظم الأحوال آراء أصحابها حول بعض الأحداث مستأنساً بتلك الأقوال في تأييد وجهة نظري أو ساردا لها للرد عليها من زاوية رؤيتي. وتأتي في مقدمة هذه المراجع موسوعة محمد عبد الله عنان "دولة الإسلام في الأندلس" وخاصة الجزئين الخاصين بـ"دول الطوائف" و "عصر المرابطين" إذ قد جمع فيها فأوعى لكن أحكامه واستنتاجاته بالنسبة للدولة المرابطية لم تكن كلها مصيبة.

كما أفادتني موسوعة عنان بما نقلته من روايات نصرانية للأحداث. كما استفدت كثيراً من تحليلات وبعض استنتاجات د. عصمت دندش في كتبها المختلفة حول دولة المرابطين وخصوصاً في كتابيها: "الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين" وكتاب "أضواء جديدة على المرابطين.

كما أفدت من مقالات د. حسين مؤنس وكتبه وخصوصاً كتاب "شيوخ العصر" وكذلك من كتب د. محمد بن عبود وخصوصاً كتابه "جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري".

ومن المراجع المهمة التي أفدت منها كتاب يوسف أشباخ: "الأندلس في عصر المرابطين والموحدين" ورغم أنه فيه كثير من التحامل على المرابطين فإنه مفيد لما يحويه من روايات نصرانية عن الأحداث.

كما إستفدت من بعض المراجع الأجنبية ومن أهمها كتاب: ج. كوك: تاريخ إنتشار الإسلام في غرب افريقيا.

J.cuoq: Histoire de L'ISLAMISATION de L'Afrique de L'ouest ففيه بعض الإستنتاجات الجيدة عن إنتشار الإسلام في غرب افريقيا في عهد المرابطين.

وكتاب H.TERRASSE: Histoire du MAROC ه. تيراس: تاريخ المغرب.

فإن تكن إصابة فتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وإن يكن تقصير فقد بذلت جهد المقل.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد رسول الله

التمهيد: العلماء وأدوارهم التاريخية (السياسية) في المغرب الإسلامي قبل المرابطين

لقد أرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسلام لينقذ الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم سبيل الرشاد صراط الله المستقيم. وجعل الله هذه الرسالة خاتمة الرسالات الخالدة إلى يوم الدين. وبعد أن إنتقل رسول هذه الأمة عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، حمل لواء الإسلام من كل جيل عدوله ينيرون سبل الأمة ويحفظون عليها دينها الذي هو مصدر وجودها وضمان إستمرارها.

إن هؤلاء العدول الأخيار هم العلماء ورثة الأنبياء الذين بهم يصلح الناس وترشد المجتمعات. فهم الذين ينيرون درب الحياة فيرشدون الأمة إلى مستقيم الطرق ، ويدلونها على الخير ويأمرونها به وينهونها عن المنكر.

إن علماء هذه الأمة الإسلامية قد وعوا منذ تنزلت الرسالة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن واجبهم في هذه الحياة هو أن يكونوا ضمير الأمة الحي الذي أنيط به واجب تمييز الخبيث من الطيب والحق من الباطل والظلمات من النور بالدعوة إلى العزيز الحميد والحفاظ على الأمة أن تجتالها الشياطين فتخسر الدنيا والآخرة. إن هذه الرسالة الخاتمة الخالدة هي الطريق المستقيم الذي إرتضاه الخلاق العليم لهذه البشرية من أجل صلاح أمرها في الدنيا وفلاحها في الآخرة.

ولما كان العلماء هم حفظة هذا الدين كانوا أمناء هذه الأمة وقوادها في خضم هذه الحياة يجلون ليلها ويبينون سنن الهدي إذا اشتبهت الأمور وينصحون لها ويضربون على يد منحرفها لينقذوا سفينة الخير من الغرق. إن هؤلاء العلماء الذين كانوا المثل

الأعلى الذي تحتذيه الأمة ، ظهروا في كل أنحاء بلاد الإسلام مرشدين بـالقول والعمـل. وقد كـان لبلاد المغرب الإسلامي[١] من هذه الفئة (العلماء) نصيب وافر. فأثروا في تاريخها وصيرورة أحداثهـا ، منذ أن دخل الإسلام هذه البلاد إبتداءً من سنة ٢٠ للهجرة.

فقد تنبه المسلمون إلى أن الفتح لا يمكن أن يؤتي أكله ويرسخ جذره إلا عـن طريـق التعليم على أيدي العلماء العاملين ، فنرى حسان بن النعمان الذي أوكل إليه الفتح مـا بـين سـنتي ٧٣ – ٨٥هـ يوزع الفقهاء على سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين ونشر اللغة العربية لغة القـرآن فأقبل البربر على الإسلام في حماس منقطع النظير[٢] .

وهو نفس الأمر الذي سنراه مع موسى بن نصير الذي تولى الفتح من سنة ٨٦ – ٩٦هـ فإنه لما إستكمل فتح المغرب الأقصى بفتح طنجة وما والاها أقام عليهـا طـارق بـن زيـاد وتـرك معـه ١٧ رجلاً من العرب الفقهاء يعلمون البربر القرآن وشـرائع الديـن الإسـلامي فبـدأ إسـلام أهـل المغـرب الأقصى على يد هؤلاء[٣] . ولاشك أنه فعل ذلك أيضاً في المناطق الأخرى من المغرب.

وقد تواصل هذا النهج المعتمد على إرسـال العلمـاء إلى المغـرب لتثبيـت الإسـلام وتعميقه ونشر اللغة العربية. فلقد قام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، عنـد تعيينه

---

[١] يطلق المؤرخون العرب تسمية المغرب على بلاد شمال افريقيا والأندلس (عبد الرحمن بـن خلـدون ، كتـاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيـام العـرب والعجـم والـبربر ، طبـع مؤسسـة جمـال للطباعـة والنشـر بـيروت ، ج٦/ص٤٠٠ والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريـان ومحمـد العلمي الطبعة ٧ دار الكتاب ، الدار البيضـاء ، ص٧ ، ١٩٧٨ ؛ أمـا تسـمية الغـرب الإسـلامي فهـو تسـمية حديثة إستعملها الفرنسيون فقالوا L'occident Musulman ويشمل بلاد المغـرب والأندلـس وصقلية وجزائـر البحر المتوسط (الأوسط والغربي) والصحراء الكبرى (حسين مؤنس: تاريخ المغـرب وحضارتـه ج١ ، الطبعـة الأولى ١٩٩٠ الدارالسعودية للنشر والتوزيع ، جدة ص ١٩.

[٢] ابن عـذارى المراكشـي: البيـان المغـرب في أخبـار الأندلـس والمغـرب ج١ تحقيـق ج.س.كـولان و إ.ليفـي بروفنسال ، ليدن (هولندا) ١٩٤٨م ص ٣٨ ؛ أبـو العبـاس أحمـد بـن خـالد النـاصري السـلاوي: الإسـتقصا لأخبار المغرب الأقصى تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد ، دار الكتاب الدار البيضـاء بـالمغرب ١٩٥٤م، ج١ ص ٩٤.

[٣] عبيد الله بن صالح: نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشر ليفي بروفنسال وعلق عليه د. حسين مؤنـس في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٤م ص ٢٢٤.

لإسماعيل بن عبيد الله والياً على المغرب سنة ١٠٠هـ ، بإرسال مجموعة من التابعين أهل علم وفضل ، لتفقيه البربر في دينهم حتى يتمكن الإسلام من القلوب[١] . وهؤلاء التابعون هم عبد الله بن يزيد المعافري[٢] وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي[٣] . وإسماعيل بن عبيد الأنصاري[٤] وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي[٥] وأبوسعيد جعثل بن هاعان بن عمير الرعيني[٦] وحيان بن أبي جبلة القرشي[٧] وموهب بن حبي المعافري[٨] . وغيرهم وقد تولى إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر والي المغرب توزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب وتحول البربر ، بفضل هؤلاء وأمثالهم دخل البربر إلى الإسلام ولم يبق على غير الإسلام في المغرب سوى جماعة من الروم وطائفة من اليهود.

---

(١) أبوالعرب محمد بن تميم: طبقات علماء افريقية وتونس تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي ، ١٩٦٨ ، الدار التونسية للنشر تونس ، ص ٨٤.

(٢) عبد الله بن يزيد الحنبلي المعافري (ت١٠٠) تابعي روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص توفي بتونس. (أبو العرب طبقات علماء افريقية وتونس، ص ٨٦ ؛ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج١ تحقيق: إبراهيم شبوح ، ط٢ ، ١٩٦٨، مكتبة الخانجي بمصر ص ١٨٠.

(٣) سعد بن مسعود التجيبي ، تابعي صحب جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، سكن القيروان وبها مات (أبو العرب طبقات علماء افريقية وتونس ٨٦ ؛ الدباغ معالم الإيمان ج١ ص ١٨٤).

(٤) إسماعيل بن عبيد الأنصاري الملقب بتاجر الله ، تابعي صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم سمي بتاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله يصرفه في وجوه الخير توفي عام ١٠٧هـ (الدباغ معالم الإيمان ج١ ص ١٩٠).

(٥) عبد الرحمن بن رافع التنوخي (ت١١٣هـ) تابعي سكن القيروان ونشر العلم فيها (الدباغ معالم الإيمان ج١ ص ١٩٨).

(٦) جعثل بن هاعان (ت١١٥) كان فقيها صالحاً ولاه هشام بن عبد الملك قضاء جند افريقية (معالم الإيمان ج١ ص ٢٠٢).

(٧) جيان بن أبي جبلة القرشي المصري (ت١٢٢هـ) تابعي روى عن جماعة من الصحابة (معالم الإيمان ج١ ص ٢٠٩).

(٨) موهب بن حي ، تابعي صحب ابن عباس وروى عنه ، سكن القيروان وبث فيها العلم وفيها توفي (الدباغ: معالم الإيمان ج١ ص ٢١٣ ؛ أبو العرب: طبقات علماء افريقية ص ٨٧).

ويذكر المؤرخون أن البربر أسلموا جميعهم في أيام إسماعيل بن أبي المهاجر[١] ، الذي كان عالماً داعياً إلى الله بالقول والعمل، تابعياً جليلاً وإماماً زاهداً وبهذا كان مصلحاً من أعظم ولاة بني أمية على المغرب. فقد ورث عن جده أبي المهاجر دينار[٢] صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير وكان يجمع إلى ذلك كياسة وورعاً وتقوى ولذلك نراه يتفانى في نشر الإسلام بين قبائل البربر ويعمل جهده على تعليمهم[٣] . لقد كان للدور الهام والكبير الذي قام به العلماء في نشر الإسلام وتثبيته وتعميقه في نفوس أهل المغرب الإسلامي ونشر اللغة العربية في هذه الربوع أن عظمت مكانة العلم وأهله. ونتيجة لذلك لعب العلماء أدواراً تاريخية كبيرة في المسيرة التاريخية لبلاد المغرب في الحقب التالية للفتح وإستقرار الإسلام.

وكما هو حال كل البلاد المفتوحة حديثاً فقد كان أهل العلم في المغرب من القادمين من المشرق. لكن أهل المغرب ما لبثوا وبأعداد متزايدة أن رحلوا إلى المشرق في طلب العلم ، حيث بذلوا جهوداً محمودة لتحصيله وقد ظهر منهم أئمة كبار سنتعرض لهم لاحقاً.

أدوار العلماء في المغرب في أواخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية

لقد كان لإسلام منطقة المغرب وإقبال أهلها الشديد على الإسلام مع جهلهم باللغة العربية وبعدهم عن مراكز الإشعاع العلمي في مطلع القرن الثاني الهجري أن صارت هذه البلاد مرتعاً لكل النحل ومسرحاً لكل المذاهب. فقد دخل المغرب جماعات من الخوارج[٤] صفرية[٥] وأباضية[٦] . وسيتلوهم لاحقاً دعاة الشيعة.

---

[١] ابن عذارى: مصدر سابق ج١ ص ٤٥.

[٢] أبو المهاجر دينار: والي افريقية للدولة الأموية من سنة ٥٥ - ٦٢هـ ؛ ابن عذارى: مصدر سابق ، ج١ ص ٢١ - ٢٣.

[٣] ابن عذارى: مصدر سابق ج١ ص ٤٥.

[٤] أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص ٣٣٣.

[٥] الصفرية: فرقة من الخوارج تنسب إلى زياد بن الأصفر.وعنهم تفرعت فرق الخوارج غير الأزارقة والإباضية والنجدات وهم يجوزون التقية في القول دون العمل.

[٦] الأباضية: فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن أباض التميمي ومقالاتهم معتدلة إذا ما قيسوا بالخوارج الأزارقة.

ولقد وجد هؤلاء الدعاة أرضاً خصبة لدعوتهم وقبولاً حسناً بين البربر[١] ويعود سبب هذا القبول إلى عدة عوامل[٢] ، لعل من أهمها ماكان يدعو إليه دعاة الخوارج من المساواة بين المسلمين وأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة على العرب وحدهم بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح دون أية تفرقة جنسية وهونوا عليهم شأن الخروج على الحكام بإعتبارهم ظلمة.

ولقد ساعد على تقبل البربر لهذه الدعاية ما كان يتميز به بعض ولاة بني أمية من جور وعسف وظلم للرعية من أمثال يزيد بن أبي مسلم الذي ولي عام ١٠١هـ وأدت سياسته إلى أن قتل سنة ١٠٢هـ[٣] وعبيدة بن عبد الرحمن السلمي الذي ولي عام ١١٠هـ وعبيد الله بن الحبحاب الذي ولي سنة ١١٦هـ وعامله على طنجه عمر بن عبد الله المرادي[٤] . هذا الظلم الذي مارسه بعض الولاة أدى إلى إعتناق البربر للمذاهب الخارجية وبالتالي إلى الثورة على ولاة بني أمية وعمالهم وشكلت هذه الثورة خطراً كبيراً على مذهب أهل النسنة في المغرب مما أدى بفقهاء افريقية إلى الوقوف إلى جانب ولاة بني أمية في وجه هذا الخطر الداهم. فاشتركوا في الجيوش لمحاربة الخوارج بل قادوا هذه الجيوش كما كان الحال مع القاضي عبد الرحمن بن عقبة الغفاري قاضي افريقية الذي حارب الخوارج إلى أن أستشهد سنة ١٢٤هـ. كما اشترك الفقهاء في معركتي القرن[٥] والأصنام[٦] مع الوالي حنظلة بن صفوان سنة ١٢٥هـ وكانتا نصراً عظيماً على الخوراج الصفرية.

سقطت الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ وقامت على أنقاضها دولة بني العباس في العراق. وتميز عهد الولاة العباسيين الأوائل على افريقية بظهور فقهاء أعلام كان لهم

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج١ ص ١٤٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج٦ ص ٥٧٨.

(٣) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٤م الجزء السادس ص٦١٧ ؛ علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني المعرف بابن الأثير: الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٨٢م ، المجلد الخامس ص١٠١.

(٤) إبراهيم بن القاسم ، الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م ، نشر رفيق السقطي تونس ، ص ٩٩.

(٥) القرن: موضع غربي القيروان.

(٦) الأصنام: موضع على بعد ٤٠٠ كيلو متر غربي القيروان.

دور كبير في نشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أمثال عبد الرحمن بن أنعم[1] (ت١٦١هـ) قاضي افريقية.

غير أن الحدث الأهم والذي سيكون له أثره العميق في تاريخ افريقية والمغرب عموماً هو إنتشار مذهب الإمام مالك بن أنس في هذه الصقاع.

وقد دخل هذا المذهب على يد فقهاء من أتباع مالك أخذوا عنه العلم والعمل ومن أوائل هؤلاء علي بن زياد[2] والبهلول بن راشد[3] . وسوف يتخذ أهل المغرب من المذهب المالكي هوية قومية لهم تجمعهم ، وسيتعصبون له ويرفضون كل ما سواه من مذاهب.

لكن ماهي الأسباب التي دفعت أهل افريقية والمغرب عموماً إلى اعتناق المذهب المالكي دون سواه؟

لقد تعددت التفسيرات لكن أقربها وأكثرها واقعية هو ما نحى إليه ابن خلدون[4] فهو يرى أن سبب تمسك أهل المغرب بالمذهب المالكي يعود إلى سببين رئيسيين: أولهما أن رحلة المغاربة كانت إلى الحجاز لأداء الحج فكان من الطبيعي أن يلتقوا بالإمام مالك وأتباعه.

أما السبب الثاني فهو تشابه البيئة بين الحجاز والمغرب فهم جميعاً أقرب إلى البداوة وبالتالي كان الفقه الذي أفرزته البيئة الحجازية أقرب إلى نفوس المغاربة وواقعهم.

---

(1) عبد الرحمن بن أنعم المعافري: عالم محدث ولي القضاء بالقيروان لأبي جعفر المنصور توفي سنة ١٦١هـ (طبقات علماء افريقية وتونس لإبي العرب بن تميم ص ٩٥).

(2) علي بن زياد التونسي العبسي ، أبو الحسن (ت١٨٣هـ): إمام ، حافظ ، بارع في الفقه سمع من مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد. وهو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب (عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ج٣ ، تحقيق عبد القادر الصحراوي ، الطبعة الأولى ١٩٦٨ ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ، الرباط ، ص ٨٠ - ٨٤).

(3) البهلول بن راشد ، أبو عمرو (ت ١٨٣هـ): كان ثقة مجتهداً ورعاً ، سمع من مالك والثوري والليث بن سعد. وأخذ الموطأ عن علي بن زياد وكان شديد الإنكار على أهل الأهواء والبدع. (عياض: المدارك ج٣ ص ٨٧ - ١٠١).

(4) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة ج٢ تصحيح وفهرسة أبو عبد الله السعيد المندوه ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ، ص ١٣٢.

ولعلي أضيف إلى هذه الأسباب الوجيهة التي ساقها عبد الرحمن بن خلدون سبباً آخر ، وهو إنتشار المذهب المالكي في ذلك الوقت في مصر وبروز علماء أعلام على هذا المذهب من أمثال ابن القاسم العتقي[١] وأشهب[٢] . وغيرهما كثير ، ومصر هي أقرب حواضر الإسلام الكبرى إلى إقليم المغرب وهي طريق أهل هذا الإقليم إلى الحج وطلب العلم ، من ثم كان إختيارها المذهبي مؤثراً في المغرب.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري سيلعب علماء المالكية أدواراً بارزة في تاريخ المغرب والأندلس ناشرين العلم وهو واجبهم الأول ولازم صفتهم ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

تميزت فترة النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، في افريقية بظهور علماء مالكيين كبار من أمثال علي بن زياد والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات[٣] ثم سحنون[٤] ، رفعوا قدر العلم وأهله وصدعوا بالحق إبتغاء وجه الله.

أدوار العلماء في الدولة الأغلبية

لعب العلماء أدواراً تاريخية في عهد الدولة الأغلبية التي أسسها إبراهيم بن الأغلب[٥] . ومن أبرز هؤلاء العلماء أسد بن الفرات قاضي افريقية الذي كان له دور

---

[١] عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصري (ت١٩١هـ) أحد كبار أصحاب مالك ، لزمه يأخذ عنه عشرين سنة حتى صار أفقه الناس بمذهب مالك. روى عنه الموطأ وكان ثقة ، ورعاً ، عابداً ، زاهداً (عياض: المدارك ج٣ ص ٢٤٤ - ٢٦١).

[٢] أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري ، أبو عمرو (ت٢٠٤هـ) أحد كبار أصحاب مالك المصريين ، كان فقيهاً ، حسن النظر ، ثقة فيما روى عن مالك وانتهت إليه رئاسة العلم في مصر بعد موت ابن القاسم (عياض: المدارك ج٣ ص ٢٦٢ - ٢٧١).

[٣] أسد بن الفرات (ت٢١٤هـ): أبو عبد الله مولى بني سليم ، سمع من مالك بن أنس موطأه ولقي أصحاب أبي حنيفة كان ثقة خلياً من البدع. ولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على الجيش الذي وجهه إلى صقلية سنة ٢١٢هـ فاستشهد فيها سنة ٢١٤هـ. (أبو العرب بن تميم القيرواني: طبقات علماء افريقية ص ١٦٣ - ١٦٦).

[٤] سحنون: عبد السلام بن سعيد التنوخي (١٦٠ - ٢٤٠هـ) فقيه قيرواني إنتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب في عصره ولي قضاء القيروان عام ٢٣٤هـ (أبو العرب: طبقات علماء افريقية وتونس ص ١٨٤).

[٥] إبراهيم بن الأغلب: (ت١٩٦هـ) موسس الدولة الأغلبية في افريقية سنة ١٨٤هـ في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) الذي أقره على ولاية افريقية (ابن خلدون: ج العبر ج٤ ص ٤٢٠).

فعال في الجهاد. فقد قاد جيش المسلمين المتجه لفتح صقلية سنة ٢١٢هـ وذلك في عهد زيادة الله الأول الأغلبي (٢٠١ – ٢٢٢هـ). وكان الفقهاء في مقدمة موكب خروج المجاهدين وتشييعهم من القيروان إلى سوسة. وقد احتفظ أسد بن الفرات بوظيفته كقاضي للجيش إلى جانب عمله كقائد للحملة[١] . وظل أسد يواصل الفتح مظفراً إلى أن توفي سنة ٢١٤هـ بصقلية مجاهداً.

ومع مطلع القرن الثالث الهجري أصبح الفقهاء يكونون فئة إجتماعية متميزة ، معظم أفرادها قد رحلوا إلى المشرق لسماع مالك أو أصحابه. ورجعوا بعلم وافر وبأفكار ومواقف جريئة في الحق.

وسيتجلى هذا الواقع الجديد في شخص الإمام سحنون بن سعيد (١٦٠ – ٢٤٠هـ) الذي كان يوصف بالفقه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهادة في الدنيا[٢] . وقد صنف المدونة في الفقه فاعتمد أهل المغرب عليها وتركوا ماسواها[٣] . وقد كثر أصحابه فانتشر علمه في المغرب كله.

لقد بوأت هذه الصفات سحنوناً لأن يكون إمام عصره فيؤثر تأثيراً كبيراً في دولة الأغالبة ، وقد عرف له أمراء هذه الدولة هذه المكانة فتعاملوا معه وفقها فولوه القضاء على شروطه ، ولم يتعرضوا له في نهيه وأمره وإن كان بعض ذلك على مضض منهم[٤]. لقد كون الإمام سحنون بسلوكه وعلمه منهجاً قويماً لا يهدف إلا إلى الإصلاح قدر المستطاع وقد عبر عنه خير تعبير عندما كتب إليه محمد بن الأغلب يتوعده بالقتل إثر خلاف بينهما فأجابه سحنون بقول الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية[٥].

---

[١] ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ج١ ، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث للطبع والنشر – القاهرة ص ٢٠٣.

[٢] أبو العرب بن تميم: طبقات علماء افريقية ص ١٨٤.

[٣] ابن فرحون: الديباج ج٢ ص ٣٤.

[٤] عياض: المدارك ج١ ص ٦٠٤.

[٥] الآية ٤١ من سورة غافر.

كان ذلك مذهبه رحمه ا لله ومذهب تلاميذه من بعده: الدعوة إلى نجاة المجتمع المسلم.

إن الإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع كان هو السلوك البارز لعلماء المالكية في زمن الدولة الأغلبية ، فكانت مواقفهم تتسم بالإيجابية مع الأوضاع السائدة أي المشاركة المفيدة التي تعود على الأمة بالصلاح ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ضاربين المثل الحي بأنفسهم في ذلك.

غير أن عاملاً جديداً سيطرأ على المنطقة يجعل العلماء في القيروان يتشبثون بالدولة الأغلبية. هذا العامل هو دخول أبي عبد ا لله الشيعي[1] إلى افريقية مع وفد حجاج كتامة في سنة ٢٨٠هـ[2] ونجاحه في نشر الدعوة الشيعية بين قبيلة كتامة فقويت شوكته بهم فشكل تهديداً حقيقياً للدولة الأغلبية.

رأى العلماء أنهم أمام هذا الوضع الجديد عليهم الإختيار بين السيء: الذي تمثله دولة الأغالبه وحاكمها زيادة ا لله الثاني ، وبين الأسوأ الذي يمثله أبو عبد ا لله الشيعي ودعوته. ونتيجة لذلك قام العلماء بإظهار اللعنة والبراءة من الشيعي وتحريض الناس على قتاله والفتوى بمجاهدته[3] ، لكونه كافراً خارجاً عن الملة[4] .

إلا أن هذا السند القوي الداعم للدولة الأغلبية والمتمثل في علماء المالكية لم يغير ميزان القوى لصالح هذه الدولة ربما لأن الدولة الأغلبية قد إستنفدت مبررات وجودها لدى الرعية بسبب ظلم بعض ولاتها وخصوصاً زيادة ا لله الثالث[5]، فلم تعد لها عصبية تحمي حوزتها من السقوط، وبالتالي لم يكن ليجدي حسن نوايا العلماء في هذا الظرف

---

[1] أبو عبد ا لله الشيعي: الحسين بن أحمد بن زكريا الصنعاني. أحد الدعاة الكبار للشيعة الإسماعيلية إستطاع بذكائه الخارق وحسن تدبيره أن يقيم دولة شيعية في المغرب بفضل مؤازرة قبيلة كتامة البربرية. وكان أبو عبد ا لله يدعو بإسم عبيد ا لله المهدي. وبعد قيام الدولة الشيعية وتولى عبيد ا لله المهدي مقاليد الأمور خاف من داعيته فقتله سنة ٢٩٨هـ.(ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٣١ - ٣٧).

[2] ابن عذارى: مصدر سابق ج١ ص ١٢٤.

[3] المصدر السابق ص ١٣٧.

[4] المصدر السابق ص ١٣٨.

[5] زيادة ا لله الثالث: آخر أمراء الدولة الأغلبية تولى الحكم بعد قتله لأبيه سنة ٢٩١هـ ولكن الأمور لم تصف له بسبب تغلب أبي عبد ا لله الشيعي على البلاد ففر زيادة ا لله إلى مصر٢٩٦هـ.

الدقيق فقد إتسع الخرق على الراتق. وكـانت النتيجـة الحتميـة سقوط الدولـة الأغلبيـة بفرار زيادة الله الثالث سنة ٢٩٦هـ. ليبدأ العلماء طوراً جديـداً مـن أطـوار صـراع الحـق والباطل مع قيام دولة العبيديين[١] .

أدوار العلماء بدولة الفاطميين

لم يكن من المتوقع أن تتسم علاقة الفاطميين بالعلماء المالكيين بالود وذلـك نظـراً للعداء المستحكم الذي كان سائداً بين أهل السنة والشيعة على إمتداد بـلاد الإسـلام. إلا أن حالات الهدنة التي كانت تسود مـن حـين لآخـر بـين الطرفـين ، لم تعرفهـا بـلاد افريقية وباقي المغرب منذ أقام الفاطميون دولتهـم سـنة ٢٩٧هـ. فقد حـاول عبيـد الله المهدي[٢] أن يرغم الناس بحد السيف ، على إعتناق مذهب الدولة الجديد.

ولما لم يجد أذناً صاغية من الناس ومن قيادتهم المتمثلة في العلماء بدأ بقتل هؤلاء فأمر بذبح الفقيهين أبي اسحاق بن محمد المعروف بابن البردون وأبي بكر بن هذيل[٣] . وتفنن في أنواع التنكيل ولأدنى الأسباب فنراه يقطع لسان مؤذن لأنـه نسـي أن يقـول في آذانه حي على خير العمل[٤] . أما إيذاء العلماء فقد عمت به البلوى ولم ينج منـه أحـد من علماء القيروان[٥] .

---

[١] دولة العبيديين: هي الدولة الفاطمية التي أقامها الشيعة الإسماعيلية ما بين سنتي ٢٩٧هـ - ٣٦٢هـ في المغـرب ثم نقلوا مقر حكمهم إلى مصر حيث بقيت دولتهم إلى سنة ٥٦١هـ للتفصيل: المقريزي: إتعاظ الحنفا ، حسـن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية.

[٢] عبيد الله المهدي: أول خلفاء الدولة الفاطمية يرفع الشيعة نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء تـوفي سنة ٣٢٢هـ بالمهدية.

[٣] أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الضبي يعرف بابن البرذون (ت٢٩٩هـ) فقيـه ، بـارع في العلم ، ورع ، كـان شديد الإنكار على الشيعة ، وذاباً عن السنة فتعرض جراء ذلـك لبطشـهم. (أبـو بكـر بـن عبـد الله بـن محمـد المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية ج٢ تحقيق بشير البكـوش ، الطبعـة الأولى ١٩٨٣ ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ص ٤٧ - ٤٨) ؛ أبو بكر بن هذيـل (ت٢٩٩هـ) فقيـه قـيرواني ، ورع قتلـه الشيعة بسبب إنكاره عليهم ومجاهرته بذلك (المالكي: رياض النفوس ج٢ ص ٤٩ - ٥٠).

[٤] ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ١٨٢.

[٥] الدباغ: معالم الإيمان ج٢ ص ١٣٧.

إلا أن هذا العسف والتنكيل لم يفلح في تغيير موقف علماء المالكية من الفاطميين ومذهبهم بل زادهم إصراراً عليه إلى الحد الـذي رؤي فيـه الفقيـه المـالكي عبد الله بـن التبان[١] يبكي بحرقة فقيل له في ذلك فقال: خشية أن يشك الناس في كفـر بـني عبيـد فيدخلوا النار.

لقد اتخذت مقاومة الفاطميين أشكالاً كثيرة إبتداءً بترك شهود الجمعة معهـم إلى أن تناهى الحال حتى لم يعد يحضرها من أهل القيروان أحد[٢].

مروراً بلعنهم ونسـبتهم إلى الكفـر والمـروق عـن الديـن[٣] والإمتنـاع عـن طـاعتهم والإفتاء بأن دفع الزكاة لهم لا يجزيء وقد افتى بذلك القابسي[٤] والجبنياني[٥].

وقد تردد ابن ابي زيد[٦] في البداية في هـذه المسـألة وأجـاز دفـع الزكـاة إلا أنـه رجع عن ذلك وقال بعدم جواز ذلك لأنها تنفق في الخمور والمعاصي[٧].

---

[١] أبو محمد عبد الله بن إسحاق بن التبان: أحد كبار فقهاء القيروان ومتكلميهم توفي سنة ٣٧١هـ (عياض: المدارك ج٢ ص ٥٢١).

[٢] ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ٢٢٧.

[٣] عياض: المدارك ج٤ ص ١٥٧.

[٤] علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بأبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ) فقيه أصول متكلـم ، إمـام في علم الحديث. أخذ عنه كثير من أهل العلم منهم أبو عمران الفاسي وأبو عمرو الداني. لـه تـآليف عـدة منهـا كتاب "الممهد في الفقه" و "أحكام الديانة" و "المنقذ من شبهة التأويل". توفي بالقـيروان سـنة ٤٠٣هـ ودفـن بها. (محمد بن محمد مخلوف: شـجرة النـور الزكيـة في طبقـات المالكيـة ، الطبعـة الأولى ١٣٤٩هـ ، المطبعـة السلفية - القاهرة ، ص ٩٧).

[٥] إبراهيم بن أحمد ، أبو إسحاق الجبنياني البكري (ت٣٦٩هـ) أحد العلماء العـاملين كـان مـن أعلـم النـاس بإختلاف العلماء. مجمع على فضله وورعه. (ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

[٦] أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي القيرواني (ت ٣٨٦هـ) إمام المالكية في وقته ، وقدوتهـم ، كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية. كانت إليه الرحلة من الأقطار وكثر الآخذون عنه. له كتب مشهورة منها كتاب "النوادر والزيادات على المدونة" وكتاب "مختصر المدونة" وكتاب "الرسالة". تـوفي بالقـيروان سـنة ٣٨٦هـ وقبره معروف بها (ابن فرحون: الديباج ج١ ص ٤٢٧ - ٤٣٠ ؛ مخلوف: شجرة النـور الزكيـة ص ٩٦).

[٧] عياض: المدارك ج٢ ص ٧١٤.

وأدي هذا العداء المتنامي والمستحكم إلى نتائج أخرى أعظم: منها خروج العبيديين من القيروان وبناءهم مدينة خاصة بهم هي المهدية التي لجؤوا إليها سنة ٣٠٨هـ بعداً عن أجواء القيروان وأهلها المعادين.

إلا أن تحول الفاطميين إلى المهدية[١] لم يكن ليخفف من حدة التوتر بين الطرفين. بل إن الأمور تطورت في ظل الجور والعسف الذي يمارسه الفاطميون إلى مجابهة مسلحة حمل العلماء فيها السلاح ثائرين على هذا الواقع المرير الذي لم تجد شتى السبل في إزالته. واعتبر العلماء قتيل الفاطميين خير قتيل[٢].

لقد وجد العلماء فرصة حمل السلاح وخلع العبيديين في الإنضمام إلى ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني المعروف بصاحب الحمار (ت ٣٣٦هـ) وهي ثورة إستغرقت نحو ٢٥ سنة من عمر الدولة الفاطمية في المغرب[٣] . غير أن حركتها الفعلية بدأت سنة ٣٣٠هـ.

وقد بدأت هذه الثورة في شكل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم تطورت إلى تكفير الشيعة ثم الخروج على سلطانهم.

وصلت هذه الثورة ذروتها عندما إحتل أبو يزيد القيروان ورقادة سنة ٣٣٣هـ وحاصر المهدية عاصمة الفاطميين حصاراً شديداً أضطر أهلها فيه إلى أكل الدواب[٤] . ولقد إنضم إلى هذه الثورة كثير من أعيان الفقهاء من أمثال ربيع القطان[٥] وأبو العرب محمد بن تميم[٦] . وقد أعتبر الفقهاء الخروج مع أبي يزيد ، مع أنه خارجي النحلة

---

(١) المهدية: مدينة أنشأها عبيد الله المهدي وكانت العامة تسميها المردية تفاؤلاً بهلاكها.

(٢) الدباغ: المعالم ج٢ ص ٢٠٤.

(٣) حسين مؤنس: تاريخ المغرب ج١ ص ٤٩٧.

(٤) ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٤٢.

(٥) ربيع القطان: أبو سليمان بن عطاء الله القرشي ، إمام فقيه شاعر زاهد توفي سنة ٣٣٣هـ في جهاد الفاطميين (مخلوف: شجرة النور الزكية ص ٨٦).

(٦) أبو العرب محمد بن تميم القيرواني (٢٥٠ - ٣٣٣هـ) عالم من علماء افريقية ، اشتهر بكتابه طبقات علماء افريقية وتونس (عياض: المدارك ج٢ ص ٧٣).

أهون لأنه من أهل القبلة على حين أن الفاطميين كفار[١] . إلا أن هذه الثورة التي أستشهد فيها كثير من العلماء لم تصل إلى الهدف المنشود وهو إسقاط الدولة الفاطمية[٢] . لقد كانت مشاركة العلماء المالكيين في هذه الثورة محاولة يائسة للتخلص من واقع مرير أكثر منها عملاً مدروساً محسوب السلبيات والإيجابيات.

وكما هو متوقع لم يستتبع هذه الثورة إلا مزيد من العداء بين الفاطميين والعلماء إلى أن إنتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر سنة ٣٥٨هـ.

غير أن محنة العلماء لم تنته برحيل المعز لدين الله وكتامة إلى مصر بل أن صنهاجة المغرب الأوسط حملت لواء الدعوة الفاطمية من بعدهم وقامت دولة بني زيري التي لم تأل جهداً في نشر المذهب الشيعي بكل الوسائل ترغيباً وترهيباً. على أن العلماء المالكيين ظلوا أوفياء لمبادئهم فخلافهم مع الفاطميين لم يكن خلافاً مع أشخاص بعينهم بل خلافاً مع مبادىء. وطالما بقيت تلك المبادىء ستظل المعارضة والمحاربة.

وسيؤتى الصبر على المبدأ والمثابرة عليه أكله. فقد نجح العلماء المالكيون عن طريق التعليم في الوصول إلى أهدافهم المتمثلة في القضاء على مذهب الشيعة. لقد أوكل الأمير باديس بن منصور ثالث أمراء بني زيري الذي حكم ما بين (٣٨٦ - ٤٠٦هـ) بتربية ولده المعز إلى الفقيه المالكي أبو الحسن بن أبي الرجال ، الذي كان رجلاً ورعاً زاهداً فنشأ ربيبه على حب المذهب السني والإنصراف عن المذهب الشيعي الفاطمي ودله على مذهب مالك[٣] .

وماكاد المعز بن باديس[٤] يتولى الحكم بعد والده حتى بدأ الغرس يؤتي ثماره فبعد سنة واحدة من توليه (٤٠٧هـ) هاج العامة بالشيعة وقتلوا منهم مقتلة كبرى في

---

[١] عياض: المدارك ج٣ ص ٥٦٤ ؛ الدباغ: المعالم ج٣ ص ٣٧ ؛ ابن عذارى: البيان ج١ ص ٢٠٠.

[٢] من أسباب فشل ثورة مخلد بن كيداد ، النفور الذي حصل بين العلماء ومخلد. أما العامل الأساسي فهو وصول صنهاجة المغرب الأوسط بقيادة بلكين بن زيري للدفاع عن المهدية. (مؤنس: تاريخ المغرب مج١ ص٥٠٠)

[٣] ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ٢٧٣.

[٤] المعز بن باديس: رابع أمراء بني زيري الصنهاجيين في افريقية حكم مابين ٤٠٦ - ٤٥٣هـ.

القيروان وتونس وطرابلس وغيرها. وكان للفقهـاء دور فـاعل في هـذه الثـورة فهـم الذيـن حرضوا الناس عليها وكان أولهم في ذلك ابن أبي الرجال[١].

ولم تكن ثورة سنة (٤٠٧هـ) إلا الحلقة الأولى من سلسلة الثورات علـى الشـيعة. فستتلوها ثورة في سنة (٤١٧هـ) قتل فيها الكثير من الشيعة.

لقد كانت هذه الثورات إيذاناً بإنتهـاء الوجـود الشـيعي في إفريقيـة ، فلـم تـزل الأحداث تتفاعل في إتجاه القطيعة ما بين الصنهاجيين والفاطميين ، إلى أن أعلـن المعز باديس إنسلاخه من الولاء للفاطميين بل ولعنهم على المنابر[٢] ووصفهم بأشنع الأوصـاف وذلك سنة ٤٤٠هـ[٣] .

لقد كانت هذه نهاية الصراع بين الفاطميين والعلماء المـالكيين في المغـرب نهايـة كللت جهاد هؤلاء وتضحياتهم عبر أكثر من قرن من الزمن بالنصر المبـين. ممـا أدى إلى تجذر المذهب المالكي في نفوس أهل افريقية ، وعمق تأثير علماء هـذا المذهـب في سـكان هذا المنطقة ، ومن هؤلاء في هذه الفترة أي النصف الأول مـن القـرن الخـامس الهجـري عالم كبير ومصلح عظيم هو الشيخ أبي عمران الفاسـي الـذي سـنتحدث عنـه في الفصـل التالي من هذا البحث.

إلا أننا قبل ذلك سنتحدث عن جزء آخر من أجزاء المغرب الإسلامي لنسـتجلي مدى ما قام به العلماء في هذا الجزء وهـو الأندلـس. ولكـن لمـاذا لا نعـرج علـى المغـرب الأقصى قبل ذلك؟ إن عدم وجود دولـة[٤] في هـذا الجـزء مـن المغـرب الإسـلامي جعـل المؤرخين لا يذكرون عن هذه المنطقة إلا النزر القليل. لذا ظلت هذه المنطقة أساساً منطقة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٩ ص ١٣٢ ؛ عياض: المدارك ج٢ ص ٦٢٥ ؛ ابن عذارى: البيان ج١ ص ٦٢٥.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان ج٣ ص ١٩٦.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ٢٧٧ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٥٩.

(٤) إننا إذا استثنينا دولة الأدارسة (بين سنتي ١٧٢هـ - ٣١٠هـ) فـإن المغـرب ظـل منطقـة عبـور بـين افريقيـة والأندلس وهما المنطقتان الرئيسيتان في منطقة المغرب قبل قيام دولة المرابطين. وحتى دولة الأدارسة لم تعـرف قوة وإزدهار إلا لفترة قصيرة ما بين ١٧٢ - ٢١٣هـ.

صراع بين الدولة الفاطمية والإمارة الأموية[١] . فلم يزدهر فيها العلم ولا نسب إليها العلماء إلا في فترة متأخرة[٢] .

مكانة العلماء في المجتمع الأندلسي

لقد كانت منزلة العلماء منزلة عالية في سلم المجتمع الأندلسي فسمة الفقيه عندهم جليلة والمذهب السائد بين علماء الأندلس هو المذهب المالكي.

والمالكية إمتازت بأنها لم تكن مذهباً فقهياً فحسب بل كانت مذهباً سلوكياً[٣] ، قائماً على تعظيم شأن العلم وأهله.

وقد رحل الأندلسيون إلى مالك فأخذوا عنه العلم الغزير ومن أوائل هؤلاء الطلاب الذين رحلوا في طلب العلم زياد بن عبد الرحمن الملقب بشطبون[٤] . سمع من مالك الموطأ وكان أول من أدخله إلى بلاد الأندلس[٥] . وممن رحل أيضاً عيسى بن دينار الطليطلي[٦] فسمع من ابن القاسم تلميذ مالك وصحبه ثم عاد إلى الأندلس فكانت الفتيا تدور عليه.

ولعل أشهر من رسخ مذهب مالك وبث موطأه هو يحيى بن يحيى الليثي[٧] . فقد رحل إلى المشرق وسمع من مالك ومن ابن القاسم. وبه إنتشر مذهب مالك في الأندلس.

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب ج١ص ٣٩٢.

(٢) أن كتب التراجم لا تذكر علماء في المغرب الأقصى إلا إبتداء من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، فأول من ذكر هو دراس بن إسماعيل (ت٣٦٢هـ) وتصفه المصادر بأنه ممن أدخل مذهب مالك إلى المغرب (عياض: ترتيب المدارك ج٤ ص ٣٩٥ ؛ احمد بن القاضي: جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ج١ ، ١٩٧٣ ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ص ١٩٤ - ١٩٦).

(٣) حسين مؤنس: شيوخ العصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ص ١٦.

(٤) شطبون: زياد بن عبد الرحمن (ت١٩٣هـ) فقيه أندلسي من الطبقة الأولى من أصحاب مالك (ابن فرحون: الديباج ج١ ص ٣٧٠).

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص ٣٧٠.

(٦) عيسى بن دينار الطليطلي(ت٢١٢هـ) فقيه مالكي جليل ولي قضاء طليطلة (الديباج المذهب ج٢ ص ٦٤).

(٧) يحيى بن يحيى الليثي (ت٢٣٤هـ) فقيه مالكي ممن لقي مالك وروى عنه موطأه (الديباج ج٢ ص ٣٥٢).

لقد كانت لهؤلاء الفقهاء مثلهم مثل الرعيل الأول من شيوخ المالكية سلطة روحية معنوية وسياسية دون أن يثيروا مخاوف أهل السلطان.

فقد كانت لهم في قلوب الناس محبة ومكانة كبرى فهم تلاميذ إمام دار الهجرة وحفاظ الحديث ورجال الشرع الذين درسوا الموطأ وأرشدوا الناس إلى الطريق المستقيم.

لقد كانت لهذه المكانة تبعاتها فقد كان العلماء مطالبين بالدفاع عن الحق بقول المعروف والنهي عن المنكر وتحمل عواقب ذلك ، فهم قواد المجتمع الحقيقيون.

وفي سبيل رسالة العلم ونشره والصدع بالحق تعامل العلماء الأندلسيون مع الأمراء والحكام فوجدوا منهم الليّن المنتفع بالنصح والإرشاد الساعي إلى الإصلاح كما وجدوا الفظ الغليظ الذي لم يعد يفقه وعظاً ولا يستبين رشداً.

ففي حين كان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل[١] أميراً ليناً لأهل الدين متقرباً إليهم[٢] نرى خلفه الحكم بن هشام[٣] عنيفاً قاسياً لا يقيم وزناً لأمر آمر بالمعروف ولا ناه عن المنكر. وكان من الطبيعي أن ينجذب العلماء إلى هشام ويولوه نصحهم ويشيدوا بخصاله ، في حين عارضوا سياسة الحكم ووصلت تلك المعارضة في بعض الأحيان إلى حد الثورة عليه[٤] . على أن الحكم بن هشام في سياسته العنيفة إتجاه

---

[١] هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٣٩ - ١٨٠هـ): ثاني أمراء الدولة الأموية بالأندلس حكم مابين سنتي ١٧٢ - ١٨٠هـ وكان شديد الورع والتقوى مشغوفاً بالجهاد ؛ (ابن عذارى: ج٢ ص ٦٥) ؛ (محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ج١ ص ٢٢٤).

[٢] الخشني: تاريخ قضاة الأندلس ص ٤٤ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٢ ص ٦٥ ؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس ج١ ص ٢٣٠.

[٣] الحكم بن هشام (١٥٤ - ٢٠٦هـ): ثالث أمراء بني أمية بالأندلس حكم مابين ١٨٠ - ٢٠٦هـ كان طاغياً مسرفاً في الدماء (ابي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ج١ تحقيق إبراهيم الإبياري ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ، دار الكتاب اللبناني بيروت ص ٣٩ ؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج١ ، تحقيق يوسف البقاعي ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ص ٣٢٤ - ٣٢٩).

[٤] لقد ثار العلماء على الحكم بسبب إنهماكه في اللذات وتجاهره بالمعاصي فكانت ثورة "الربض" سنة ٢٠٢هـ التي قمعها الحكم بقسوة متناهية فقتل عدداً من العلماء المشهورين مثل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مضر القيسي ، الذي كان قدوة في الدين والورع وهو ممن أخذ عن سفيان الثوري ومالك بن أنس (المقري: نفح الطيب ج١ ص٣٢٩).

العلماء لم يكن يمثل الإتجاه العام الذي سلكه أفراد البيت الأموي اتجاه العلماء. بل كانت سياستهم في معظمها قائمة على توقير العلماء وإعلاء شأنهم لإضفاء الشرعية على حكمهم[١] .

ولم يكن العلماء في معظمهم مفتقرين إلى دعم الأمراء ومساندتهم من أجل علو شأنهم وترسخ نفوذهم. بل أن الكثير من العلماء أقاموا شهرتهم ووطدوا مكانتهم عن طريق نشر العلم والعمل به منقطعين إلى ذلك.

إن سيرة العلماء الأندلسيين في الفترة السابقة لقيام دولة المرابطين تظهرهم لنا وقد سلكوا مسلكين مختلفين في موقفهم من السياسة وأهلها: ففي حين داخل بعض العلماء الأمراء واشتركوا في السياسة بكل ما تؤدي إليه أو تستوجبه من مهادنة في بعض الأحيان ، أختار آخرون طريق العلم والتعليم بوصفه المهمة الرئيسية التي يجب أن يهتموا بها. وسنعرض لبعض نماذج من الطائفتين.

١- شيوخ البلاط

إنهم طائفة من العلماء رأت في التقرب إلى السلطان وخوض لجج السياسة بما تحمله من مخاطر ، أنها يمكن أن تؤثر على الأحداث وتكون من بطانة الخير التي تعين على الحق وتهدي إلى سبله ، أو على الأقل التخفيف من سيطرة الأهواء والإنحراف.

ومن أشهر علماء هذه الطائفة منذر بن سعيد البلوطي[٢] الذي كان له دور عظيم في الحد من طغيان الأمراء[٣] . فكان يذكرهم بأيام الله ويخوفهم عاقبة الإسراف والركون إلى الدنيا[٤] . وكانت دعوته صمام أمان حتى لا يجرف تيار الهوى الأمة رؤساء ومرؤسين. ورغم مخالطة هؤلاء العلماء للسلطان ووصفهم بأنه "شيوخ البلاط"[٥] فإن هؤلاء

---

[١] حسين مؤنس: شيوخ العصر ص ٢٦.

[٢] منذر بن سعيد البلوطي (٢٦٥ – ٣٥٥هـ) عالم وخطيب تولى قضاء الجماعة بقرطبة في عهد الخليفة الأموي الناصر وابنه الحكم (الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس ص ٢٣٨).

[٣] المقري: أزهار الرياض ج٢ ص ٢٧٩.

[٤] أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٢.

[٥] د. حسين مؤنس: شيوخ العصر ص٧٠.

الشيوخ كانوا يرعون حق العلم ولا يقبلون تدنيسه فهذا الفقيه أبو إبراهيم[١] وهو أحد الفقهاء المشاورين[٢] ، في عهد عبد الرحمن الناصر[٣] ، يتخلف عن شهود حفل كبير أقامه الناصر بمناسبة اعذار[٤] أولاد إبنه عبيد الله ، ودعي له وجهاء مملكته. وغضب الناصر لهذا التغيب وكتب لأبي إبراهيم يسأله عن سبب تخلفه ويلومه على ذلك. فأجابه الفقيه أبو إبراهيم بهذه الجملة: .... إنهم (أي سلف الناس) كانوا يستبقون من هذه الطبقة (أي طبقة العلماء) بقية ، لا يمتهنونها بما يشينها ولا بما يغض منها .... فلهذا تخلفت"[٥] .

وكان من الطبيعي أن تولد مداخلة العلماء للسلطان وأهله رغبة لدى بعض العلماء في أن يشاركوا مشاركة أكبر في أمر الحل والعقد والأمر والنهي. وكانت تحدو البعض منهم النية الحسنة في إصلاح الأمور. في حين كان البعض الآخر طلاب دنيا وسعاة إلى المناصب. وكما اختلفت مقاصدهم ، إختلفت حظوظهم في التوفيق بين محقق لآماله وبين متورط نادم حين لات مندم.

ولعل أبرز نماذج العلماء السياسيين الطامحين إلى المناصب الكبرى بعد سقوط دولة الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري (٤٢٢هـ)[٦] ، شخصيات من أمثال القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد[٧] الذي إستبد بأشبيليه منذ.

---

[١] أبو إبراهيم:اسحاق. أحد كبار فقهاء المالكية في عصر عبد الرحمن الناصر لدين الله (المقري: نفح الطيب ج١ ص ٣٥٩).

[٢] الفقهاء المشاورون: جماعةمن كبار العلماء يختارهم الأمير لإستشارتهم في ما يعرض عليه من المشاكل.

[٣] عبد الرحمن الناصر (٢٧٧هـ - ٣٥٠): خليفة أموي أندلسي ، أول من تسمى بأمير المؤمنين من بني أمية في الأندلس دامت خلافته ٥٠ سنة (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) (الحميدي: جذوة المقتبس ص ٤١).

[٤] الإعذار: الختان.

[٥] المقري: نفح الطيب ج١ ص ٣٦٠.

[٦] ابن عذاري: البيان المغرب ج٣ ص ١٣٦ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام تحقيق ليفي بروفنسال ، ط٢ ، ١٩٥٦، دار المكشوف بيروت ص ١٣٨.

[٧] محمد بن إسماعيل بن عباد (ت٤٣٣هـ): قاضي اشبيلية بعد والده القاضي إسماعيل بن عباد ، ثم تغلب على أشبيليه أيام الفتن ، وكان من أهل العلم والأدب (الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ١٣٤).

سنة ٤١٤هـ وكون فيها دولة من دول الطوائف[١] ورثها بنيه عند وفاته سنة ٤٣٣هـ.

ولم يكن إنشاء هذه الدولة بالأمر السهل في عصر إتسم بالفوضى ، بل كان نتيجة عشرين سنة من الحروب والمكائد وتصفية الحسابات.

ولأن كانت الأقدار واتت ابن عباد فإستطاع تكوين دولة قاعدتها اشبيلية فلقد كان ذلك على حساب عالم آخر طامح إلى النفوذ هو محمد بن محمد الزبيدي ، وهو أحد ثلاثة أسندت إليهم رئاسة أشبيليه أوان الفتنة وهم: محمد بن إسماعيل بن عباد ومحمد بن مريم ومحمد بن محمدالزبيدي هذا[٢] . إلا أن فترة الحكم الجماعي هذه لم تدم طويلاً ، إذ سعى محمد بن عباد إلى التفرد بالحكم إلى أن تمكن من ذلك[٣] . إلا أن مكانة محمد الزبيدي ظلت مرموقة في اشبيلية إلى أن وصل إلى الحكم في اشبيلية المعتضد بن محمد بن عباد[٤] فافتتح عهده بإضطهاد القاضي محمد الزبيدي ثم إخرجه من اشبيلية[٥] . ولم يكن الزبيدي العالم الوحيد الموتور في هذه الدولة الأشبيلية التي قامت على أكتاف العلماء. بل أن عالماً جليلاً ممن شارك في قيام دولة بني عباد سيكون أحد ضحاياها ، هو عمر بن الحسن الهوزني[٦] ، الذي كان أحد أعيان اشبيلية المرموقين لذا ضاق به المعتضد ذرعاً وأوجس منه ذعراً ، خصوصاً بعد أن ألح الهوزني على المعتضد داعياً إياه إلى الجهاد في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير منشغلاً بالحرب مع جيرانه

---

[١] دول الطوائف: لقد نتج عن سقوط الدولة الأموية ، أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة واستقل كل أمير بناحيته وأعلن نفسه ملكاً عليها فسميت تلك الدويلات بدول الطوائف (ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ١٥٢ ؛ محمد عنان: دولة الإسلام بالأندلس ج٣.

[٢] الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ٥٤ ؛ البيان المغرب: لإبن عذارى ج٣ ص ٣١٤.

[٣] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٣٧ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ١٩٦.

[٤] المعتضد: عباد بن محمد بن عباد (ت٤٦١هـ) ثاني أمراء دولة بني عباد في اشبيلية حكمها بين (٤٣٣ - ٤٦١هـ) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٠٤ ؛ الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص ٤٦٨.

[٥] الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ٧٤.

[٦] عمر بن الحسن الهوزني ، أبو حفص (ت٤٦٠هـ): فقيه وشاعر أشبيلي (أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، ج١ ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، الطبعة الثانية ١٩٩٤ ، مكتبة الخانجي القاهرة ص ٣٨١).

المسلمين[١] . فما كان من المعتضد إلا أن قتله شر قتلة متولياً ذلك بنفسه سنة ٤٦٠هـ[٢]
وقد حذا حذو محمد بن عباد في النزوع إلى التآمر والتفرد بالأمر والنهي ، الفقيه أبو بكر
يعيش بن محمد بن يعيش الأسدي[٣] الذي آلت إليه وإلى صاحبه أبي عمر أحمد بن
سعيد بن كوثر[٤] رئاسة بلدهما طليطلة في أيام الفتنة[٥] .

ثم تفرد ابن يعيش برئاسة البلد وحسنت سياسته ونفع الله به أهل بلده[٦] وظل
مع ذلك مقتصراً على إسم الفقيه ، لا يفارق زي العلماء[٧] .

ورغم ماعرف به يعيش من حسن تدبير فقد خلعه أهل طليطلة ، فخرج إلى قلعة
أيوب وتوفي بها سنة ٤١٨هـ.

وقد لعب عالم آخر دوراً كبيراً في تاريخ طليطلة زمن الطوائف هو أبو بكر بن
الحديدي[٨] ، الذي كان كبير الجماعة بطليطلة عندما تولاها بنو ذي النون. وقد أعتمد
عليه إسماعيل بن ذي النون[٩] في تدبير شؤون الدولة وكذلك فعل خلفه المأمون

---

[١] ابن بسام الشنتريسي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق د. إحسان عباس ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ ، دار الثقافة ، بيروت ، ص٨٣ ؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص ٩٣.

[٢] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٣٨١.

[٣] يعيش بن محمد بن يعيش (ت٤١٨هـ) فقيه طليطلي ، كان حافظاً للفقه ذاكراً للمسائل (ابن بشكوال: الصلة ، ج٢ ص ٦٥٠).

[٤] أحمد بن سعيد بن كوثر: أحد أعيان طليطلة ، نكب في صراعه على الحكم مع يعيش فنفي إلى شنترين حيث قتل (القاضي عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ٤١).

[٥] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٥٠.

[٦] عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ٤٢.

[٧] عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ٤٢.

[٨] أبو بكر بن الحديدي: (ت٤٦٨هـ) فقيه ، مقدم في الشورى ، متفنن في العلوم (ابن بسام: الذخيرة ج٧ ص ١٥٠).

[٩] إسماعيل بن ذي النون (ت٤٣٥هـ) أول من حكم طليطلة من بني ذي النون ودام حكمه سبع سنوات (٤٢٨هـ - ٤٣٥هـ) (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص٢٧٧).

بن ذي النون[١] . ولكن مكائد السياسة كانت له بالمرصاد فقد قتله حفيد المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٨هـ بعد أكثر من أربعين سنة في خدمة دولتهم.

وفي نفس الفترة التي ظهر فيها القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ويعيش بن محمد ظهرت في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية شخصية علمية لعبت دوراً بارزاً ومتميزاً في قرطبة بعد سقوط الخلافة ، تلك الشخصية هي أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور[٢] . فلقد أسند إليه أهل قرطبة زمام أمورهم بعد سقوط الخلافة وما أعقبها من فوضى ودمار وذلك سنة ٤٢٢هـ. بيد أن جهور سلك في الحكم مسلكاً تفرد به بين زعماء الطوائف الذين أعقبوا سقوط الخلافة الأموية. فقد إنتهج أبو الحزم جهور منهج الشورى الإسلامي ، فلم ينفرد بالحكم ولم يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها. ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة يتحدث بإسمهم[٣] . أو بإسم "الجماعة" كما سماهم ، يرجع إليهم في كل أمر فإذا طلب منه مال أو امضاء أمر من الأمور قال ليس لي من عطاء ولا منع إنما هو "للجماعة" وأنا أمينهم[٤] .

وهو في هذا لم يحط نفسه بأي مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة ، بل "لبث على سابق رسمه من الإنزواء والتواضع والقناعة وخفض الجناح ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى ، جارياً على سنن الصالحين" كما يقول الحميدي[٥] .

وقد آتت هذه السياسة المستمدة من المنهج الشرعي أكلها فقد سادت قرطبة السكينة والأمن والدعة طيلة إثنتى عشر سنة إلى أن توفي سنة ٤٣٤هـ.

---

[١] المأمون بن ذي النون: (ت٤٦٧هـ) أعظم أمراء دولة بني ذي النون في طليطلة طالت فترة حكمه لمدة ثلاث وثلاثين سنة من سنة ٤٣٥ - ٤٦٧هـ (ابن بسام: الذخيرة ج١ ص ٩٩ ؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص٥٢٣.

[٢] جهور بن محمد بن جهور (ت٤٣٥هـ) أحد علماء قرطبة وأعيانها تولى حكمها بعد سقوط الخلافة سنة ٤٢٢هـ. (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ١٣٠).

[٣] عبد الوحد المراكشي: المعجب ص ٩١ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ١٨٦.

[٤] ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ١٨٦ ؛ الفتح بن خاقان: مطمح الأندلس ص ١٨٣.

[٥] الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ٦١ ؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١ ص ٥٦.

وكانت حكومته بحق نموذجاً بديعاً من حكم الشورى في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية والحكم المطلق[1] .

إنه نموذج نير للعالم الحاكم المخلص في أمره إبتغاء مرضاة ا لله فصلح به حال قرطبة في بحر هائج من الإضطراب والفتن.

وقد أعجب المؤرخون المحدثون[2] بهذه التجربة في الحكم ، إلا أن الباحث يرى أنهم في ذكرهم للأسباب التي دفعت أبا الحزم جهور إلى إختيار صيغة الحكم الجماعي ، نسوا أو تناسوا السبب الرئيسي وهو: تكوين أبا الحزم الديني ، فكونه عالماً هو الذي دفعه إلى إختيار الشورى والعمل بها.

إن هذه الأمثلة التي ذكرنا تمثل فئة من الفقهاء أو إتجاهاً داخل طبقة العلماء حاول التأثير في مسار الأمور في الأندلس عن طريق المشاركة السياسية الفعالة. وقد وصل البعض منهم ، من خلال تلك المشاركة ، إلى إصلاح ما أمكن إصلاحه في حين عجز آخرون لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية[3] .

٢- شيوخ العلم

انه الوجه الثاني لفئة العلماء. وقد إتجه هؤلاء إلى العلم وتعليمه كواجب وهدف في هذه الحياة. فجعلوه شغلهم الشاغل ، لا يكتفي في تحصيله بالشيخ والشيخين بل قد

---

(١) محمد عبد ا لله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثاني ص ٢٢.

(٢) من أمثال شيخ مؤرخي الأندلس محمد عبد ا لله عنان في كتابه دولة الإسلام في الأندلس.

(٣) لعلنا نذكر هنا نموذجين من الأسباب الموضوعية التي حالت دون وصول بعض العلماء إلى الإستقرار في الحكم: المثال الأول هو الفقيه يعيش الذي حكم طليطلة أيام الفتنة فرغم ما عرف عنه من عدل وزهد وحسن تدبير فقد خلعه أهلها ومات سنة ٤١٨ هـ منفياً. وأمام إستغراب هذا الحادث يكشف لنا ابن عذارى السر وهو: أن أهل طليطلة على قديم الدهر أهل فتن وقيام على الملوك (ابن عذارى: ج٣ ص٢٧٦) أما المثال الثاني فهو للفقيه عيسى بن مزين الذي بايعه أهل شلب سنة ٤٤٠هـ فأقام فيهم العدل وضبط الأمور غير أن أموره لم تستقر بسبب النزعة التوسعية لجاره المعتضد بن عباد الذي تمكن من خلعه وقتله في آخر سنة ٤٤٥هـ فكانت دولته خمس سنين (ابن عذاري: البيان المغرب ج٣ ص ٢٩٦ - ٢٩٧).

يتجاوز العدد الف شيخ ، فالفقيه الوليد بن بكر بن مخلد الغمري[١] لقي في رحلته العلمية نيفاً وألف شيخ ما بين محدث وفقيه[٢] .

وقد كان تعلم العلم وأخذه عن الشيوخ طيلة الحياة دأب الكثيرين. فهذا الحسين بن علي الفاسي وصفه الحميدي بأنه من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة لم يزل يطلب العلم ويختلف إلى العلماء محتسباً إلى أن مات[٣] .

لقد كان طلب العلم عندهم مما يحتسب عند ا لله وتبتغى به الجنة. وقد إشتهر في الأندلس علماء كبار ممن أعطوا العلم حقه فدرسوه بجد ودرسوه. فأخذ العلم عنهم أجيال من الطلبة.

وقد كان الطلبة يرحلون إلى الشيوخ المبرزين في العلم والعمل أيضاً ، فقد كان الطلبة حريصين على أن يأخذوا عن من تحلى بصفات العلم وانقطع إليه.

وكانت معاييرهم في ذلك تصل إلى حد الإفراط وتبين لنا القصة التي رواها ابن بشكوال عن عبد ا لله بن المفوز[٤] تلك الحالة من الإفراط. فقد حكى في ترجمته قال: روى ابن المفوز عن أبي عمر بن عبد البر[٥] كثيراً ثم زهد فيه لصحبته السلطان[٦] .

فهذا الطالب يزهد في شيخ مثل الحافظ ابن عبد البر ويترك الأخذ عنه لأنه يدخل على أهل السلطة. وابن عبد البر هو إمام عصره وأعلم أهل زمانه وواحد دهره [٧]

---

[١] الوليد بن بكر بن مخلد الغمري (ت٣٩٢هـ) فقيه سرقسطي ، عالم فاضل (الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص ٥٧٦).

[٢] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٦٠٧.

[٣] الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ٢٩٩.

[٤] عبد ا لله بن المفوز المعافري (ت٤٧٥هـ): عالم من أهل شاطبة (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٢٧٤).

[٥] ابن عبد البر: أبو عمر يوسف (ت٤٦٣هـ) : الحافظ ، شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته وأحفظ من كان فيها في عصره (عياض: المدارك ج٨ ص ١٢٧ ؛ الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص ٥٨٦).

[٦] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٢٧٤.

[٧] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٦٤٠ ؛ عياض: المدارك ج٨ ص ١٢٧.

ألف كتباً كثيرة نفــع ا الله بها مثل كتاب التمهيـــد[١] والإستذكار[٢] . وقد كان مثـال العالم المنقطع إلى العلم حقاً. فكتابه التمهيد أمضى ثلاثين سنة في تأليفه[٣] .

وقد أضطر ابن عبد البر إلى الرد عن نفسه بتأليف رسالة في مسألة قبـول جوائـز السلطان[٤] .

إن هذا الموقف الذي اتخذه ابن المفوز إنما ينم عن ضن الطلبة بسمعة مشـايخهم وحرصهم على أن يكونوا فوق الشبه ، وأن يظلوا قدوة في أخـذ أنفسـهم بـالعزائم وأن لا يترخصوا فيما يترخص فيه غيرهم.

لا غرو إذاً أن تكثر في تراجم علماء الأندلس أوصاف مثل: كان جميـل الطريقـة منقطعاً إلى الخير ، متصاوناً ، مقبلاً على ما يعينه.

وقد أورثهم هذا الإنقطاع إلى العلم والتحلي به تقديـر العامـة والخاصـة وإلتفـاف الطلبة حولهم وتعظيمهم لشأنهم. فنالوا عزاً لا يدانيه عز[٥] .

---

[١] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: كتاب في الحديث مرتب على أسماء شيوخ مالك حسب ترتيب حروف المعجم. وقد قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية بطبع هذا الكتاب في ٢٤ مجلداً من سنة ١٩٦٧ - ١٩٩١ بالرباط. بتحقيق مجموعة من الباحثين.

[٢] الإستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي ، نشر دار قتيبة للطباعة والنشر - بيروت ، دار الوعي - حلب - القاهرة. في ٢٧ مجلداً.

[٣] يقول ابن عبد البر عن التمهيد: سمير فؤادي مذ ثلاثين حجة: وصاقل ذهني والمفـرج عـن همـي. (عيـاض: المدارك ج٨ ص ١٣٠).

[٤] المقري: نفح الطيب ج٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٤

[٥] لقد أورد الحميدي رواية عن أبي مروان الطبني توحي بما كانوا يحسون به من عزة العلـم وأهلـه. فذكـر أن الطبني لما رجع إلى قرطبة وأملى اجتمع إليه في مجلس الإملاء خلق كثير فلما رأى كثرتهم قال:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة ... يكتبن حدثني طوراً وأخبرنـي

نادت بعقوتي الأقلام معلنة ... هذي المفاخر لا قعبان من لبن

(الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص ٤٥).

ولم يكن العلماء يريدون بذلك العلم دنيا عريضة ولا منصباً ولا رضى الحكام وتصور لنا رواية العالم تمام بن غالب التياني (ت٤٣٣هـ) مع مجاهد العامري[1] ، مدى عزوف العلماء عن إبتذال علمهم من أجل المال والجاه.

فقد ألف تمام بن غالب كتابه في اللغة المسمى "تلقيح العين في اللغة" وأجاد فيه كل الإجادة وسمع مجاهد العامري بالكتاب فأرسل إلى تمام ألف دينار وكسوة على أن يضيف إلى ترجمة الكتاب جملة واحدة هي "هذا مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد" فرد تمام الدنانير والكسوة وأبى ذلك وقال "كتاب ألفته لله وللعلم أصرفه إلى إسم ملك لا يكون هذا أبداً"[2] .

والأندلسيون الذين قامت شهرتهم على العلم تدريساً وتأليفاً ومنهجاً سلوكياً لا يحصون كثرة فنكتفي بذكر بعض الأسماء التي أطبق ذكرها البلاد.

فمن هؤلاء بقي بن مخلد[3] (ت٢٧٦هـ) وهو أحد حفاظ الحديث المشهورين وأئمة الدين رحل إلى المشرق فروى عن أعلام يزيدون على المائتين وكتب المصنفات الكبار ورجع إلى الأندلس فملأها علماً وألف كتباً حساناً.

ومنهم أبو عمر عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ)[4] الذي يعتبر أحد مفاخر الأندلس في القراءات أكتسب منزلة سامية بين علماء عصره ومن أتى من بعدهم ونال من الثناء ماهو جدير به ، فكان العلماء من بعده عالة على كتبه ومصنفاته[5] .

---

(١) مجاهد العامري: أبو الجيش (ت٤٣٦هـ) أحد الفتيان العامريين ، تغلب أيام الفتنة على دانية والجزر الشرقية وأنشأ فيها دولة إبتداءً من ٤٠٥ - ٤٣٦هـ كان ألمع ملوك الطوائف وقد ازدهر العلم في بلاطه (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ١٥٥ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١٢٨).

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ٢٨٣ ×؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص ١٦٦، واللفظ للأخير.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص ٢٧٤.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص ٤٨٣.

(٥) ابن خلدون: المقدمة (ص ٤٣٧).

ومن أمثال يونس بن مغيث[1] وأبي عمر الطلمنكـي[2] ومكـي بـن أبـي طـالب[3] ومحمد بن الحذاء[4] ومحمد بن عتـاب[5] . والقـاضي أبـي الوليـد سليمان البـاجي[6] . وغيرهم كثير.

إن هـؤلاء العلمـاء الأجـلاء ، الذيـن ذكرنـا في هـذه المقدمـة الـدور الـذي كـانوا يضطلعون به في منطقة المغرب الإسلامي ، ذكراً موجزاً ، في الفترة السـابقة لقيـام دولـة المرابطـين في القـرن الخـامس الهجـري ، شـكلوا منهجـاً سـلوكياً لطبقـة العلمـاء تمـيز بالأخلاص لله والنصح للأمة سواءً عن طريق المشاركة الفعالة في الأحداث أو عـن طريـق تنشئة الأجيال على المباديء القويمة وبث الخير والعمل به وإعطاء القدوة الحسنة.

على أن بلاد المغرب لم تكن كلها على هدي وصـراط مسـتقيم بـل كـانت هنـاك بعض المناطق قد إنتشر فيها الإنحراف وكثرت فيها البدع وظهر فيها الدجالون وكـانت منطقة المغرب الأقصى أكثر بلاد المغرب تأثراً بهؤلاء المتنبئين وبدعهم.

لذلك سنعرض للأوضاع الدينية التي كانت سائدة في المغرب الأقصى قبيـل قيـام دولة المرابطين.

---

(١) يونس بن عبد الله بن مغيث (ت٤٢٩هـ) قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصـلاة بجامعهـا(ابـن بشـكوال ج٢ ص ٦٤٦).

(٢) أبوعمر أحمد بن عبد الله الطلمنكي المقريء (ت٤٢٩هـ) عالم متفنن غلب عليه القرآن والحديث (عيـاض: المدارك ج٨ ص ٣٢).

(٣) مكي بن أبي طالب المقريء (ت٤٣٧هـ) كان من أهل التبحر في علـوم القـرآن والعربيـة (ابـن بشـكوال : الصلة ج٢ ص ٥٩٧).

(٤) محمد بن الحذاء (ت٤١٦هـ) أحد رجال الأندلس فقهاً وعلماً (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٤٧٨).

(٥) محمد بن عتاب (ت٤٦٢هـ) كان إماماً جليلاً ، شيخ المفتـين بقرطبـة ، (عيـاض: ترتيـب المـدارك ج٨ ص ١٣١).

(٦) أبو الوليد سليمان بن خلف (ت٤٧٤هـ) أحد أعلام الأندلس المشـهورين (ابـن بشـكوال: الصلـة ج١ ص ١٩٧).

٣- الأوضاع التي كانت سائدة في المغرب الأقصى.

لقد إنتشرت المذاهب الضالة في المغرب الأقصى في وقت مبكر من تاريخه الإسلامي ففي القرن الثاني الهجري ظهر في قبيلة برغواطة رجل يدعى صالح بن طريف ادعى النبوة ، وشرع لهم ديانة جديدة.

ويذكر ابن خلدون أن صالح هذا كان من أهل العلم والخير في قومه ثم إنسلخ من آيات ا لله وإنتحل دعوى النبوة[١] .

ادعى صالح النبوة وادعى لذلك أنه تلقى من ا لله قرآناً باللغة البربرية ، وكان يحتج بقوله تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه" ، وكان يذكر أن محمداً رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم نبي حق عربي اللسان مبعوث إلى قومه وإلى العرب خاصة ، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام ، وإياه أراد ا لله عز وجل بقوله: "وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير" * فإنه هو صالح المؤمنين[٢].

وقد شرع لهم صالح أحكاماً منها: صوم رجب بدل رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمس في النهار وخمس في الليل والتضحية في اليوم الحادي عشر من المحرم.

وألغى الآذان والإقامة ، وأن يجمعوا يوم الخميس ضحى بدل الجمعة. وأن يقتل السارق ويرجم الزاني وينفى الكاذب ، ورأس كل حيوان عليهم حرام ، والحوت لا يؤكل إلا أن يذكى والبيض عندهم حرام[٣] .

هذا بعض من الشرائع التي سن صالح بن طريف لقومه برغواطة وقد حاول الأدارسة[٤] لأول قيام دولتهم القضاء على برغواطة فأكتسحوا أراضي هذه القبيلة وهي

---

[١] ابن خلدون: العبرج٦ ص ٤٢٨هـ ؛ البكري: المسالك والممالك ص ٨١٩.، * سورة التحريم الآية ٤

[٢] ابن حوقل: صورة الأرض ص ٨٠ ، البكري: المسالك والممالك ص ٨٢٠.

[٣] البكري: المسالك والممالك ص ٨٢٤.

[٤] الأدارسة: دولةأقامها إدريس بن عبد الله الحسني (ت١٧٧) في المغرب الأقصى عاشت هذه الدولة من سنة ١٧٢ - ٣٧٥هـ (السلاوي: الإستقصا ج١ ص ١٥٥).

بلاد تامسنا[١] . ورغم الجهد المتواصل الذي بذله الأدارسة للقضاء على البرغواطيين فإن نحلتهم بقيت.

وقد جرت محاولات عدة بعد ذلك للقضاء على برغواطة وعلى دينهم الفاسد فيحدثنا ابن حوقل أنه في سنة أربعين وثلاثمائة كان محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله[٢] بسجلماسة يدعو إلى غزوهم[٣] . غير أن هذه المحاولة لم تكن أكثر نجاحاً مما قام به الأدارسة.

وفي بداية القرن الخامس الهجري نجد الأمير تميم اليفرني[٤] يخوض جهاداً مريراً ضد برغواطة لردهم عن ضلالتهم[٥] .

وكما ظهر في برغواطة متنبيء إبتدع لهم ، وإنتحل فقد ظهر في قبيلة غمارة متنبيء يدعى حاميم بن من الله[٦] . وذلك في بداية القرن الرابع الهجري. وقد جعل حاميم لقومه الصلاة صلاتين واحدة عند طلوع الشمس وأخرى عند غروبها[٧] . وكما فعل قبله صالح بن طريف فقد وضع لقومه قرآناً بلسانهم. على أن حاميم هذا كان أقل حظاً من صالح فقد قتل هذا المتنبيء سنة ٣١٥هـ في أحواز طنجة[٨] .

---

[١] السلاوي: الإستقصا ج١ ص ١٥٦.

[٢] محمد بن الفتح (ت٣٥٤هـ): أحد حكام الدولة المدرارية بسجلماسة بعد خضوعها للفاطميين تولى الحكم من ٣٢١ - ٣٤٧هـ قطع الدعوة عن خلفاء الفاطميين ورفض الخارجية وأخذ بمذهب أهل السنة فزحف إليه جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٤٧هـ وتمكن من القبض عليه وسجنه وبوفاته انقرضت دولة آل مدرار. (السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ج٢ ص٥٩٨).

[٣] ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٣.

[٤] تميم بن زيري اليفرني الزناتي (ت٤٤٨هـ): أمير بني يفرن استولى على مدينة فاس سنة ٤٢٤هـ التي كان يحكمها حمامة بن المعز بن عطية المغراوي. واستمر حكمه لها سبع سنوات ثم استعادها منه حاكمها السابق. وكان تميم هذا مولعاً بجهاد برغواطة فكان يغزوهم في السنة مرتين فيقتل منهم ويسبي (ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٠٩ ؛ ابن القاضي: جذوة المقتبس ج١ ص ١٧٢ - ١٧٣).

[٥] ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١١٠.

[٦] البكري: المسالك والممالك ص ٧٣٦.

[٧] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٩٩ ؛ البكري: المسالك والممالك ص ٧٧٦.

[٨] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٩٩.

غير أن نحلة هذا المفترى وإن لم تنتشر إنتشار كفريات صالح البرغواطي فإنها ظلت موجودة في قومه[١]

ولم تكن النهاية الدامية لحاميم بالتي تردع الأفاكين فقد ادعى النبوة بعده آخرون يذكر ابن خلدون منهم رجلاً يدعى عاصم بن جميل اليزدجومي ويقول أن له أخباراً مأثورة[٢] .

وإلى جانب بدع المتنبئين ونحلهم التي إنتشرت بين قومهم ، نجد في المغرب الأقصى نحل أهل الشيعة الروافض وكانوا يقيمون في جنوب المغرب الأقصى ببلاد السوس[٣] .

إن هذا الوضع الديني المنحرف المليء بالمتنبئين والروافض والجهل العام بالدين القويم ، كان يحتم أن تظهر جماعة مصلحة تصلح الأوضاع وتبين الهدى وتقضي على الشر.

وأحق من سيقوم بهذا الدور الإصلاحي الرائد هم العلماء المالكيون الذين صقلتهم تجارب الصراع بين الحق والباطل على مدى قرون.

إن علماء المالكية في المغرب الإسلامي ، مع منتصف القرن الخامس الهجري ، سيحاولون أن يطبقوا مباديء الإصلاح ونشر الحق عن طريق إنشاء دولة هي الدولة المرابطية.

وسنتحدث في الفصول التالية عن هذه الدولة وعن دور العلماء في تكوينها وإزدهارها.

---

[١] البكري: المسالك والممالك ص ٧٧٧

[٢] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٤٢٩.

[٣] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٩.

الباب الأول

العلماء والدولة المرابطية

الفصل الأول: العلماء وتأسيس الدولة

الفصل الثاني: أثر العلماء في الإتجاه الفكري للدولة.

الفصل الثالث: العلماء وسياسة الدولة الوحدوية.

الفصل الأول:

العلماء وتأسيس الدولة

عاش المغرب الأقصى في العقد الثالث من القرن الخامس الهجري بداية تحول تاريخي عظيم سيؤدي إلى تغيير في وجه التاريخ في منطقة المغرب الأقصى وموريتانيا وافريقيا الغربية والأندلس. هذا التحول التاريخي ستقوم به قبائل من صنهاجة اللثام بانشائهم دولة المرابطين.

١- التعريف بصنهاجة اللثام

صنهاجة اللثام أو الملثمون هم فرع من قبيلة صنهاجة البربرية وقد تميز الملثمون عن باقي صنهاجة بإتخاذ اللثام شعارا لهم[١].

والملثمون مجموعة قبائل من أهمها جدالة ولمتونة ومسوفة وجزولة ولمطة[٢].

ومضارب الملثمين تمتد من الشمال إلى الجنوب شاملة وادي السوس وواي درعة[٣] وموريتانيا الحالية إلى شاطيء نهر السنغال[٤].

وكانت هذه القبائل في معظمها تعيش حياة بدوية وإن كان لبعضها مدن مثل مدينة ازوكي[٥] ومدينة أوليل[٦]. إلا أن هذه المدن كانت في الأساس مراكز تجارية ومحطات ربط بين المغرب وبلاد السودان.

عرف الملثمون الاسلام منذ القرن الأول الهجري ، إذ تذهب بعض الروايات إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى مدينة نول[٧]

---

(١) البكري: المغرب في وصف افريقية والمغرب ج٢ ص ٨٥٧ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص ١٢٨ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٩ ؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١١٩.

(٢) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص ١٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ج٦ ص ١٨١
H.TERASSE: Histoire du Maroc P.213

(٣) وادي السوس: بلاد تقع بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير ، الحميري: (الروض المعطار ص ٣٢٩) ؛ وادي درعة: واد بجنوب المغرب تقع به مدينة درعة التي تبعد ثلاث مراحل من سجلماسة (الحميري: الروض المعطار ص ٢٣٦)

(٤) الحلل الموشية: ص ١٧ ؛ ابن ابي زرع: روض القرطاس ، ص ١٢٠.

(٥) أزوكي: قرية توجد على بعد (١٥) كيلومتر شمال مدينة أطار بموريتانيا.

(٦) أوليل: جزيرة على الساحل الموريتاني بها ملاحة مشهورة (الادريسي ص ٦٢).

(٧) نول: مدينة من مدن الملثمين تنسب إلى قبيلة لمطة تقع على نهر يحمل نفس الإسم خلفتها اليوم مدينة تندوف (الادريسي: ص ٧٥ ؛ محمد شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي ص ١٦).

في المغرب الأقصى[١]. وبذلك يكون عقبة قد توغل في ديار الملثمين وهناك ابتنى مسجدا في مدينة ماسة[٢]. وقد ترك بين هذه القبائل بعض أصحابه يعلمونهم شرائع الإسلام[٣].

واستمرت جهود الولاة العرب في نشر الاسلام فأرسل عبيد الله بن الحبحاب ، حبيباً ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري[٤] غازياً إلى بلاد السوس الأقصى سنة ١١٧هـ فوصل إلى المناطق الجنوبية للصحراء حيث بلاد مسوفة ولمتونة وأخضع القبائل الموجودة في تلك الأقاليم فعاد بعدد وفير من السبي وأحمال عظيمة من التبر[٥].

وعندما قامت دولة الأدارسة وأنشأت مدينة فاس أزداد إسلام الملثمين وأنضووا تحت لواء الأدارسة ، وأصبحوا جزءاً من أملاكهم يولون عليهم الولاة ويخضعونهم للحكومة المركزية في فاس[٦]. فما كاد القرن الثالث يطلع حتى كان الإسلام قد عم الملثمين وانتشر بينهم[٧].

وكان لإسلام الملثمين أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان ، فقد نتج عن ذلك قيام تحالف قوي بين بعض قبائل الملثمين (لمتونة ، مسوفة وجدالة). وكان هذا الحلف بزعامة لمتونة. أما الهدف الأساسي منه فهو مجاهدة جيرانهم من السودان[٨].

ويرجع الفضل في هذا الحلف إلى تيولوتان اللمتوني[٩] الذي نشر الإسلام في السودان الغربي[٩] فملك الصحراء بأسرها ودان لـــه بها أزيد من عشرين ملكاً من ملوك

---

(١) المالكي: رياض النفوس ص ٢٨ ؛ د. حسن محمود قيام دولة المرابطين ص ٦١.

(٢) ماسة: مدينة في السوس الأقصى جنوب أغادير الحالية (الحميري: الروض المعطار ص ٥٢٢).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص ٤٢.

(٤) حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع: قائد من قواد بني أمية كان له ولأبيه وجده دور كبير في فتح بلاد المغرب.

(٥) ابن عذاري : ج١ ص ٥١ ؛ ابن خلدون ج٤ ص ٤٠٤.

(٦) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٧٠ ؛ محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون ص ٢٦.

(٧) ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٢.

(٨) البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٧. Terrasse : Histoire du Maroc P.213

(٩) تيولوتان اللمتوني: تيولوتان بن تيكلان (ت ٢٢٢هـ) من أعظم ملوك الملثمين قبل قيام دولة المرابطين وصف البكري اتساع رقعة ملكه بأنها مسيرة شهرين في مثلها وأنه كان يعتد في مائة ألف نجيب (البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢١).

(٩) السودان الغربي: يطلقها المؤرخون المسلمون على الممالك الزنجية التي تقع جنوب المغرب الأقصى.

السودان كلهم يؤدون له الجزية[١].

وقد اتخذ من مدينة أودغشت[٢] عاصمة له بعد أن استخلصها من يد ملك غانه[٣] وَقد خَلَفَ تيولوتان على زعامة الحلف عند موته سنة ٢٢٢هـ حفيده: الأثير (ت ٢٨٦هـ)[٤] ثم ابنه تميم (ت ٣٠٦هـ).

إلا أن هذا الحلف تشتت بمقتل تميم ولم يلتئم لمدة مائة وعشرين سنة[٥]. ثم تكون الحلف الصنهاجي الثاني من نفس القبائل السابقة بزعامة الأمير أبي عبد الله بن تيفاوت المعروف بتارستا اللمتوني فاجتمعوا إليه وقدموه على أنفسهم سنة ٤٢٦هـ[٦].

وكان ابو عبد الله بن تيفاوت من أهل الدين والفضل والصلاح والحج والجهاد وقد دامت رياسته ثلاث سنوات انتهت باستشهاده مجاهداً لقبائل من السودان الغربي الذين كانوا على دين اليهودية[٧].

وبعد استشهاد الأمير أبي عبد الله تارستا آلت زعامة الحلف إلى يحي بن ابراهيم الجدالي صهر أبي عبد الله.

ومع وصول يحي بن ابراهيم الجدالي إلى زعامة الملثمين ستشهد منطقة الصحراء الكبرى – موريتانيا الحالية – والمغرب الأقصى بداية تحول عميق في تاريخها.

ظهور المرابطين

عندما تولى يحي بن ابراهيم الجدالي زعامة الملثمين تاقت نفسه إلى الحج كما فعل أسلافه فخرج إلى الحج سنة ٤٢٩هـ مع طائفة من زعماء قومه[٨] وأناب عنه في

---

[١] ابن حوقل: صفة الأرض ص ١٠٠ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧١.

[٢] أودغشت: مدينة من مدن الملثمين كانت الباب الجنوبي الذي تقف عندها القوافل في طريقها إلى السودان (الادريسي: صفة المغرب وأرض السودان ص ٣٢).

[٣] مملكة غانة: أقدم مملكة بافريقيا السوداء الغربي (من القرن ٣ ميلادي – ١٣ ميلادي) عاصمتها كومبي صالح بموريتانيا الحالية (د.ابراهيم طرخان: امبراطورية غانة الاسلامية ص ٢١).

[٤] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٠.

[٥] ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢١ ؛ (الناصري السلاوي: الاستقصا ج٢ ص٥)

[٦] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢١ ؛ البكري: المسالك والممالك ج٢ ص ٨٥٨.

[٧] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٨ ؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢١.

[٨] مجهول: الحلل الموشية ص ١٩ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٧.

رئاسة صنهاجة اللثام ابنه ابراهيم[١].

ولا تذكر المصادر من محطات حج يحي إلا محطة القيروان في رجوعه من الحج فقد قصد الأمير يحي بن ابراهيم وصحبه أبا عمران الفاسي وكان هدفهم أن يجروا على العادة في جعل الحج مقروناً بطلب العلم. وأن يستفتوا فقيه القيروان وشيخ المالكية ، فيما يحتاجون إليه من الفتاوي[٢].

وكان مما طلبه أمير الملثمين من أبي عمران الفاسي أن يزودهم بفقيه يعلمهم أمر دينهم ويرجعون إليه في نوازلهم[٣]. وشكا إليه حال قومه وكونهم منقطعين لا يصل إليهم إلا بعض الجهال حرفتهم التجارة ، وأن قومه حريصون على تعلم القرآن وطلب العلم لو وجدوا من يعلمهم ذلك[٤] . وتقول الروايات أن أبا عمران الفاسي لم يجد بين تلاميذه من يقبل هذه المهمة بل استوعروها جميعهم. وعندئذ كتب أبو عمران الفاسي إلى أحد طلبته بالسوس الأقصى وهو الفقيه اللمطي وجاج بن زلو[٥] .

على أن الرواية التي يذكرها صاحب كتاب "بيوتات فاس الكبرى" تعطي اللقاء بين يحي بن إبراهيم الجدالي وابي عمران الفاسي بعداً وأهمية جديران بمكانة هذين الزعيمين.

فهذه الرواية تذكر أن أبا عمران الفاسي لما اجتمع مع يحي بن إبراهيم ندبه إلى قتال برغواطة ببلاد السوس وزناته على ما صدر منهم من الظلم وإستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعده الأمير يحي بالنهوض إلى ذلك[٦] .

فهذا النص يشير بصراحة إلى أن الرجلين فكرا في الأوضاع القائمة في المغرب الأقصى والصحراء جنوبه ، ووصلا إلى نتيجة مفادها ضرورة تغيير الأوضاع القائمة.

---

[١] ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٢.

[٢] مجهول: الحلل الموشية: ص ١٩ ؛ د. محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي ص ٣٣.

[٣] ابن ابي زرع: المصدر السابق ص ١٢٣ ؛ البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٨.

[٤] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٤.

[٥] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٩ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٨ ؛ بيوتات فاس الكبرى: ص ٢٨ ؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٣.

[٦] مؤلف مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص ٢٨.

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفقيه ابي عمران الفاسي نجد أنه رجل إصلاح وسياسة وتدبير[1] إلى كونه رجل علم. ثم أنه ثار على الأوضاع السيئة السائدة في فاس وطنه الأصلي ، وبسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر أخرجه عامل مغراوة[2] على فاس[3] فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ٤٣٠هـ.

وفي القيروان كان للفقيه ابي عمران دور كبير في التصدي للمذهب الشيعي. وقد أدت جهوده وجهود العلماء المالكيين الآخرين في القيروان إلى القضاء على مذهب الشيعة في المغرب وانسلاخ الصنهاجيين من التبعية للدولة الفاطمية[4] .

إن الفقهاء في القيروان وعلى امتداد حقب من الزمن كانوا يمثلون مدرسة المالكية المناضلة[5] أي التي تجمع العلم بالعمل وتحاول اصلاح الأمور بشتى الطرق ومن أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كل هذا يدفعنا إلى الإعتقاد أن أبا عمران الفاسي ويحي بن ابراهيم تباحثا خلال لقائهما حول الأوضاع السائدة وسبل تغييرها. واتفقا على أن بلوغ هذا الهدف لا يتأتى إلا بإنشاء دولة مجاهدة ربي أفرادها على سلوك الحق والجهاد في سبيله.

لذا يمكن أن نعتبر أن اجتماع يحي بن ابراهيم مع أبي عمران الفاسي كان اللبنة الأولى لتشييد دولة المرابطين وأن الفقيه الفاسي كان وراء فكرة إنشاء هذه الدولة المجاهدة المؤمنة[6] . هذا على الأقل إذا لم نصل إلى ما استنتجه د.عبد الله العروي من أن إنشاء دولة المرابطين كان ضمن خطة شاملة مرسومة من طرف الخلافة العباسية

---

[1] عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب العدد ٣٤ ص ١٤ ؛ عبد القادر رزمامة: أبو عمران الفاسي ص ٦٥.

[2] مغراوة: قبيلة بربرية زناتية كانت لها دولة في المغرب الأقصى (ق ٤هـ - ٥هـ) (٣٦٨ - ٤٦٢هـ) عاصمتها فاس (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٠٢ ؛ أحمد بن القاضي: جذوة الإقتباس ج١ ص ١٩٨)

[3] مؤلف مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص ٤٤.

[4] الدباغ: معالم الإيمان ج٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢.

[5] المالكية المناضلة: إسم أطلقه الأوربيون على الفقهاء المالكيين الملتزمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

J.DEVISSE: The Almoravids P.337

H.Mones: le Role de Hommes de Religion dans L'Histoire de L'Espagne Musulmane Jusqu'a la fin du califat P.47.

[6] أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ؛ عبد القادر رزمامة: أبو عمران الغفجومي ص ٧٢.

لتطويق الدولة الفاطمية بالجيوش السلجوقية شرقاً والمرابطين غرباً. واعتمدت الدعاية السنية العباسية على الأشاعرة في الشرق ولعب الدور الرئيسي فيها أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٤هـ) وعلى مالكية القيروان في الغرب وعلى رأسهم أبو عمران الفاسي (٤٣٠هـ) الذي كان تلميذاً للباقلاني[١] . إن النتائج التي توصل إليها العروي نتائج جريئة ، ولكن نعتقد أنها تحميل للوقائع بأكثر مما تحتمل. فرغم أن فكرة التصدي للشيعة كانت لدى علماء السنة وقد عمل كل على مستواه لتنفيذها ، فإن فكرة المخطط العام للقضاء عليهم لم تكن موجودة أو على الأقل لم نجد ما يشير عليها.

وتنفيذاً للأفكار التي توصل إليها يحي بن إبراهيم وأبو عمران الفاسي فقد أحال هذا الأخير ضيفه إلى أحد أتباعه في السوس الأقصى ليزوده بأحد طلبة العلم ممن يثق في دينه وحسن سياسته وعلمه[٢] لتنفيذ الخطة المتفق عليها.

إن الدافع وراء إرسال يحي بن إبراهيم إلى وجاج من طرف الفقيه ابي عمران الفاسي قد لا يكون لعجز هذا الأخير عن العثور على أحد من طلابه يقوم بهذه المهمة ، لأنهم استوعروها بل قد يرجع إلى رغبته في أن يقوم بمهمة الإصلاح ، التي اتفق مع يحي بن إبراهيم عليها ، واحد من أبناء منطقة الملثمين أو المناطق القريبة من ديارهم كما هو حال السوس ، لأنه أقدر على فهم طباع هؤلاء وبالتالي الطرق الأسلم للتغيير. كما أنه مطلوب ممن ينتدب لهذه المهمة أن يكون على معرفة بلسان الملثمين حتى يستطيع أن يوصل إليهم الدين القويم[٣] .

وصل الأمير يحي بن ابراهيم الجدالي إلى وجاج بن زلو بمدينة نفيس[٤] وكانت له بها دار سماها دار المرابطين كانت مأوى للطلبة والعباد[٦].

---

[١] عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج٢ ص ١١٢ - ١١٣ ؛ وقد تأثر بعبد الله العروي في هذا الطرح د. إبراهيم بو تشيش في كتابه المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص ١٠. Cuoq: Histoirede L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest P.30

[٢] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٣.

[٣] د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١١٢ ؛ د. إبراهيم بوتشيش: المرجع السابق ص٩.

[٤] نفيس: مدينة من منطقة أحلو قريبة من مدينة تزنيت (محمد السوسي: سوس العالمة ص١٧).

[٦] التادلي: التشوف إلى رجال التصوف ص ٨٩.

ولاشك أن الهدف الذي كان يسعى إليه وجاج من وراء إنشاء هذه (المدرسة) الدار هو تعليم الطلبة العلم مع العمل به. فقد كان وجاج نفسه مثالاً للفقيه العالم العامل الزاهد في الدنيا الساعي إلى إصلاح الناس عن طريق التعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١] .

وقد كانت هذه الدار حصناً من حصون الحق في منطقة عمها الجهل والضلال في بداية القرن الخامس الهجري لذا كانت قبلة طلاب الحق ومنها ينطلق دعاته.

واستجابة لطلب أبي عمران اختار وجاج أحد تلاميذه النبهاء لمصاحبة يحي بن ابراهيم الجدالي وكان هذا الطالب هو عبد الله بن ياسين وباختياره يبتدىء عهد جديد من تاريخ المغرب.

- عبد الله بن ياسين ودوره في قيام دولة المرابطين:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولي[٢] ولد في قرية قرب اودغشت في طرف صحراء غانة ولا تذكر المصادر شيئاً عن الفترات الأولى من حياته سوى أنه رحل في طلب العلم إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين ، وأنه حصل علماً كثيراً[٣] .

ثم رجع إلى المغرب الأقصى حيث هاله الوضع المتردي الذي كان يعيشه وحالة التشرذم والفوضى التي كانت سائدة ومجانبة تعاليم الدين الصحيح وحاول عبد الله أن ينصح ويدعو إلى الألفة والخير بتطبيق شرع الله وتوحيد الصف وراء إمام ينفذ حكم الله ، لكن دعوته لم تلق أذناً واعية[٤] فالقلوب مشربة بالضلال فما كان الوعظ الحسن ليؤثر فيها.

---

[١] محمد العلمي: الحركة الدينية في عهد المرابطين ؛ مجلة دعوة الحق ص ١٩ - ٢٠ عدد ٣.

[٢] الجزولي نسبة إلى قبيلة جزولة في أقصى المغرب (البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٩ ؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٤) ويميل الدكتور حسن محمود إلى نسبة عبد الله بن ياسين إلى قبيلة جدالة بدلاً من جزولة: قيام دولة المرابطين ص ١١٤) لم يذكر د. حسن محمود مستنداً لرأيه هذا وقد أشار محمد المختار السوسي في كتابه (المعسول ج٨ ص ٣٢٤) بأنه وقف على "نسبة ابن ياسين في عداد السملاليين").

[٣] الحلل الموشية: ص٢٠ ؛ محمد شعيرة: المرابطون ص ٣٥.

[٤] ابن عذاري: البيان المغرب ص ١٠ ؛ سامي النشار: مقدمة تحقيق كتاب السياسة للمرادي ص ١٣.

وأمام الإعراض الذي لقيه ارتحل عبد الله بن ياسين إلى دار المرابطين حيث تتلمذ على شيخها وجاج بن زلو[1] . وقد تأثر عبد الله بن ياسين بشيخه وجاج أيما تأثر وأكتسب منه صفات فقهاء المالكية الكبار مثل البعد عن السلطان والزهد والتقشف والإيواء إلى الربط تقرباً إلى الله. هذه النشأة العملية العلمية خلقت لدى عبد الله بن ياسين شخصية متميزة فكان شهماً قوي النفس حاذقاً ذا رأي وتدبير حسن ذكياً نبيلاً من أهل الفضل والدين والورع ، مهيباً[2].

ولما وقع اختيار وجاج بن زولو على عبد الله بن ياسين ليقوم بمهمة الإصلاح[3] وأمره أن يسير مع يحي بن إبراهيم الجدالي إلى وطنه وطن الملثمين حيث سيكون مسرح الأحداث.

وصل عبد الله بن ياسين إلى بلاد الملثمين "موريتانيا الحالية" صحبه الأمير يحي بن ابراهيم الجدالي الذي كان يحدوه الأمل أن يكون هذا القدوم بداية تحول إلى الطريق المستقيم[4] .

لقي عبد الله بن ياسين كل ترحيب وحفاوة ، لكن واقع الملثمين هاله لما وجدهم عليه من بعد عن الدين وخروج على مبادئه وجهل بالمعروف من الدين بالضرورة ، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء ما شاء[5] وبعضهم يرتكب أفعال الزنا وغير ذلك فنهاهم عن ذلك. وكان عبد الله بن ياسين يتدرج بهم في فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد فكان يفسر لهم القرآن ويروي لهم الحديث[6].

---

(١) الحلل الموشية: ص ٢٠ ؛ عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في افريقيا ص ٦٣.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٣ ؛ سعدون نصر الله: دولة المرابطين ص ٢٢.

(٣) د. صباح الشيخلي: حقائق جديدة عن الحركة المرابطية ؛ مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٧ ص ٩٠.

(٤) يدل على ما كانوا يحسونه من مستقبل عظيم بقدوم عبد الله بن ياسين ما رواه النويري أن أحد شيوخ الملثمين لما رأى عبد الله بن ياسين على جمله داخلاً أرضهم قال: أرأيتم هذا الجمل لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم. (النويري: كتاب تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٣٧٧).

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٤ ؛ عبد الله كنون: عبد الله بن ياسين ص٩.

(٦) الحلل الموشية: ص ٢٠ ؛ د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١١٩.

وقد استطاع ابن ياسين بفضل ذكائه وخبرته بطباع الناس أن يستحوذ على القلوب فحفظوا فتاويه بحيث أضحت عندهم مما لا يعدلون عنه[١] . واعتبروها سبيلهم إلى النجاة.

لقد كانت تعاليم عبد الله بن ياسين ثورة حقيقية على النمط السائد في حياة الملثمين بكل جوانبه ومحاولة لإعادة تشكيله على نمط جديد مبني على الدين القويم. ولم يقتصر عبد الله بن ياسين على إصلاح العقائد والإلزام بالأحكام بل نفذ إلى أبعد من ذلك فإنه كان يريد بناء أساس متين لدولة الحق لذلك أمر الملثمين ببناء مدينة جديدة أسموها أرتننى[٢] وأمرهم أن لا يشف بناء بعضهم على بعض[٣] . أدرك الملثمون بأنهم أمام تحول جذري زمامه بيد عبد الله بن ياسين فضاق أصحاب النفوذ من ذوي النفوس الخبيثة بالفقيه المصلح الذي سيقوض بدعوته ما أقاموه من مجد[٤] .

بدأ هؤلاء بمناوأة عبد الله بن ياسين والطعن في آرائه وعلمه وقد تزعم هذا الحزب المعارض فقيه يدعى الجوهر بن سكيم[٥] مع بعض من كبار الجداليين فثاروا عليه وعزلوه عن المشورة والرأي وقبضوا منه بيت مالهم الذي كانوا قد أسندوه إليه وكانت تجمع فيه زكواتهم ، ثم اتبعوا هذه الخطوات بطرده من أرضهم[٦] . وقد كانت هذه الثورة على عبد الله بن ياسين بعد أن توفي حاميه ورفيقه يحي بن إبراهيم الجدالي[٧]. كتب عبد الله بن ياسين بما حصل له إلى شيخه وجاج بن زولو ، فهو الذي

---

[١] عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ٨٢.

[٢] أرتني: مدينة أنشأها المرابطون في بداية حكمهم يعتقد أن موقعها شرقي مدينة تشيت الحالية بموريتانيا
F.de La chapelle : Esquisse d'une Histoire du Sahara

[٣] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٩
HENRI TERRASSE: Histoire du Maroc P215

[٤] عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (عبد الله بن ياسين) ص ١٠.
Marcais: La Berberie Musulmane P.238.

[٥] الجوهر بن سكيم: فقيه ذكره البكري (المسالك ج٢ ص ٨٦٠) كما ذكره ابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص ٨) وأسماه الجوهر بن سحيم و لم يزيدا على ذكر أنه هو الذي تزعم الناقمين من الجداليين على تعاليم عبد الله بن ياسين.

[٦] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٠.

[٧] لقد إختلف المؤرخون في ثورة الجداليين على عبد الله بن ياسين متى وقعت فيذهب ابن أبي زرع (الأنيس المطرب ص ١٢٤) إلى أنها حدثت في عهد يحي بن ابراهيم الجدالي وأن هذا تمسك بابن ياسين وكان ممن دخل معه الرباط. إلا أن رواية ابن عذاري للأحداث يفهم منها أن يحي بن ابراهيم قد توفي. ويعزز هذا الإحتمال الأخير أننا لا نجد ذكراً في كل المصادر ليحي بن ابراهيم في فترة الرباط بل ينحصر ذكرها في يحي بن عمر اللمتوني (ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٩).

بعثه إلى هذه الأرض ، فما كان يمكنه تركها دون الرجوع إليه[١] . فكتب وجاج رسالة إلى بعض أشياخ جدالة يعاتبهم على ما كان منهم إلى عبد الله وأعلمهم أن من خالفه فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر[٢]. وفي تلك الأثناء كان عبد الله بن ياسين قد عزم على اتباع طريقة أخرى في محاولات الإصلاح وهي إنشاء الرباط.

مرحلة الرباط

قرر عبد الله بن ياسين إنشاء رباط يعتزل فيه غمرة الحياة اليومية بين الناس ، يصلح فيه نفسه ومن آوى إليه من الناس عن طريق العلم والعبادة.

ولم يكن عبد الله بن ياسين حين أقام رباطه بمبتدع بل كان يسلك طريقة سلكها أهل الخير منذ ابتداء الإسلام استجابة لدعوة الله تعالى "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[٣] . وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من الربط لحماية حدود الدولة الإسلامية فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط[٤].

وكان أول رباط في افريقية هو الذي بناه هرثمة بن أعين[٥]. سنة ١٧٩هـ. وقد إنتشرت الربط في عهد الأغالبة وانتشرت من الأسكندرية إلى المحيط الأطلسي[٦] . وكانت الربط إلى جانب مهمتها العسكرية في مدافعة العدو (مأوى للعباد والنساك.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكان رباط عبد الله بن ياسين وتضاربت أراؤهم فيرى فريق منهم أنه في جزيرة قبالة البحر الغربي أي المحيط الأطلسي[٧] .

---

[١] يذكر البكري أن عبد الله بن ياسين ارتحل إلى شيخه وجاج وأن هذا الأخير أمره بالرجوع إلى الملثمين بعدما أرسل إليهم يعاتبهم. غير أن ابن ابي زرع لم يذكر هذه الراوية في حين يصرح ابن عذاري بأن عبد الله إنما كتب إلى شيخه و لم يتوجه إليه (ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٩ ؛ البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٠ ، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٤).

[٢] البكري: مصدر سابق ج٢ ص ٨٦٠ ؛ ابن ابي زرع: مصدر سابق ص ١٢٤.

[٣] سورة آل عمران: الآية ١٩٩.

[٤] دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ج١٠ ص ١٩.

[٥] هرثمة بن أعين: والي افريقية للعباسيين من سنة ١٧٩ - ١٨١ ، وقد بنى قصر المنستير وهو من أهم الأربطة في افريقية (ابن الأثير: الكامل ج٥ ص ٩٦).

[٦] دائرة المعارف الإسلامية: مادة رباط ج١٠ ص ١٩ - ٢٠.

[٧] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٤ ؛ عبد الله كنون: عبد الله بن ياسين ص١٠.

في حين يرى فريق آخر أنها جزيرة في مصب نهرالسنغال[١]. ويذهب بعض الباحثين الأوربيين المتأخرين[٢] إلىتحديد مكان الرباط في جزيرة "تدرا" علىالشاطيء الموريتاني وذلك بناءً على دراسات ميدانية قاموا بها[٣].

المهم من الأمر أن الرباط كان بمكان منقطع عن العمارة بعيد عن مجتمع أهل البطالة والمشاغبين الذين تألبوا على عبد الله بن ياسين.

دخل عبد الله بن ياسين الرباط في نفر قليل تحدده بعض الروايات بتسعة أشخاص[٤] عاشرهم عبد الله بن ياسين. وكان هؤلاء النفر هم النواة التي كونت المجتمع الجديد ومن أبرز رفاق ابن ياسين في هذه المرحلة الحاسمة يحي بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر بن عمر اللذين سيكون لهما دور كبير في إقامة صرح دولة المرابطين.

كان رباط عبد الله بن ياسين قائماً على التجرد من طلب المنافع الدنيوية ، والتقشف القائم على الخشونة ، وعلى الطاعة المناسبة للجهاد وعلى طلب العلم والعبادة[٥] .

وكانت الحياة في هذا الرباط قائمة على أساس الإكتفاء الذاتي فكان رجال الرباط يقومون بتموين أنفسهم بأنفسهم عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من صيد البر والبحر وإعداد الطعام لأنفسهم وبناء الرباط وصنع الثياب والسلاح[٦] .

وكانت العبادة في الرباط من أهم ركائزه ومن أهمها شهود الجماعة في الصلوات الخمس وقد وضعت عقوبات لمن خالف ذلك فمن فاتته ركعة ضرب خمساً ومن تخلف عن الصلاة ضرب عشرين هذا مع مطالبة من تركها في الماضي بأداء ما فاته. وقد ألزم عبد الله بن ياسين أهل الرباط بالإحترام الكامل لمسجد الرباط ومحاسبة من يتكلم في

---

[١] د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٢٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ج٢ ص ٦٩٣ ؛ Marcais: La Berberie Musulmane P.239 ؛ ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص ١٧٠ ج١١.

[٢] F.DELA Chapelle: Esquisse d'une Histoire du sahara occidental P.62.

[٣] Gruvel & Chudeau: A Travers la Mauritanie occidentale P.124 - 125

[٤] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٥.

[٥] د. محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون ص ٣٩.

[٦] ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٥.

أمور الدنيا فيه وحملهم على الخشوع لله في بيته فمن رفع صوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب له صلاحاً[1][2] . وكان دور ابن ياسين الأساسي هو تعليم أهل الرباط فكان يقوم بهذه المهمة بنفسه يعلمهم الكتاب والسنة ، والوضوء والصلاة والزكاة ومافرض ا لله عليهم من ذلك[3] ولم يقصر عبد ا لله بن ياسين نشاطه الدعوي ومهمة التبليغ على أهل الرباط بل كان يبعث بعوثاً إلى القبائل لترغيب الناس في مذهب أهل الرباط[4]. ولم يكن الإنضمام إلى الرباط والقبول فيه بالأمر الميسور فقد وضعت شروط لذلك. فالراغب في الإنضمام يمتحن ويخضع لفترة مراقبة للتأكد من إستعداده لقبول نظام الرباط فإذا توفر فيه الإستعداد قبل عضواً ، في جماعة الرباط.

ويظهر من صرامة الشروط أن عبد ا لله بن ياسين كان يريد أن يميز الخبيث من الطيب فلا يبقي معه إلا من اتصف بالعزم والصبر والجد وقبل السير على درب الحق مع تحمل تبعات ذلك فالإنضمام إلى الرباط ليس لعباً ولهواً بل سلوكاً لطريق الجنة الذي حف بالمكاره.

وقد ذكر البكري[5] أن عبد ا لله بن ياسين كان يقيم الحد على المنتسبين الجدد إلى رباطه عما ارتكبوه من الذنوب قبل دخول الرباط وقد شنع البكري ومن نقل ذلك عنه على الإمام عبد ا لله بن ياسين ورموه بالجهل والشذوذ في الأحكام ، ولاشك أن هذا النوع من الروايات إنما هو من تزيدات الرواة وتشنيع الخصوم. ومع ذلك فإن العلماء

---

[1] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٤ ؛ د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٤٢.

[2] يبدو من هذه العقوبات حرص الإمام عبد ا لله بن ياسين على تعويد أتباعه على شهود الجماعة لما في ترك شهودها من وعيد إلى الحد الذي أعتبر فيه الظاهرية صلاة المنفرد باطلة فيما أعتبر الإمام أحمد وأبو ثور صلاة الجماعة واجبة إلا أنهم اعتبروا صلاة المنفرد صحيحة مع الحرمة. (ابن قدامة: المغني ج٢ ص ١٧٦) ولعل تعليل القاضي عياض لفعل ابن ياسين ، الذي هو من باب التعزير ، قريب من الصواب حيث قال: "وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة ، إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموماً لجهلهم بالقرآة وأحكام الصلاة" (ترتيب المدارك ج٨ ص ٨٢) وقد نص علماء المالكية على أن من لا يحسن الفاتحة وجب عليه الإقتداء (الدردير: الشرح الصغير ج١ ص ٣٠٩) وأما أمره أتباعه بقضاء ما فاتهم من الصلوات في الماضي فهو مذهب مالك (المصدر السابق ج١ ص ٣٦٤).

[3] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٥.

[4] نفس المصدر ونفس الصفحة ؛ د.حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٤٢.

[5] البكري: المسالك والممالك ج٢ ص ٨٦٤.

على أن الحدود لا تسقط بالتوبة ، عدا الحرابة والردة ، كما أن التقادم لا يسقطها[١].

على أن ما يستشف من الروايات أن كثيراً مما كان يقوم به عبد الله بن ياسين إنما كان من باب التعزير. والتعزير كما ذكر العلماء عقوبات واسعة حسب الجرم والمجرم والزمن والمكان ، وأن للإمام أن يعزر بما يراه رادعاً عن العودة إلى المخالفة[٢].

لم تمض غير فترة وجيزة حتى تسامع الناس بأخبار ابن ياسين وأخبار أهل الرباط ، فبدأ الناس يتوافدون من كل ناحية وكل قبيلة. أخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويعلمهم السنة ويستميلهم إلى الآخرة ويرغبهم في ثواب الله عز وجل. فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة[٣].

لم يكن الرباط والحياة فيه هدفاً في حد ذاته بل كان في نظر عبد الله بن ياسين وسيلة لإعداد فئة مؤمنة تربت على التعاليم الإسلامية الصميمة. والآن وقد حقق ما كان يصبو إليه من تكوين هذه الفئة القادرة على تحمل عبيء دعوة الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالجهاد إذا لزم الأمر ، قام عبد الله بن ياسين خطيباً في تلاميذه فوعظهم وذكرهم بنعمة الله عليهم بأن هداهم الصراط المستقيم وأن عليهم الآن أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يجاهدوا في الله حق جهاده[٤]. عند هذا النداء ظهر ما كان عبد الله يعتقد من طاعة هؤلاء التلاميذ وتفانيهم في ذلك فقد كان جوابهم قاطعاً: مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين[٥]

عندئذ أعلن عبد الله ملامح المرحلة التي سيقبل عليها هؤلاء التلاميذ الذين أطلق عليهم اسماً جديدا هو إسم المرابطين[٦] للزومهم رباطه وهو يعبر عن ذوبان

---

[١] ابن قدامة: المغني ج٨ ص ٢٩٦ ؛ الدردير: الشرح الصغير ج٤ ص ٤٨٩

[٢] الونشريسي: المعيار ج٢ ص ٤١٦.

[٣] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٢٥.

[٤] نفس المصدر والصفحة ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٥.

[٥] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٢٥.

[٦] اختلف المؤرخون حول أصل هذا الإسم فذهب ابن ابي زرع (روض القرطاس ص ١٢٥) ؛ وابن خلدون (كتاب العبر ج٦ ص ٣٧٥) إلى أنه عبد الله بن ياسين أطلقه على أتباعه للزومهم رباطه ، فيما يذهب ابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص ١٢) وصاحب (الحلل الموشية ص ٢١) إلى أن عبد الله أطلقه على لمتونة إثر معركة انتصروا فيها على بعض من البربر.

إنتماءاتهم القبلية وهي إنتماءات طالما فرقت بينهم. أما اليوم فتجمعهم العقيدة والسلوك والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين. إن المرحلة الجديدة التي يراد منهم تنفيذها هي مرحلة الجهاد باللسان والسنان.

- مرحلة الخروج من الرباط

لما اطمأن عبد الله بن ياسين إلى طاعة أتباعه وولائهم المطلق له ولمبادئه أمر هؤلاء المرابطين أن يخرجوا على بركه الله لينذروا قومهم ويخوفوهم عقاب الله ويبلغوهم حجته "فإن تابوا ورجعوا إلى الحق فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين"[١].

سار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمّا هم بسبيله من التقاليد المنافية للدين ، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم[٢].

خرج عبد الله نفسه إلى أشياخ القبائل ورؤسائهم فجمعهم وحذرهم وأقام عليهم الحجة. وكان هذا اللقاء الجديد بينه وبينهم بعد القطيعة السابقة ، إبلاغاً في النصح وقطعاً للعذر. وأقام عبد الله سبعة أيام يدعوهم إلى التوبة والإنابة.

لم يجد عبد الله رغم ذلك إلا الصدود والنفور فقلوب القوم أشربت الجهل فلم تعد تقبل النصح ، عندئذ قال لأصحابه: قد أبلغنا في الأعذار للقوم وقد وجب علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله[٣].

بدأ المرابطون بقبيلة جداله فغزوهم في ثلاثة آلاف فقتل منهم خلقاً كثيراً واسلم الباقون إسلاماً صحيحاً وأدوا جميع مافرض الله عليهم وذلك في سنة ٤٣٤هـ[٤].

ثم سار عبد الله بن ياسين إلى لمتونة فنزل بهم وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة. وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة.

---

[١] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٦.

[٢] ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٥.

[٣] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٦ ؛ ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج١ ص ١٧٠

[٤] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٦ ؛ Ki - Zerbo: Histoire de L'Afrique Noire P.115

ثم سار إلى مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له وبايعوه على ما بايعته عليه لمتونة وجدالة. فلما رأى ذلك باقي قبائل صنهاجة سارعوا إلى التوبة وأقروا له بالسمع والطاعة ، فقبل منهم[١] . وجعل هو وصحبه يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام ويأمرونهم بالصلاة والزكاة وإخراج العشر. كان إخضاع قبائل صنهاجة نصراً كبيراً لعبد الله بن ياسين وتلاميذه المرابطين ، فقد أضحوا اليوم هم أصحاب الكلمة العليا في الصحراء يقودون كماً هائلاً من الناس ويوجهونهم داخل إطار وحلف جديد ، فقد كانت الأحلاف السابقة تقوم على أسس مادية صرفة ، من دفع خطر مشترك أو الإحتفاظ بالتجارة عبر الطرق الصحراوية ، أما حلف اليوم فقد أقيم على أسس تختلف عن هذه تماماً ، أقيم على رباط من الدين لبسط العدل والإخاء وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

استدعى هذا الواقع الجديد من عبد الله بن ياسين أن ينشىء جهازاً يدير أمور هذا المجتمع الجديد، فإختار عبد الله أمير لمتونة يحي بن عمر[٢] ليكون أمير المرابطين وأطلق عليه لقب أمير الحق[٣] وكان إختصاصه أساساً في النظر في شؤون الجهاد واقتصر عبد الله على النظر في أمر الدين وأحكام الشرع وأخذ الزكاة والأعشار[٤].

ضرب عبد الله بن ياسين باختياره ليحي بن عمر أميراً للمرابطين مثلاً عظيماً من أمثلة الزهد في المناصب والمصلحة الشخصية وبرهن أنه لم يكن من السعاة إلى الملك والمجد وإنما كان مبتغي إصلاح وناشر دين. ولخص عبد الله للمرابطين دوره في هذا المجتمع الجديد بقوله: إنما أنا معلم دينكم[٥] . وهذه المنزلة التي اختارها عبد الله كانت بلاشك منزلة عظيمة في مجتمع المرابطين الجديد. وإضافة إلى تعيين أمير للجماعة

---

[١] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٦ ؛ البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٠.

[٢] يحي بن عمر بن تكلاكين اللمتوني (ت ٤٤٧هـ) أمير لمتوني كان من أوائل من انضم إلى عبد الله بن ياسين وكان من أهل الدين المتين وكان شديد الإنقياد لعبد الله كثير الطاعة له فيما يأمره وينهاه (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٧ ؛ البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٢).

[٣] ابن عذاري: البيان المعرب ج٤ ص ١٢.

[٤] الحلل الموشية: ص ٢١ ؛ د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٤٨.

[٥] الحلل الموشية: ص ٢١ ؛ عبد الله كنون: عبد الله بن ياسين ص ١٨.

فقد إتخذ بيت مال يجمع فيه الزكاة والعشر وينفق منه علـى الجيـوش المعـدة للجهـاد وشراء السلاح[١].

انتهى عبد الله بـن ياسـين مـن تنظيـم مجتمعـه الجديـد ليبـدأ في توجيهـه إلى ميـادين الجهـاد في المنطقـة المحيطـة بـالملثمين. ففـي الجنـوب تقـوم مملكـة غانـة السونوكية[٢] الوثنية وكان على المرابطين أن يواصلوا دور الفاتحين الأولين في سبيل نشـر الإسلام بين قبائل بلاد السودان الغربي.

كانت مدينة أودغست أهم المدن التابعة لمملكة غانة والقريبة من بـلاد المرابطـين وكانت فيما مضى تحت سيطرة صنهاجة لكن مملكة غانة احتلتها[٣] . لذا قرر عبد الله بن ياسين جهاد مملكة غانة وكلف الأمير يحي بن عمر بدخولها غازياً. وقد قـام يحـي بعدة حملات تكللت بالنجاح وكان النصر فيهـا حليـف المرابطـين. وكـان مـن نتائجهـا إحتلال مدينة أودغست سنة ٤٤٦هـ وطرد الغانيين منها[٤] .

ويظهر أن المرابطين اكتفوا إلى حين بهذا النصر على مملكة غانة فقد عـاد يحـي بن عمر إلى ديار الملثمين حيث كانت تنتظره مهمات جديدة.

- الجهاد في المغرب الأقصى

شاع في بلاد المغرب الأقصى خروج المرابطين بالصحراء وأن "دعوتهم مبنية علـى دين متين وتأسيس بفقه وأنـه إسـلام جديـد ، فحدقـت إليهـم العيـون وصرفـت إليهـم الوجوه"[٥].

---

[١] ابن ابي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٦.

[٢] السونوكي: شعب من شعوب السودان الغربي كانوا يعيشون في الحافة الجنوبية للصحراء وقد أقاموا أقوى امبراطوريات السودان الغربي وهي امبراطورية غانة (ابراهيم طرخان: امبراطورية غانة الإسلامية ص ١٨ ؛ Ki - Zerbo: Histoire de L'Afrique P.107.

[٣] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٢.

[٤] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٢ ؛ J.Cuoq: Histoire de l'Islamication de L'oust P.40.

[٥] ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام ص ٢٤٣.

وكان المغرب الأقصى في هذا العهد يخضع لحكم زناتة وتتولى السلطة فيه قبيلتان منها هما مغراوة وبنويفرن[١] ، وكان الصراع بينهما على أشده ، فانعدم الإستقرار وانعدم الأمن وتضررت الرعية من سوء الحكم وإنتشار الفساد والسياسة الضرائبية المجحفة وفوق ذلك إنتشار البدع والمخالفات[٢].

تعلقت إذن آمال أهل المغرب الأقصى بالمرابطين وإمامهم عبد الله بن ياسين لإنقاذهم مما هم فيه ولإصلاح أحوالهم.

فبدأت الرسائل تترى على عبد الله بن ياسين شاكية وضع المغرب ومستغيثة به. وبدأ عبد الله يفكر جدياً في الانسياح شمالاً. ليبدأ بذلك فتح صفحة جديدة من تاريخ المغرب بإنشاء إمبراطورية عظمى قائمة على الجهاد. وهو مالم تعهده ربوع المغرب الأقصى[٣] . لكن هل كان إهتمام عبد الله بن ياسين بالمغرب الأقصى وجهاده فيه لأسباب ودوافع غير الدافع الديني؟

لقد تعرضت دولة المرابطين لكثير من الحقد والتحامل والطعن فألصقت بها شتى العيوب ورميت بكل شنيعة وطمست فضائلها وأهمها أنها دولة قامت على الدين وبنيت على الجهاد. لذا انبرى هؤلاء المتحاملون[٤] إلى سوق شتى الحجج والبراهين لإثبات أن دخول المرابطين إلى المغرب وفتحهم له إنما كان عملاً بربرياً مما يقوم به عادة البدو على مراكز الحضارة فيخربونها ويحيلونها أثراً بعد عين.

ويحلو لهؤلاء أن يشبهوا المرابطين بالهلاليين وما قاموا به من نهب وسلب في افريقية[٥].

---

[١] بنويفرن: قبيلة من زناتة كان لهم نفوذ في المغرب خلال القرن ٤ و ٥هـ (الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٠٢).

[٢] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١١٣ ؛ أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٧.

[٣] عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج٢ ص ١١٨.

[٤] لعل أشهر هؤلاء الحاقدين على الدولة المرابطية: البيدق صاحب كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٦٠ ومن المستشرقين راينهارت دوزي في كتابه الإسلام الأسباني وأرشيبالد لويس في كتابه: القوى البحرية في حوض البحر المتوسط

[٥] ارشيبالد لويس: القوى البحرية في حوض البحر المتوسط ض ٣٦٢

ويرى بعض الكتاب أن حركة المرابطين إلى الشمال جاءت نتيجة قحط بلادهم وشح مواردها ، فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى النزوح شمالاً. ويوردون لذلك تاريخ ٤٥٠هـ بوصفه بداية الانسياح شمالاً من أجل الخصب[١].

ويضيف آخرون[٢] إلى هذه الأسباب سبباً رئيسياً بل وعلة الأسباب في نظرهم وهو: الصراع التاريخي بين صنهاجة وزناتة وبالتالي فإن إتجاه الملثمين شمالاً إنما كان للإنتقام من زناتة الذين طالما أذلوا صنهاجة وأبعدوها عن المناطق الخصبة في المغرب.

إن النظرة الفاحصة المتأنية للأسباب التي ساقها هؤلاء المؤرخون تكشف أنها لا تقوم على أساس متين من الواقع التاريخي والبراهين بل هي في معظمها تخرصات وأهواء يراد لها أن تكون حقائق بلا دليل.

إن إتهام المرابطين بأنهم قوم بداة هجروا صحاريهم إلى الشمال المتمدن فعاثوا فيه فساداً هو إفتراء واضح لا يحتاج إلى كبير جهد لرده. فالمرابطون هم أول من عرف المغرب الأقصى معهم الوحدة فوحدوا جميع مناطقه وكونوا فيه أول دولة عظمى يشهدها في تاريخه[٣]. عمّ بها الرخاء والأمن طيلة قرن من الزمن[٤].

أما أنهم هجروا أرضهم بسبب قحطها كما أورد ابن الأثير والنويري ، وأن عبد الله دعاهم إلى ذلك ، فأمر يحتاج إلى إثبات لكون ابن الأثير متأخر زمنياً بحوالي القرنين ولم نجد له سلفاً فيما قال. ثم أن التاريخ الذي يذكره لبداية الهجرة المرابطية إلى الشمال وهو سنة ٤٥٠هـ[٥] تاريخ مستبعد لأن المسكوكات المرابطية التي عثر عليها الباحثون يشير بعضها إلى أنها ضربت بسجلماسة عام ٤٥٠هـ[٦] . وهذا دليل على أنهم

---

(١) النويري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (من كتاب نهاية الإرب) ص ٣٨٠ ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٧٧. F.DE LA Chapelle: Esquisse d'une Histoire du Sahara Occidental P.62.

(٢) د.حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٨٩. H.TERRASSE: Histoire du Maroc P.217.

(٣) د. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ج٢ ص٢٧ ؛ د. سامي النشار: مقدمة كتاب السياسة للمرادي ص ٦.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٦٧.

(٥) النويري: تاريخ المغرب (من كتاب نهاية الأرب) ص ٣٨٠ ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٧٧.

(٦) H,Lavoix: Catalogue de Monnaies de la biblioteque Nationale P.556 Piece 567.

فتحوا هذه البلاد قبل هذا التاريخ. ثم أن الملثمين هم من سكان الصحراء وهؤلاء تعودوا سنين القحط والخصب ومن الصعب أن يخرجوا من بلادهم بسب قحط أصابهم.

أما الدوافع القبلية فالأساس الذي قامت عليه دعوة عبد الله بن ياسين وهو إيجاد غاية مثلى وهدف سام في هذه الدنيا ، هو رفع راية الإسلام وإحياء شرع الله في النفوس جعل الفوارق القبلية والعصبية تذوب في بوتقة الحزب الجديد حزب المرابطين.

فالعداوة كانت مستحكمة بين قبائل الصحراء أنفسهم وبفضل دعوة عبد الله بن ياسين هاهم يكونون جيشاً ومجموعة واحدة هويتها وإنتماؤها إلى الإسلام الذي هو هوية أوسع وأشرف من القبيلة.

إن الباحث قد لا ينكر بعض المحفزات المادية الإقتصادية[١] في إتجاه المرابطين إلى الشمال ، فالحدث التاريخي بطبيعته حدث مركب ناتج عن تفاعلات أكثر من سبب لكن بنسب متفاوتة ، لذا فإن نسبة تأثير كل سبب من تلك الأسباب هي المهمة.

وفي رأينا أن نسبة العامل الديني كانت هي السائدة. فالمغرب في ذلك العهد كان يغاني محنة دينية وسياسية خطيرة وكان في حاجة إلى معجزة تنقذه من هذا الوضع وكانت تلك المعجزة هي المرابطين[٢] .

إن التفسير الواضح لخروج المرابطين من الصحراء إلى المغرب الأقصى هو أن هذا الخروج كان بقصد الجهاد لنشر الدين الصحيح وأبطال البدع والإنحرافات والظلم والفساد[٣].

---

[١] لا يرى بعض الحاقدين من المستشرقين في الفتوح الإسلامية منذ بداية الإسلام إلا أنها مجرد هجمات وغارات من أجل المغانم. يقول الفرد بل عن خروج المرابطين إلى الشمال: ولاشك أن الأمل في المغانم نتيجة الفتوح كان له نفس التأثير الذي كان على البدو من الجزيرة العربية قبل ذلك بأربعة قرون (ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص٢٣٢).

[٢] عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (عبد الله بن ياسين) ص ٢٠ ؛ ابراهيم الجمل: الإمام عبد الله بن ياسين،ص ١٠١.

[٣] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٧ ؛ أحمد الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص ١٢.

وكان ذلك ضمن خطة مرسومة بإحكام وهي التي ندب أبو عمران الفاسي يحي بن إبراهيم إليها وهي قتال الظلمة الزناتيين وجهاد برغواطة[١] .

كانت مهمة عبد الله بن ياسين في هذه الخطة هي تكوين الأداة القادرة على تنفيذ الخطة ، ثم الإشراف على التطبيق. لذا لما اطمأن عبد الله على متانة وصلابة جند دعوته وقدرتهم على الإضطلاع بمهمة إنقاذ المغرب الأقصى بدأ تنفيذ الخطة. ويؤكد هذه الحقيقة أن الإتجاه إلى المغرب الأقصى جاء نتيجة إستدعاء من وجاج بن زولو اللمطي ، شيخ عبد الله ، الذي شكا إليه ما نال المسلمين من العسف والجور على أيدي بني وانودين المغراويين ، أمراء سجلماسة ، وحرضه على تغيير الوضع[٢] .

كانت أولى محطات الجهاد المرابطي في المغرب الأقصى هي منطقة سجلماسة[٣] ودرعة ، فقد إجتمع فقهاؤها سنة ٤٤٦هـ[٤] وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويحي بن عمر وأشياخ المرابطين يرغبون إليهم الوصول إلى بلادهم ، ليطهروها مما هي فيه من المنكرات ، وشدة العسف من الأمراء ، وعرفوهم بما هم فيه من الذل والصغار جراء أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي[٥] .

كان هذا النداء مدعماً بخطاب من وجاج يؤكد فيه ضرورة نجدة أهل سجلماسة ودرعة[٦] .

جمع عبد الله رؤساء المرابطين وقرأ عليهم ما وصله من مخاطبات وشاورهم في الأمر ، فقالوا له: أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله[٧] .

---

[١] مجهول: بيوتات فاس الكبرى: ص ٢٨ ؛ عبد القادر زمامة: أبو عمران الغفجومي (البينة ع٣٠) ص ٦٦.

[٢] ابن خلدون: ج٦ ص ٢٧٥.

[٣] سجلماسة: مدينة تقع في جنوب المغرب على وادي ملوية أنشأها الخوارج الصفرية سنة ١٤٠هـ وصارت عاصمة لدولتهم دولة بني مدرار وظلت مركزاً أساسياً من مراكز التجارة بين السودان الغربي وبين المغرب والأندلس (ابن عذاري ج١ ص ٢١٥)

[٤] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٧ ؛ الناصري: الإستقصا ج٢ ص ١٢.

[٥] مسعود بن وانودين: ابن خزرون بن فلفول الهزرجي (ت٤٤٦هـ) أمير من أمراء مغراوة الزناتيين.(الناصري: الإستقصا ج٢ ص١٢).

[٦] تعتقد الدكتورة صباح الشيخلي أن رسالة وجاج ليست إلا تذكيراً وإستحثاثاً لعبد الله بن ياسين لتنفيذ ما أتفق عليه من قبل مع يحي بن ابراهيم الجدالي (حقائق عن حركة المرابطين) مقال منشور في مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٧ سنة ١٩٨٦ بغداد ص٩١

[٧] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٧ - ١٢٨ ؛ ابراهيم الجمل: الإمام عبد الله بن ياسين ص ١٠١.

بدأ عبد الله بن ياسين بالإستعداد وخرج في جيش عظيم من المرابطين سنة ٤٤٦هـ. فاحتل درعة واشتبك مع مسعود المغراوي فكان النصر للمرابطين وقتل مسعوداً[١] وكثير من جيشه وقد استولى المرابطون على غنائم كثيرة[٢].

قام عبد الله بن ياسين بإخراج الخمس من تلك الغنائم وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم وقسم الباقي على المرابطين[٣][٤]. لقد كان عبد الله بن ياسين يرى في هذه الفئات التي قسم عليها الغنائم السند والإمتداد الحقيقي لدعوته دعوة الحق وبرهن أن إنتصار المرابطين هو إنتصار للعلماء في كل مكان لأن المرابطين إنما ينفذون توجيهات العلماء ونصائحهم.

وقد كان تجاوب طبقة الفقهاء مع المرابطين تاماً مما يدل على أن دعوتهم ذات أساس ديني قويم ومنهج صحيح.

بعد إحتلال درعة دخل عبد الله بن ياسين سجلماسة وأقام بها حتى أصلح أحوالها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع آلات اللهو وأحرق الدور التي كانت تباع فيها الخمور وأزال المكوس والمغارم ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه[٥].

لقد كانت أعمال عبد الله بن ياسين في سجلماسة ثورة حقيقية على العادات المبنية على الفساد بكل أنواعه ومحاولة إصلاحية للأوضاع وإرجاعها إلى النهج الإسلامي القويم بما فيه من عدل وإزالة للمظالم ، إنه منهج متكامل يشمل كل مناحي الحياة العقائدية والإجتماعية والإقتصادية.

---

[١] كان الذي تولى قتله الفقيه لمتاد بن بكين اللمتوني وهو من فقهاء المرابطين وعبادهم والمثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء (عياض: المدارك ج٨ ص ٨٠).

[٢] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٨ ؛ الحلل الموشية: ص ٢٢ ؛ البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١.

[٣] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٨ ؛ الناصري: الإستقصا ج٢ ص ١٣.

[٤] لقد إختلف العلماء في خمس الغنيمة وكيفية تقسيمه بناءاً على ما في الآية ٤١ من سورة الأنفال فذكر القرطبي أن قول مالك: هو أن تقسيم الخمس "موكول إلى الإمام وإجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير ، ويعطي منه القرابة بإجتهاده ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين ، وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا" (الجامع لأحكام القرآن ، طبعة دار الكتاب المصرية ١٩٦١ ، القاهرة ج٨ ص ١١).

[٥] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٨ ؛ عبد الله بن كنون: عبد الله بن ياسين ص ٢٠.

عاد عبد الله بن ياسين إلى الصحراء مع معظم جيش المرابطين وترك في سجلماسة حامية لرعاية مصالح المواطنين وقدم على المدينة عاملاً من لمتونة لإدارة شؤونها[١] .

لم يستسلم المغراويون للواقع الجديد الذي حرمهم من السيادة وحرية الفساد والطغيان لذا ما كاد عبد الله يصل صحراء الملثمين حتى انقض المغراويون على حامية المرابطين في سجلماسة وفتكوا بها[٢] .

لم يستطع أهالي سجلماسة دفعاً لممارسات المغراويين فكتبوا إلى عبد الله بن ياسين يشرحون له الوضع ويدعونه إلى القدوم وتواترت رسلهم بذلك[٣] .

قرر عبد الله بن ياسين أن يسير من جديد إلى سجلماسة لمحاربة مغراوة الذين ثاروا على كل ما حققه عبد الله من إصلاحات وارجعوا الوضع في سجلماسة إلى سالف عهده. غير أن مسير عبد الله إليها من جديد لم يكن محل إجماع قبائل المرابطين ، فقد اعترضت قبيلة جدالة عليه ورفضت المسير مع ابن ياسين لأسباب لم تذكرها المصادر. وقد قررت جدالة بدلاً من ذلك الرحيل إلى مضاربها على ساحل البحر المحيط[٤] .

أعتبر عبد الله بن ياسين موقف جدالة خروجاً على الطاعة ونكوصاً عن تحمل واجب الجهاد والصبر على تبعات الدعوة المرابطية لذا فقد أمر الأمير يحي بن عمر بتأديب جدالة[٥] . لم يكن هذا الوضع ليثني عبد الله عن المسير إلى سجلماسة فخرج إليها في نفر قليل من المرابطين وانضم إليه أثناء المسير أبو بكر بن عمر الذي كان أميراً على درعة في أعداد كثيفة من لمتونة ومسوفة ولمطة وترجة. وقد تمكن عبد الله بهذه الأعداد أن يهزم مغراوة وأن يستعيد سجلماسة[٦] .

---

[١] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٣ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٨.

[٢] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٣.

[٣] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٣.

[٤] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١ ؛ H.TERRASSE: Histoire du Maroc P.220.

[٥] ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٤ ؛ DELAChapelle: Esquisse d'une Histoire du Sahara P.63.

[٦] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٢ ؛ H.TERRASSE: Histoire du Maroc P.220.

أدرك عبد ا لله بن ياسين أن تغيير الأوضاع في المغرب الأقصى تحتاج من المرابطين أن يكون لهم وجود دائم في المنطقة. فالعمل الذي يقوم به ابن ياسين ليس غارة لجني بعض المكاسب المادية الآنية ولكنه عملية إصلاح يراد لها البقاء. لهذا فقد قرر عبد ا لله بن ياسين إنشاء مدينة مرابطية في هذه المنطقة هي مدينة تبلبلا[١] .

وفي الوقت الذي كان فيه عبد ا لله بن ياسين يستعيد سجلماسة ، كان الأمير يحي بن عمر يخوض معارك شرسة ضد قبيلة جدالة[٢] التي خرجت على الطاعة ، وقد استشهد يحي في هذه المعارك بتيفريلي سنة ٤٤٨هـ[٣] .

كان مقتل الأمير يحي بن عمر ضربة للمرابطين ، غير أن هؤلاء قد بلغوا في ذلك الوقت درجة من البناء والرسوخ لم يعد معها يؤثر في بنيانهم موت قائد. لذا فقد بادر عبد ا لله بن ياسين بترشيح أبي بكر بن عمر اللمتوني أخي الأمير يحي ليحل محله. وقد وافقت قبائل المرابطين على هذا الترشيح فأصبح أبو بكّر بن عمر أميراً للمرابطين وقلده عبد ا لله بن ياسين أمر الحرب[٤] . ولم يقتصر عبد ا لله في أخذ البيعة لأبي بكر بن عمر على المرابطين بل تعداهم إلى رعايا الدولة الجدد مثل الزناتيين وغيرهم[٥] .

كان عبد ا لله بن ياسين الحاكم الفعلي المطاع للمرابطين وكان بإمكانه لو رغب أن يتولى الإمارة ولكنه أثبت مرة أخرى أن لا رغبة لديه في الإمارة وأن مهمته التوجيهية تعلو على الأغراض المادية الدنيوية البحتة.

كان أبو بكر بن عمر أهلاً للإمارة فقد كان رجلاً صالحاً متورعاً كأخيه يحي ، وكان من أوائل أصحاب ابن ياسين الذين دخلوا معه الرباط[٦] .

---

(١) تبلبلا: مدينة أنشأها المرابطون على الطريق بين تفيلالت وتوات DELA Chapelle: Histoire du Sahara P.46.

(٢) اشترك في هذه المعارك الملك لبي بن ورجابي ملك التكرور إلى جانب الأمير يحي بن عمر اللمتوني مما يدل على إنتشار الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء بفضل جهود المرابطين (البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٢) ؛ J.Cuop: op. cit P.43

(٣) البكري: المسالك: ج٢ ص٨٦٢ ؛ اختلف المؤرخون حول إستشهاد يحي بن عمر فذهب البكري (المسالك ج٢ ص ٨٦٢) وابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص١٤) وصاحب الحلل الموشية (ص ٢٣) إلى أنه أستشهد عام ٤٤٨هـ في حرب جدالة بينما يذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ص ١٢٨) أنه استشهد في إحدى غزواته ببلاد السودان.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٤ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٨ ؛ الحلل الموشية: ص ٢٣.

(٥) الحلل الموشية: ص ٢٣ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٤

(٦) عبد ا لله بن كنون: مشاهير رجال المغرب (عبد ا لله بن ياسين) ص ٢٢.

واصل عبد الله عمله الدعوي الدائب سالكاً فيه المنهج الإسلامي ، فكان يدعو إلى الحق بالحسنى والموعظة ولا يلجأ إلى السلاح إلا عندما يستنفد كل الوسائل السلمية. فلما أكمل بيعة أبي بكر بن عمر ارتحل إلى قبائل وريكة وهيلانة[١] يدعوهم إلى الحق ونبذ ماهم فيه من الفتنة. وإستطاع عبد الله بما أوتي من خطابة وحسن تبليغ أن يقنعهم بمبادئه وأن يدخلوا في جماعة المرابطين ويلتزموا مبادئها ويبايعوا أميرها: "ليصلح الله به أحوالهم"[٢] .

ندب عبد الله بن ياسين الأمير الجديد أبا بكر بن عمر إلى غزو السوس وبلاد المصادمة فخرج إليها في جيش عظيم سنة ٤٤٨هـ فبدأ بغزو جزولة ثم فتح مدينة ماسة وقد أطاعته تلك البلاد كلها ولم تبد مقاومة تذكر[٣] وتقدم الجيش المرابطي إلى تارودانت[٤] وكان فيها قوم من الشيعة الروافض يدعون البجلية نسبة إلى عبد الله البجلي الرافضي[٥] فقاتلهم المرابطون حتى فتحوا مدينتهم ، وقتل بها من الروافض خلق كثير ، فرجع من بقي منهم إلى السنة وأخذ عبد الله أموال من قتل منهم غنيمة للمرابطين[٦]

إهتم عبد الله بتنظيم البلاد المفتوحة ، كما هي عادته ، فعين على نواحيها عمالاً من المرابطين وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة ، واستخلاص الزكاة والعشر وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم الجائرة[٧] . وفي أثناء ذلك كانت وفود البلاد المجاورة والأقاليم المتاخمة تتوارد على عبد الله بن ياسين مقدمة طاعتها وإنضمامها للجماعة

---

[١] وريكة وهيلانة: قبيلتان من قبائل المصامدة تنسب إليها أغمات بطرفيها فهناك اغمات وريكة واغمات هيلانة.

[٢] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ١٥.

[٣] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٩ ؛ الحلل الموشية ص ٢٣.

[٤] تارودانت: قاعدة منطقة السوس (الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٣٩).

[٥] عبد الله البجلي: أحد دعاة الشيعة الروافض قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي إلى افريقية فأشاع بالسوس مذهبه ، فيذكر البكري أنه كان يدعو أتباعه إلى سب الصحابة رضوان الله عليهم ، وأحل لهم المحرمات وزعم أن الربا بيع من البيوع وزادهم في الآذان بعد "أشهد أن محمداً رسول الله": أشهد أن محمداً خير البشر ثم بعد "حي على الفلاح": حي على خير العمل آل محمد خير البرية. (البكري: المسالك ج٢ ص٨٥٢ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٩).

[٦] البكري: المصدر السابق نفس الصفحة ؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق نفس الصفحة.

[٧] ابن أبي زرع: المصدر السابق نفس الصفحة.

الجديدة ومبادئها ، وكان عبد الله يعلم هؤلاء الداخلين ويرشدهم ويأخذ عليهم العهد بإقامة شعائر الدين[١] .

واصل عبد الله جهاده إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن وبلاد نفيس[٢] ثم خرج قاصداً مدينة اغمات[٣] وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف المغراوي[٤] فضيق عليها الحصار ، وقد قام لقوط بالدفاع بقوة عن مدينته ، فلما لمس تفوق المرابطين وعبث مقاومته لهم اضطر إلى الفرار عنها إلى تادلا[٥] .

دخل المرابطون مدينة اغمات سنة ٤٤٩هـ وأقام بها عبد الله شهرين يمهد أمرها ويستصلح أحوالها ويريح جنده[٦] . ثم نهض إلى بلاد تادلا وكانت خاضعة لبني يفرن من زناتة ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن وظفر بلقوط المغراوي فقتله[٧] .

بعد تادلا زحف عبد الله بن ياسين إلى تامسنا[٨] وكانت بها قبائل برغواطة وكانوا ذووا نحلة ضالة وعقائد فاسدة ، وقد حاول من حكموا المغرب قبل المرابطين مثل بني يفرن ، أن يقضوا على هذه النحلة وأن يرجعوا هذه القبائل إلى الحق لكن جهودهم كانت تبوء بالفشل[٩] .

---

[١] ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٥.

[٢] جبل درن: إسم يطلق عادة على الأطلس الكبير الغربي ، جنوب مراكش (الحميري: الروض المعطار ص ٢٣٤ بلاد نفيس: منطقة تقع إلى الجنوب الغربي من مراكش يجري بها وادي النفيس الشهير (المصدر السابق ص ٦٧٨).

[٣] أغمات: إسم لمدينتين هما أغمات وريكة وتقع على بعد ثلاثين ميلاً شرقي مدينة مراكش أما الثانية فهي أغمات ايلان (هيلانة) وكانت على الشمال الشرقي من الأولى على بعد أميال قليلة وقد خربت هذه الأخيرة وأصبح اسم أغمات يطلق مجرداً ليدل على أغمات وريكة وأغمات اليوم أطلال بالية (العباس بن ابراهيم: الأعلام ج١ ص ١٠٠ ؛ الصديق بن العربي: كتاب المغرب ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ، نشر دار الغرب الإسلامي ، ص ٥٨).

[٤] لقوط بن يوسف المغراوي: آخر أمراء أغمات من مغراوة. قتله المرابطون سنة ٤٥٠هـ وتزوج الأمير أبو بكر بن عمر زوجته زينب بنت اسحاق النفزاوية وكانت مشهورة بالجمال والرياسة ولها في ذلك أخبار مشهورة (ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٦).

[٥] تادلا: منطقة تقع على بعد ٢٠٠ك.م. جنوب شرق الدار البيضاء الحالية يخترقها وادي وانسيفن (أم الربيع حالياً) قاعدتها الآن مدينة داي (الصديق بن العربي: مصدر سابق ص ٩١).

[٦] ابن أبي زرع: مرجع سابق ص ١٢٩.

[٧] المصدر السابق نفس الصفحة ؛ ابن خلدون: مصدر سابق ص ٣٧٦.

[٨] تامسنا: سهل يقع إلى الشمال من وادي أم الربيع يمتد على ساحل المحيط من الرباط (الحالية) إلى الدار البيضاء ويسمى الآن بالشاوية (الحميري: مصدر سابق ص ١٢٩ ؛ ابن العربي: مصدر سابق ص ٩٧).

[٩] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص٣٠ ؛ الناصري: الاستقصا ج١ ص ٢٢١ ؛ N.Slauch: L'EMPIRE de Berghouata, Revue du Monde Musulman, Tome x, 1910, P.P.394 - 400. ويذهب ناحوم سلوتش في مقالة هذا إلى أن دولة برغواطة كانت يهودية في أساسها وإتجاهها ويستند في ذلك إلى بعض العادات التي كانت عند برغواطة ويرى أنها ذات أصل يهودي.

كان جهاد هؤلاء البرغواطيين المارقين عن الدين من أوكد الأمور عند عبد ا لله بن ياسين ، واعتبره من أولويات المرابطين لإستئصال شأفة هذا المنكر المستشري.

سار عبد ا لله بن ياسين إليهم في أعداد كبيرة من المرابطين ومن إتباعه الجدد المصامدة يصحبه الأمير أبو بكر بن عمر[١]. نشبت بين الطرفين وقائع عظيمة قتل فيها من الطرفين خلق كثير واستشهد فيها إمام المرابطين عبد ا لله بن ياسين سنة ٤٥١هـ[٢].

كان عبد ا لله بن ياسين حريصاً على نصح المرابطين حتى وهو في آخر رمق من حياته فإنه لما أصيب في المعركة وحمل إلى عسكره وبه رمق جمع أشياخ المرابطين ورؤسائهم فقال لهم: يامعشر المرابطين إنكم في أرض أعدائكم وإني ميت في يومي هذا فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم ، وكونوا أعواناً على الحق واخواناً في ذات ا لله تعالى ....."[٣] إنه إحساس بالمسؤولية عظيم وسعي دائم لتحقيق ما نذر نفسه له من إنشاء دولة أفرادها أعوان على الحق إخوان في ذات ا لله تعالى.

لقد قطع عبد ا لله بن ياسين شوطاً كبيراً من درب تكوين دولة المرابطين ، فعند رحيله كان المرابطون قوة سياسية وإجتماعية وإقتصادية وعسكرية قوامها الدين. تحتل رقعة ترابية شاسعة تمتد من حدود نهر السنغال إلى وسط المغرب الأقصى[٤] لها عملة مضروبة[٥]. وعاصمة وبيت مال. تسير ذلك كله حكومة منظمة ذات أمير مختار على أساس من الكفاءة والدين. ومجلس شورى يستشار في المسائل الكبرى للجماعة[٦] وجيش قوي يحمل الدعوة ويحميها وقد أدخل عبد ا لله على المرابطين طريقة جديدة في القتال بالنسبة للمنطقة هي طريقة القتال صفاً فكسب المرابطون بذلك قوة قتالية كبرى[٧].

---

[١] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣١.

[٢] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٢ ؛ البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٣ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٦ ؛ الناصري: الإستقصا ج٢ ص ١٩ ؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٤ ؛ على أن القاضي عياض في المدارك ج٨ ص ٨٣ وابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٦ يذكران أن وفاة عبد ا لله بن ياسين كانت سنة ٤٥٠هـ.

[٣] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٢ ؛ عبد ا لله كنون: عبد ا لله بن ياسين ص ٢٦.

[٤] حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٥٣ ؛ عبد الواحد شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ص ١٩.

[٥] الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمغرب الإسلامي ص١٠٢.

[٦] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٧.

[٧] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦١ ؛ عبد ا لله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج٢ ص ١١٤.

وفوق هذا كله ترك عبد ا الله بن ياسين لأتباعه هدفاً سامياً يعيشون من أجله هو إعلاء كلمة ا الله وقد حرص عبد ا الله أن يتجلى هذا في كل أعمال المرابطين ، فالنقود التي ضربوها منذ سنة ٤٥٠هـ مكتوب عليها الشهادتان والآية الكريمة : "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"[١] .وقد نهج عبد ا الله بن ياسين لقومه نهجاً قويماً ليسيروا عليه لبلوغ الهدف المنشود وقوام هذا النهج هو الإلتزام بشرع ا الله في كل الأمور صغيرها وكبيرها. وقد أثمر ذلك المنهج: انمحاء البدع والفرق الضالة وتوحيد المغرب الأقصى مذهبياً على مذهب أهل السنة والجماعة لأول مرة في تاريخه[٢] . كما أزال الظلم الإجتماعي والإقتصادي بالقضاء على المكوس والمغارم السلطانية مما أدى إلى ظهور فترة من الأمن الإقتصادي والرخاء[٣] فنشطت الحركة التجارية وانخفضت الأسعار[٤] . لقد كانت هذه الإصلاحات ذات أثر بعيد المدى في تاريخ الدعوة المرابطية إذ أظهرت للناس في المغرب أن المرابطين قوم لا يبغون جاهاً ولا مالاً وإنما يبتغون الإصلاح وإنقاذ الناس مما ترددوا فيه من جور وعسف[٥] .

لم يكن عبد ا الله بن ياسين مجرد فقيه بل كان صاحب دعوة في الإصلاح[٦] ، وكان من رأيه أنه لا يعصم المجتمع من الفساد إلا إستعمال اللين والقوة كل في مكانه المناسب وكل من أجل الحق.

لقد كان يدعو ويعظ ويذكر لكنه كان مقتنعاً أن الحق والصلاح لكي يثمرا لابد لهما من دولة ترعاهما وتقوم عليهما. والنموذج الحاضر في ذهنه الذي كان يترسم خطاه ويريد الوصول إليه هو دولة الإسلام في عهدها المجيد عهد رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم وأصحابه من بعده. لقد تمكن عبد ا الله بن ياسين أن يصل إلى أهدافه بفضل

---

(١) J.Devisse: Tegdaoust I,154 ؛ حبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الإقتصادي للمغرب ص ١٥٣.

(٢) عبد ا الله كنون: عبد ا الله بن ياسين ص ٢٣ ؛ محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب ص ٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٧ ؛ J.Cuop: op. cit.56.

(٤) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الإقتصادي للمغرب ص ٩٦.

(٥) محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون ص ٥٥ ؛ سعيد أعراب: عبد ا الله بن ياسين (دعوة الحق. ع٧) ص ١٠٥.

(٦) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٦٠ ؛ الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب ص ١٧٤.

صفات نادرة اجتمعت فيه فقد كان ذا علم واسع[١] وخطيباً مفوهاً بليغاً ومؤمنـاً مخلصاً لرسالته متفانياً في تحقيقها صابراً على ما أصابه فيها. وكان عبد الله نموذجـاً حيـاً لما يدعو إليه فقد كان كثير الصوم متورعاً لا يـأكل إلا مـن الصيـد أو عمـل يـده متقشـفاً في المأكل والمشرب[٢] . زاهداً في المكاسب الدنيوية من مال وجاه ومنصب ومن أظهـر أمثلـة هذا الزهد أن المرابطين لما احتلوا سجلماسة وبدأوا بضرب سكة يتعامل بها سنة ٤٥٠هـ لم يكتب على هذه السكة إسم عبد الله بن ياسين مع أنه هو الحاكم الفعلـي للمرابطـين بل كتب عليها إسم الأمير أبي بكر بن عمر إلى جانب إسم الخليفة العباسي[٣].

لقد كتب المرابطون إسم الخليفة العباسي علـى سكتهم ليرسـخوا مبدأ الوحـدة وتبعية ديار المسلمين مهما بعدت لحاكم واحد هو الخليفة العباسي ، مهما كـانت تلك التبعية اسمية فقط.

إن كتابة إسم الخليفة العباسي على السـكة المرابطيـة تعـبر عـن نفسـية رافضـة لحالة التشرذم التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية عامة وبلاد المغرب الأقصـى خاصـة. مبشرة بأمل وحدة مهما كان حجمها[٤] .

ومما هو جدير بالتسـجيل أن عبـد الله بـن ياسـين لم يلجـأ في سـعيه لإنجـاح دعوته إلى شعوذة ولا إدعاء فلم يدع لنفسه ولا ادعى له أصحابه أنه مهدي ولا أنه يعلـم الغيب ولم ينتحل لنفسه نسباً مميزاً كما فعل ذلك كثيرون غيره[٥].

---

[١] الحلل الموشية: ص ٢٠ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص١٠.

[٢] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٥٩ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٤.

[٣] الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الإقتصادي للمغرب ص ١٠٣

H.Lavoix: Catalogue des monnaies de la Bib. Nat. P.556. Piece 507.

[٤] وهذا العمل لا يدل على ماذهب إليه د. العروي مـن محاولـة لتطويـق الفـاطميين ويشـهد لذلـك أن المرابطـين اهتمـوا أساسـاً بالجهاد شمالاً و لم يتوغلوا شرقاً ثم أن إتصالهم بالعباسيين لم يكن إتصال توجيه بل اقتصر على التبعية الشكلية.

[٥] أمثال عبيد الله المهدي (ت٣٢٢هـ) الذي أدعى أنه الإمام المنتظر والمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كمـا ملئـت جـوراً ، وهـو أول خلفاء الدولة الفاطمية ومؤسسها ، وكذلك فعل المهدي بن تومرت الذي سنتحدث عنه في فصل لاحق. (ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٢٣).

الأمير أبو بكر بن عمر ومواصلة جهود عبد الله بن ياسين

لقد حرص عبد الله بن ياسين بعد أن جرح في المعركة مع البرغواطيين أن يندب المرابطين إلى تجديد البيعة لأبي بكر بن عمر اللمتوني وأن تضاف إليه بعض المهام التي كان يقوم بها عبد الله بن ياسين مثل تقسيم الفيء وأخذ الزكوات والأعشار[1] وقد قبل أشياخ المرابطين تقديم أبي بكر عليهم وأجمعوا على ذلك[2].

كما اتفقوا على تقديم الفقيه سليمان بن عذراء[3] ليرجعوا إليه في مشاكلهم الدينية[4].

ماكاد أبو بكر بن عمر ينتهي من دفن عبد الله بن ياسين بكريفلة[5] حتى عبأ قواته واستأنف عمل شيخه في جهاد برغواطة ، وقد تمكن الأمير أبو بكر من إستئصال شأفتهم وتمزيق شملهم فأذعنوا له بالطاعة واعتنقوا الدين الحق فلم يبق لنحلتهم أثر[6].

ويبدو أن هذه المعارك كانت من الشراسة بحيث دامت أشهراً عدة ، واستشهد فيها شيخ المرابطين الجديد الفقيه سليمان بن عذراء سنة ٤٥٢هـ[7] . ويبدو أن المرابطين لم يعينوا أحداً لخلافته[8] . ربما لإنتشار العلم بين المرابطين فظهر منهم علماء كبار من أمثال لمتاد بن بلين اللمتوني وأبي القاسم بن عذراء[9] . كما أن المناطق التي دخلها

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٢ ؛ عبد الله كنون: مرجع سابق ص ٢٦.

(٢) ابن أبي زرع: المصدر السابق ص ١٣٢.

(٣) سليمان بن عذراء الجزولي (ت٤٥٢هـ): أحد رفاق عبد الله بن ياسين وأبناء عمومته وأحد تلاميذ شيخه وجاج بن زللو اللمطي (عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ٨٠ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٣ وقد سماه ابن خلدون سليمان بن عدو) هذا ولم تذكر المصادر هل كان تعيين سليمان بأمر من عبد الله بن ياسين أم لا؟.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق من نفس الصفحة.

(٥) كريفلة: موضع قريب من مدينة الرباط الحالية.

A. BENACHENHOU: Sidi ABDALLAH Mou - l - gara ou ABDALLA ibn Yassin , Hesperis 1946 P.406 - 413.

(٦) ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٣٣ ؛ مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص ٢٩.

(٧) ابن خلدون: مصدر سابق ص ١٨٣ ؛ عياض: مصدر سابق ص ٨٠..

(٨) تذكر د. عصمت دندش (دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا ص ٩٧) أن المرابطين اختاروا أبو القاسم بن عذراء ليخلف أخاه الشيخ سليمان ونسبت ذلك القاضي عياض في المدارك ولكن بالرجوع إلى النص المذكور نجد أنه لا يذكر هذه المعلومة بل اقتصر على وصف أبي القاسم بأنه أخو سليمان القائم بأمر المرابطين بعد عبد الله بن ياسين (عياض: المدارك ج٨ ص٨٠).

(٩) أبو القاسم بن عذراء الجزولي: فقيه ، أخو سليمان بن عذراء وأحد تلاميذوجاج بن زولو اللمطي شيخ عبد الله بين ياسين (عياض: المدارك ج٨ ص ٨٠).

المرابطون فاتحين كانت تضم فقهاء أجلاء هم السند الآن للدولة المرابطيــة والـتي قربتهـم وأعلـت شأنهم وقسمت فيهم الأموال[١] .

اتخذ الأمير أبو بكر بن عمر من مدينة أغمات مركزاً لقيادته ، ثـم تـابع طريـق الجهـاد الـذي رسمه له عبد الله بن ياسين فجهز جيشاً كبيراً من صنهاجة وجزولة والمصـامدة ففتـح بـلاد فـازاز[٢] ثـم فتح بلاد مكناسة[٣] ثم عرج على بلاد لواتة[٤] ففتحها عنوة ورجع إلى أغمات.

كان الأمير أبو بكر بن عمر يدرك أن السبيل الوحيد للسيطرة على جنوب المغرب الأقصى أولاً والإنطلاق إلى الشمال ثانياً ، هـو أن تتجمـع جنـوده عنـد أقـدام جبـال الأطلس الجنوبيـة ، فتكون هذه متكأ وملجأ ويكون السهل تحت عيونهم والطريق الجبلي إلى فاس على مسمع منهم ، وكانت اغمات مناسبة لتجسيد هذا المخطط إلا أن أهلها ضـاقوا بـأعداد المرابطـين المتزايدة وشـكا أشياخ قبيلتي وريكة وهيلانة[٥] إلى الأمير أبي بكر بن عمـر هـذا الوضـع فطلـب منهـم إرشـاده إلى موضع يرتحل إليـــه مع جيشـــه فاختاروا له مكان مراكش الحاليـــــة فنزله أبو بكر ومعــه قومه من المرابطــــين وأشياخ المصامـــــدة فبدأ في بنـــــاء معسكره فيهـا[٦] وذلـك سنة ٤٥٤هـ[٧] .

---

[١] يرى بعض المستشرقين في عدم تعيين مرشد ديني للمرابطين خلفـاً لسـليمان نوعـاً مـن التخلي عـن الطابع الديـني للدولـة وأن المرابطين أصبحوا مجموعة غزاة H. TERRASSE: Histoire du MAROC P.221

[٢] فازاز: قبيلة من قبائل البربر (ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٨٩).

[٣] مكناسة: قبيلة من قبائل بربر زناتة لعبت دوراً هاماً في سياسة المغرب الأقصى وكان القسم الأكبر من أفرادها يسكنون شـرقي المغرب الأقصى. وإلى هذه القبيلة تنسب مدينة مكناس الحالية (محمد بن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون).

[٤] لواتة: قبيلة من قبائل البربر البتر (ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٨٩ - ١٠٠).

[٥] الحلل الموشية: ص ٢٣ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٩.

[٦] ليفي بروفينسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٤٣ ؛ نقولا زيادة: افريقيا ص ١٠٤.

[٧] لقد اختلف المؤرخون في تاريخ إنشاء مراكش كما اختلفوا في مؤسسها فقد ذكر مؤلف الحلل الموشية (ص ٢٣) وابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص ١٩) وصاحب بيوتات فاس الكبرى (ص ٢٩) أن مراكش أسست سنة ٤٦٢هـ وأن الذي أسسها هو أبو بكر بن عمر اللمتوني وينهب إلى هذا الرأي من المحدثين د. أحمد العبادي في بحثه (دراسة حول كتـاب الحلـل الموشية) ص ١٤٣ وحسين مؤنس (تاريخ المغرب ج٢ ص ١٩) ود. ابراهيم توتشيش (المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص ١٣) ومـن المؤرخـين الأجـانب Levi - Provencal: La fondation de Marra Kech (462.1070). Melauges d'Histoire et d'Archeologie de l'occident Musulman tom II P.117

- A.Huici Mirinda: La Salida de los Almoravides del deierto, Hesperis 1959
- G.Deverdun.

في حين يرى كل من ابن ابي زرع (روض القرطاس ص ١٣٨) وابن خلدون (العبر ج٦ ص ٣٧٨) وتبعهم في ذلك مـن المحدثـين محمـد عبـد الله عنـان (دول الطوائـف ص ٣١٠) د. محمـد الهـادي شـعيرة (المرابطـون ص ٥٦) ومـن المؤرخـين الأجـانب: H.Terrasse: Histoire du Maroc P.222 أن يوسف بن تاشفين هو الذي أسس مراكش سـنة ٤٥٤هـ. والـذي يظهـر أن أبوبكر بن عمر هو الذي إختار موقع مراكش ولكن الظروف اضطرته للسفر عنها فكان يوسف هو المؤسس الحقيقي لها.

في هذه الأثناء وردت على أبي بكر بن عمر رسل تخبره بوقوع الفتنة بين قبائل المرابطين في الصحراء[١] وكان الأمر خطيراً إذ أن قبائل الملثمين بالصحراء وخصوصاً لمتونة هم القاعدة الخلفية والإحتياط البشري للمرابطين. "وهم أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم ، ومنبع عددهم ، فخشي إفتراق الكلمة وإنقطاع الوصلة"[٢].

واتخذ أبو بكر قراراً حاسماً بأن يعود إلى الصحراء بنفسه ليعيد الأمور إلى نصابها ويزيل أسباب الفرقة ودواعي الشحناء.

لقد إستشعر الأمير أبو بكر أن مهمته هذه ستستغرق زمناً قد يطول لأنه أضاف إلى هدفه الأصلي هدفاً جديداً وهو الجهاد في أرض السودان الغربي. وفي سبيل هذه الأهداف اضطر الأمير المجاهد أن يترك زوجته وأهله. فقد قال لزوجته زينب[٣] عند فراقه لها: يازينب إني سائر إلى أرض الصحراء برسم الجهاد لعلى أرزق الشهادة ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي والرأي أن أطلقك. ثم اقترح على ابن عمه يوسف بن تاشفين أن يتزوجها لأنها امرأة مسعودة ، فتزوجها يوسف[٤].

لقد حتم هذا الظرف الجديد على الأمير أبي بكر بن عمر أن يختار أحد رجاله لإنابته على شؤون المغرب الأقصى ومواصلة جهود الإصلاح التي كان أبو بكر بن عمر وإمامه عبد الله بن ياسين قد بدأوها. وقد وقع إختيار الأمير أبي بكر بن عمر على قائد لامع من قواد المرابطين هو يوسف بن تاشفين اللمتوني[٥] . وقد بدأ إسم يوسف في

---

[١] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٤ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢٠.

[٢] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٧.

[٣] زينب بنت اسحاق النفزاوية: أمرأة أجمعت المصادر على وصفها بالجمال والفطنة والذكاء تزوجها قبل الأمير أبي بكر ، كل من يوسف بن علي شيخ وريكة وهزرجة ثم لقوط بن يوسف المغراوي حاكم أغمات الذي قتله المرابطون عند إستيلائهم على أغمات سنة ٤٥٠هـ وقد ذكر ابن أبي زرع في روض القرطاس أنها توفيت سنة ٤٦٤هـ وهذا يتعارض مع ماذكره ابن عذاري من أنها ولدت ابنها الفضل سنة ٤٦٩هـ وفي الإحاطة لإبن الخطيب ج٣ ص ٥٢٣ أن ابن اسباط التحق بخدمتها سنة ٤٧٢هـ فلعلها توفيت بعد هذا التاريخ.

[٤] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٤ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢١.

[٥] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٤ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢١ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٧ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص ١١٢.

الظهور عندما جعله الأمير أبو بكر على مقدمة حيشه السائر لفتح بلاد المصامدة وبلاد السوس وذلك سنة ٤٤٨هـ[١].

لقي إختيار يوسف بن تاشفين رضى أشياخ المرابطين الذين يتكون منهم مجلس الشورى المرابطي لما يعلمون من دينه وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه. فعقد له الأمير أبو بكر بن عمر على المغرب وفوض إليه أمره[٢]. واقتسم معه الجيش فسار أبو بكر بنصفه وترك النصف الآخر[٣] مع يوسف ليواصل الجهاد شمالاً.

مر الأمير أبو بكر في طريقه[٤] إلى صحراء الملثمين بتادلا وسجلماسة ليتفقد أحوال الرعية. كان مسير الأمير أبي بكر إلى الصحراء سنة ٤٥٤هـ حيث تمكن من حل المشاكل القائمة بين قبائل المرابطين في الصحراء. ولتعزيز حال السلم هذه ندب الأمير أبو بكر قبائل الملثمين إلى ما هو أجدى لهم وهو الجهاد في سبيل الله بأرض السودان الغربي.

لقد إنحصر إهتمام المرابطين بالجنوب في فترة عبد الله بن ياسين بإحتلال مدينة أودغست سنة ٤٤٦هـ ثم انصب إهتمامهم بالشمال. وبعودة الأمير أبي بكر هذه بدأ الإهتمام بالجنوب من جديد.

لايتحدث المؤرخون عن هذا الجهاد بالتفصيل بل أن معظمهم يكتفي بالإشارة إليه إشارة عابرة. على أن هذه الإشارة على اقتضابها تدل على أهمية الجهد الذي قام به الأمير أبو بكر بن عمر فقد هدن الصحراء وسكن أحوالها وجمع جيوشاً كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر[٥].

---

[١] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٨.

[٢] ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢١ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٧

[٣] يذكر صاحب الحلل الموشية (ص ٢٤) أن الأمير أبا بكر أخذ ثلثا الجيش معه إلى الصحراء وترك ثلثا مع يوسف في حين ذكر ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٤ أن الأمير أبا بكر قسم الجيش نصفين.

[٤] سمي الطريق الذي سلكه الأمير أبو بكر بن عمر عائداً إلى الصحراء بطريق اللمتوني (نقولا زيادة: افريقيا ص ٣٤٨) ؛
F.De la Chapelle: Esquisse d'une Histoire du Sahara Occidental P.64.

[٥] ابن ابي زرع: روض القرطاس ص ١٣٥ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٧.

لقد انشغل المؤرخون بمتابعة أعمال المرابطين في الشمال ورصد تحركات قائدهم يوسف بن تاشفين ، ففي الوقت الذي كان فيه الأمير أبو بكر بن عمر يجاهد في أرض السودان كان يوسف يسير لتحقيق المهمة التي ندبه إليها أميره أبو بكر بن عمر فلما وصل إلى وادي ملوية عمد إلى توزيع عبء القيادة على فرسان قومه وانجادهم فقسم جيشه إلى أقسام وأختار لكل قسم قائداً من أشهر القواد وهم سير بن أبي بكر اللمتوني[١] ومحمد بن تميم الجدالي[٢] وعمر بن سليمان المسوفي[٣] ومدرك التلكاني[٤] وعقد لكل واحد منهم على خمسة آلاف رجل وبعث بهم إلى أنحاء المغرب لقتال القبائل العاصية وتولى يوسف قيادة بقية الجيش وزحف إلى أحواز فاس التي كان يحكمها معنصر بن المعز الزيري[٥] آخر ملوك مغراوة بفاس ، وقد أبدى هذا الأخير شجاعة عظيمة في مقاومة المرابطين ولكن يوسف إستطاع دخول فاس سنة ٤٥٥هـ[٦] وقد فر منها معنصر. خلف يوسف على فاس عاملاً ثم مضى لمحاربة غمارة وفتح كثيراً من حصونها وقلاعها. إنتهز معنصر الفرصة ودخل مدينة فاس وقتل عامل يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين.

كان يوسف آنذاك مشغولاً بمحاصرة قلعة مهدي من بلاد فازاز فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس وقد تمكنت هذه القوات من تضييق الخناق على فاس وقتل معنصر

---

[١] سير بن أبي بكر بن تاشفين (ت٥٠٧هـ) ابن أخي يوسف بن تاشفين وأحد قواده وأعاظم رجال دولته وهو الذي استنزل ملوك الطوائف عن عروشهم وكانت له مقامات صدق في الجهاد بالأندلس (العباس بن ابراهيم: الأعلام ج١٠ ص ١٦٢).

[٢] محمد بن تميم الجدالي نسبة إلى قبيلة جدالة أحد قواد المرابطين (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٨).

[٣] عمر بن سليمان المسوفي: نسبة إلى قبيلة مسوفة أحد قواد المرابطين (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٨).

[٤] مدرك التلكاني: أحد قواد المرابطين وقد ورد إسم مزدلي بدلاً منه (أعمال الأعلام: لابن الخطيب ص ٢٣٤). ويظهر من خلال هذا التوزيع أن يوسف راعي الوضع القبلي.

[٥] معنصر بن المعز بن زيري بن عطية المغراوي: آخر ملوك مغراوة بفاس والتي حكمها من (٤٥٥ - ٤٦٠هـ) كان ذا حزم وشجاعة ونجدة (ابن القاضي: جذوة الإقتباس ج١ ص ٣٣٧ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٢).

[٦] لقد اضطرب المؤرخون في تواريخ دخول فاس وعدد الدخلات كما اضطربوا في أسماء من كان بها من مغراوة ومجمل الأمر أنها دخلت أكثر من مرة (روض القرطاس ص ١١٣ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٧٩ ؛ ابن القاضي: جذوة الإقتباس.ج١ ص٣٣٧).

سنة ٤٦٠هـ[١] ، فخلفه ابنه تميم. فلما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢هـ زحف إلى فاس وحاصرها أياماً ثم افتتحها الفتح الثاني سنة ٤٦٢هـ[٢] .

وفي سنة ٤٦٤هـ شعر الأمير أبو بكر بن عمر أن الوضع في جبهة الجنوب قد استقر وأن أسباب الفرقة قد زالت بين قبائل الملثمين وأن الجهاد أصبح الشغل الشاغل لهذه القبائل لذا فقد قرر العودة إلى الشمال[٣] .

وصل الأمير أبو بكر بن عمر إلى أغمات سنة ٤٦٥هـ وكانت أنباء رجوعه قد سبقته. وشعر يوسف بدقة الموقف وحرجه ، إذ لا يمكنه أن يتمرد على إمامه وأميره الشرعي أبي بكر فدينه يأبى له ذلك ، في حين يتعرض لضغط زوجته زينب[٤] ، بأن لا يتخلى عما بيده من ملك. ويبدو أن يوسف قد ضعف أمام إغراء التشبث بالسلطة فانصاع لرأي زوجته التي حبكت له خطة محكمة ليصل إلى مبتغاه ، وتقوم هذه الخطة على إظهار القوة والجفاء والغلظة مع الملاطفة بالهدايا. وكانت زينب مقتنعة بنجاح الخطة لأن الأمير أبا بكر ، كما قالت ليوسف، "رجل متورع عن سفك الدماء ولا تسهل عليه الفتنة"[٥] . وهذا الحكم صادر عن معرفة شخصية فزينب ، كما ذكرنا من قبل كانت زوجة لأبي بكر بن عمر.

طبق يوسف بن تاشفين الخطة المرسومة: فوصل للقاء الأمير أبي بكر ، في جنوده وعبيده وتلقاه في منتصف الطريق بين أغمات ومراكش ، فسلم عليه راكباً ، ولم تكن هذه عادته. وقد تعجب الأمير أبو بكر بن عمر مما رأى من ضخامة ملك ابن تاشفين ووفرة جنوده فقال له : "يايوسف ما تصنع بهذه الجيوش كلها؟ قال: أستعين

---

[١] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٣ ؛ ابن القاضي: جذوة الإقتباس ج١ ص ٣٣٧.

[٢] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٣ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٨٠.

[٣] ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢٣ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ٢٥.

[٤] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٥ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢٣.

[٥] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٣٥ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج٣ ص ٢٣٣.

بها على من خالفني"[١] لقد كان الجواب يفصح عن النوايا المبيتة. ونظر الأمير أبو بكر إلى ألف بعير موقورة قد أقبلت فسأل يوسف من جديد عن هذه الإبل فقال يوسف: أيها الأمير جئتك بكل مامعي من مال وثياب وشيء من الإدام والطعام لتستعين بها على الصحراء"[٢] .

كانت تلك الإجابات غنية عن الشرح فيوسف قد قرر نتيجة ضغط زوجته أن يخلع ربقة الطاعة لأميره ، وأن يتمرد على أميره منتهكاً بذلك مبدأً أساسياً من مبادىء الإسلام وهو وجوب طاعة ولي الأمر وحرمة الخروج عليه وخصوصاً إذا كان ذلك الأمير أميراً مجاهداً صالحاً مثل أبي بكر بن عمر.

كان الموقف الجدّيد يقتضي من أبي بكر أحد إجراءين: إما مواجهة يوسف عسكرياً وإخضاعه وإما التخلي له عن ما بيده من حكم وسلطة.

ولما كان الأمير أبو بكر بن عمر ورعاً تقياً وهب حياته لإعلاء كلمة الله سعياً لنيل الدرجات الباقية ، فإنه لم يكن ليبيع الباقية بالفانية ، وتلك إحدى نتائج التربية العميقة التي رباه عليها الإمام عبد الله بن ياسين. ولاشك أن وصية ذاك الإمام الأخيرة وهو يجود بنفسه مازالت أصداؤها تتكرر في مسمع الأمير أبي بكر: "يامعشر المرابطين إياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة ، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في أرضه من أحب من عباده[٣] .

---

[١] ابن عذاري: المصدر السابق ص ٢٥ ؛ ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٣٥ ؛ الحلل الموشية: ص ٢٦.

[٢] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٣٥.

[٣] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٢.

كل هذه العوامل أدت بالأمير أبي بكر بن عمر إلى قبول الواقع الجديد الذي خلقه يوسف. فجمع الأمير أبو بكر أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة والكتاب والشهود وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن المغرب[١].

ورغم هذا التصرف غير المشروع الذي قام به يوسف والذي يدل على الطمع وحب الرئاسة ، فإن يوسف كان يتحلي بصفات حميدة كثيرة لعل أبرزها الشجاعة والحزم والنجدة وسداد الرأي وقبل كل ذلك كله دينه القويم[٢].

أوصى الأمير أبو بكر يوسف بالوصية التالية : يايوسف اني وليتك هذا الأمر واني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين واعتقني واعتق نفسك ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم. والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم"[٣].

إنها وصية ناصح مشفق يعرف أن تولي أمر المسلمين أمانة وحمل ثقيل وليست غنماً وفيئاً. إنه الفهم الصحيح لمعنى المسؤولية وتولي شؤون المسلمين ، منبعه تربية وتعليم العلماء العاملين.

لم يكن هذا اللقاء نهاية دور الأمير أبي بكر بن عمر بل كان مرحلة إنتقال إلى مهمة جديدة من مهام الجهاد الذي عاش من أجله.

- الأمير أبو بكر بن عمر والجهاد في السودان الغربي

عهد الأمير أبو بكر بأمر المغرب إلى يوسف بن تاشفين ثم ارتحل ميمماً أرض الملثمين بموريتانيا لمواصلة جهاد المشركين من أهل السودان الغربي. كان يحكم بلاد

---

[١] ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢٥ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ٢٦ ؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق ص ١٣٢.

[٢] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص ١١٢ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢٥ ؛ مجهول: الحلل الموشية: ص ٢١ ؛ ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٣٦ ؛ أحمد بن القاضي: جذوة الإقتباس ج٢ ص ٥٤٥.

[٣] ابن أبي زرع: مصدر سابق ، ص ١٣٥.

السودان الغربي في ذلك الوقت مملكة غانة التي تعتبر أقدم دولة في غـرب افريقيـا. وقـد رجح المؤرخون أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الرابع الميلادي[1].

وأضحت هذه المملكة في القرن العاشر الميلادي امبراطورية عظمى. وقد وصف ابن حوقل الذي زار اودغست سنة ٣٤٠هـ وصف ملوك غانة في ذلك الوقت بقوله: "وملوكهـا أيسر من على وجه الأرض بما لديهم من الأموال المدخرة من التبر"[2].

وكانت عاصمة هذه الدولة من أعظم مدن السودان الغربـي في تلـك القرون. وقـد امتد نفوذ هذه المملكة ما بين نهر السنغال ونهر النيجر وجزء مـن الصحـراء الموريتانيـة. وكان لموقعها على الطريق التجـاري الـذي يصـل الشمال الإفريقـي بمصـادر الذهـب في الجنوب أثر في ثرائها وقوتها. لقد كان إتصال الإسـلام بهـذه المملكـة قديمـاً عـن طريـق التجار والمراكز التجارية الإسلامية التي كان يردها أهل غانة. وقد كـان للأسـلام وأهلـه مكانة وإحترام كبير لدى ملوك غانة فسكنت جالية كبـيرة مـن المسلمين عاصمـة غانـة وكان لهم بها مساجد وفيها فقهاء وحملة علم[3].

لقد غرس هؤلاء الدعاة البذور الأولى للإسلام في السودان الغربي.

وإلى جانب مملكة غانة كانت هناك دول أخـرى مثـل دولـة التكـرور في حـوض السنغال التي أسلم ملكها وارجابي بن رابيس في مطلع القرن الخامس الهجري علـى يـد هؤلاء الدعاة التجار وقد أقام وارجابي (ت٤٣٢هـ) شرائع الإسلام وحمل رعايـــاه عليها

---

(١) ابراهيم طرخان: امبراطورية غانة الإسلامية ص ٢٢ J.Ki - Zerbo: Histoire de L'Afrique Noire P.107

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٩٨.

(٣) لقد اختلف المؤرخون حول موضع عاصمة غانة واسمها وأقرب الإحتمالات أن موقع عاصمـة غانـة هـو المكـان المسـمى اليـوم كومبى صالح والواقع في المنطقة الشرقية من موريتانيا إلى الجنوب من مدينة تنبدغة وقد أخطأ إبراهيم طرخان (امبراطورية غانة ص ٣٣) عندما جعلها في دولة مالي الحالية. وقد ذهب عدد ممن المؤرخين:

- Delafosse, M.: Ghana & Mali et l'EMPLACEMENT de leurs capitales B.C.E.H.S. 1924 P.379.
- Desire - Vuiliemen: Les Capitales de l'oust African villes mortes at capitales de Jadis.
- J.Ki - ZERBO: Histoire de L'Afrique Norire P.111.

إلى أن عاصمة غانة تحمل نفس الإسم الذي أطلق على الإمبراطورية.

وحقق بصائرهم فيها[١]. ولم يكتف هذا الملك التكروري بهذا بل حمل دعوة الإسلام إلى الممالك المجاورة فأسلم أهل سلي على يديه[٢].

ويبدو أن ملوك التكرور كانوا على إسلام صحيح ومنهج قويم بدليل تحالفهم مع دولة المرابطين من أول وهلة من قيامها. فقد ذكرت المصادر أن ملك التكرور لبي بن وارجابي نهض لمساندة الأمير يحي بن عمر اللمتوني لما حاصر جدالة سنة ٤٤٨هـ[٣].

إلا أن إنتشار الإسلام في السودان الغربي ظل محدوداً إلى أن حملت لواء نشره حركة المرابطين التي تكونت في المنطقة المحاذية للسودان الغربي.

ولئن كان إهتمام الإمام عبد الله بن ياسين بالجنوب محدوداً فإن الأمير أبا بكر بن عمر أعطاه جل اهتمامه وحيزاً مهما من حياته. فقد جاهد في السودان الغربي عندما عاد إلى الصحراء عودته الأولى سنة ٤٥٤هـ لحل مشاكل قبائلها واستمر جهاده إلى سنة ٤٦٤هـ ثم عاد من جديد إلى صحراء الملثمين سنة ٤٦٥هـ ليتفرغ كلياً للجهاد ونشر دين الله في منطقة السودان الغربي.

إن مما يؤسف له أن المؤرخين لم يهتموا كثيراً بنقل تفاصيل جهاد الأمير أبي بكر بن عمر بل اكتفوا بالإشارة إليه إشارة عابرة غير دقيقة في أغلبها.

أمضى الأمير أبو بكر بن عمر خمسة عشر عاماً في الجهاد احتل خلالها الكثير من الأراضي التابعة للدولة الغانية. وكان أهل هذه المناطق يخيرون بين دخول الإسلام أو دفع الجزية. وقد توجت جهود الأمير أبي بكر بن عمر بسقوط دولة غانة بيد المرابطين سنة ٤٦٩هـ[٤]. وقد اعتنق ملك غانة الإسلام فأبقاه الأمير أبو بكر في ملكه تابعاً

---

[١] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٦٨.

[٢] المصدر السابق: نفس الصفحة.

[٣] البكري: المصدر السابق ص ٨٦٢.

[٤] ابراهيم طرخان: امبراطورية غانة الإسلامية ص ٥٣. J.Cuoq: Histoire de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest P.42.

للمرابطين[١] . وقد وصلت فتوحات الأمير أبي بكر إلى مناطق واسعة فاحتل المرابطون مناجم الذهب من بلاد السودان[٢] .

ولأن نزحت بعض القبائل الزنجية من مواضع تواجدها وانحازت جنوباً[٣] فقد اندمجت الأغلبية عن طريق اسلامها وكونت أمة واحدة في اطار الدولة المرابطية وأصبحوا شركاء مع الملثمين في هذه الدولة[٤] .

لقد كان للعلماء دور كبير في نشر الإسلام في ربوع السودان الغربي وتعميق معارف أهله بالإسلام. ولعل أشهر من قام بهذا الدور في فترة الأمير أبي بكر هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي الذي اصطفاه الأمير أبو بكر بعد موت الإمام عبد الله بن ياسين. وقد انتقل الإمام المرادي مع الأمير أبي بكر إلى صحراء الملثمين.

لقد كان الإمام المرادي بمثابة المعلم الثاني للمرابطين بعد ابن ياسين. فقد كان قاضياً بمدينة أزوكي بالصحراء وداعية ومؤلفاً[٥] . لقد كان المرادي مثل أسلافه من علماء ودعاة الدولة المرابطية متشبثاً بالمهمة التي اضطلع بها وهي الدعوة إلى الله على بصيرة. فلقد ظل يؤدي واجبه بعد وفاة أميره أبي بكر ولم يفارق الصحراء إلى أن توفي بها سنة ٤٨٩هـ[٦] .

---

(١) J.KIZERBO : Histoire de L'Afrique Noire P.111.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٥ ؛

(٣) - DELA Chapelle: Esquisse d'une Histoire du sahara P.64

(٤) - J. Cuoq : op. cit P.43.

(٥) لم نجد في ما بين أيدينا من تراجم للمرادي ذكر لمؤلفات سوى كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" الذي سنتحدث عنه بتفصيل أكبر في الفصل التالي.

(٦) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٧٢ ؛ ابن الزيات: التشوق إلى رجال التصوف ص ١٠٦ العباس بن ابراهيم: الأعلام ج٤ ص ١٢.

ظل الأمير أبو بكر بن عمر يجاهد في ا لله بالقول والعمل إلى أن استشهد[١] سنة ٤٨٠هـ[٢] . وقد دفن الأمير أبو بكر بموضع استشهاده وهو المقسم[٣] بأرض تكانت في موريتانيا.

إنها الشهادة التي كان يسعى إليها ويرجوها الأمير أبو بكر بعد عمر قضاه في سبيل ا لله باذلاً في ذلك النفس والنفيس. وكانت نتيجة هذا الجهد المتواصل المخلص دولة كبرى تمتد من أعماق السودان إلى البحر المتوسط قائمة على الحق ساعية إلى نشره.

ومع موت الأمير أبي بكر بن عمر كانت الدولة المرابطية قد ترسخت ففي الشمال في المغرب الأقصى كان الأمير يوسف بن تاشفين الذي يعتبر بجدارة المؤسس الثاني لدولة المرابطين بعد المؤسسين الأوائل الإمام عبد ا لله بن ياسين ويحي بن إبراهيم والأمير أبي بكر بن عمر ، كان يوسف قد واصل الفتوحات فأخضع قبائل زناتة لحكمه وأصبح الأمير يوسف بن تاشفين سيد المغرب المطلق بلا منازع وقد قام الأمير يوسف ببناء مراكش وجعلها عاصمة المرابطين وكان الحدث الأهم الذي تميزت به السنوات القليلة التي أعقبت انصراف الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء هو إجتماع أشياخ

---

[١] كان سبب إستشهاده أن أحد زعماء قبائل الموسى الوثنية أرسل بعض أتباعه إلى منطقة تكانت ومعه السحرة والأدلاء لاغتيال زعيم المرابطين الذي "أتى بعقيدة تسخر من السحر وقوى الطبيعة التي كانوا يعبدون" وقد تمكن أحد هؤلاء من إصابة أبي بكر بسهم مسموم رماه به وهو قائم يصلي فقتله (محمد أحمد الغربي: موريتانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ص ٩٢ ؛ J.Kizerbo: OP. cit. P118.)

[٢] لقد اختلف المؤرخون في سنة استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر فقد ذكر ابن عذارى (البيان المغرب ج٤ ص ٢٦) وصاحب الحلل الموشية (ص٢٨) أن وفاته كانت سنة ٤٦٨هـ في حين أتفق كل من ابن أبي زرع (روض القرطاس ص١٣٥) وابن خلدون (العبر ج٦ ص ٣٧٧) والناصري (الاستقصا ج٢ ص ٢٤) على أن وفاته كانت سنة ٤٨٠هـ ومما يرجح هذه الرواية أن السكة استمرت تضرب باسم الأمير أبي بكر إلى سنة ٤٨٠هـ. J.Ki - Zerbo: op. cit P.118.

[٣] المقسم: ويسمى أيضاً البيبة موضع بوسط موريتانيا الحالية يقع إلى الجنوب من مدينة تجكجة على بعد ٥٥ كيلو متر (أحمد بن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ط. الرابعة ص ٤٤٧)

المرابطين ووجوه قبائل المغرب واقنعوا يوسف بإتخاذ لقـب جديـد[١] وأتفـق في النهايـة معهم على أن يكـــــون لقبه أمير المسلـــــمين وناصر الدين[٢] وكان ذلك سـنة ٤٦٦هـ[٣] .

إن إتخاذ يوسف بن تاشفين لهذا اللقب هو إيذان بإنتهاء مرحلة وإبتداء مرحلـة أخرى ، إنتهاء مرحلة التأسيس والقيام وإبتداء مرحلة عظمة الدولة وتوسعها وسعيها إلى لعب دور المنقذ في منطقتها المضطربة والمليئة بالأزمات. إن هذا الصرح العظيم الذي وحد في هذا الوقت المغرب الأقصى سياسياً لأول مرة في تاريخه ووحده أيضاً مذهبياً ولأول مرة أيضاً وهذا التوحيد الأخير هو الذي سنتعرض له في الفصل التالي.

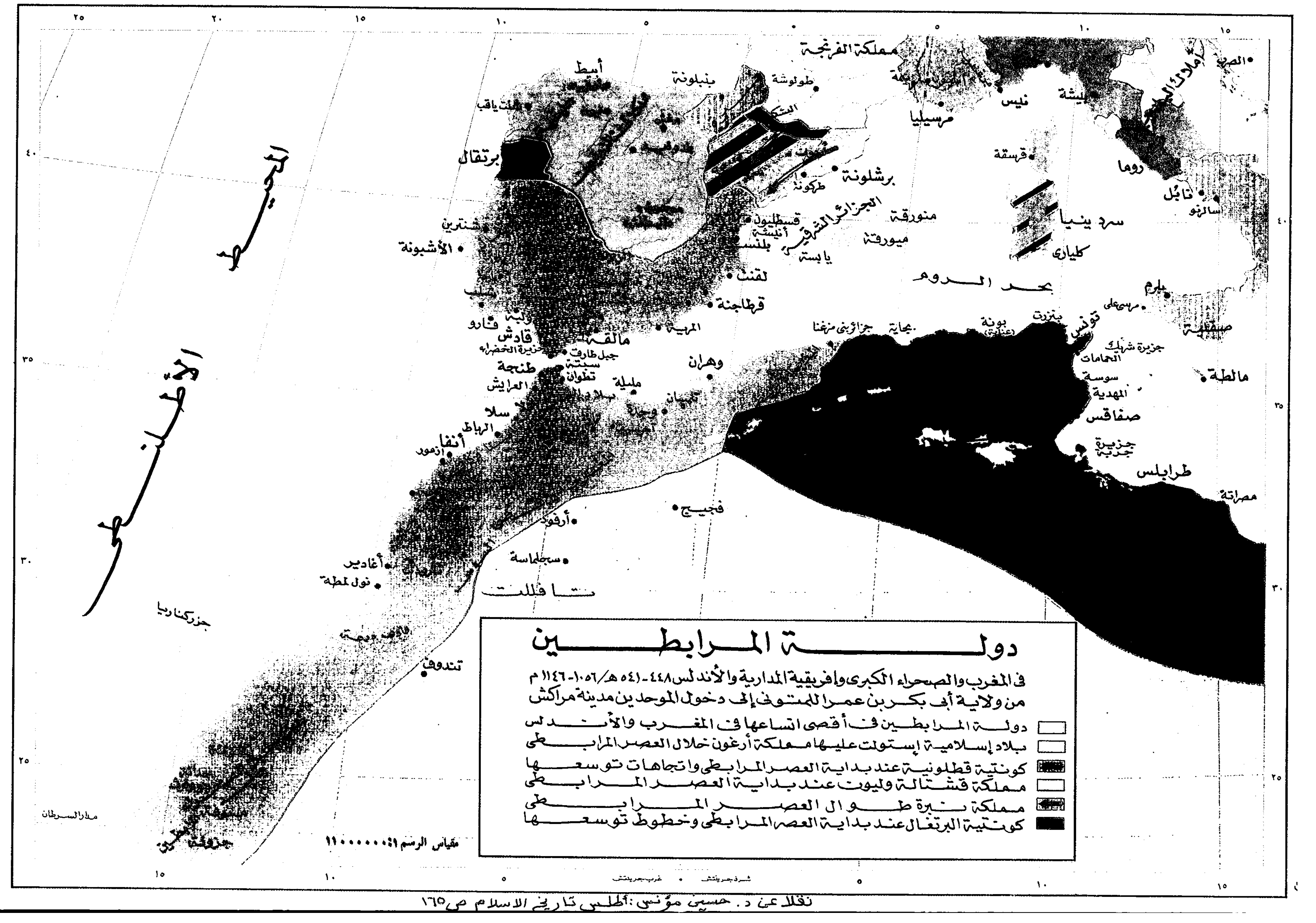
وكما كان فضل العلماء ظاهراً وسابغاً في قيام دولـة المرابطـين وتوحيدهـا لأجـزاء المغرب الأقصى فسنرى في الفصل التالي أنهم بذلوا نفـس الجهـد مـن أجـل توحيـد هـذا الكيان المرابطي ضمن مذهب فقهي وعقائدي واحد.

---

[١] يذكر كل من ابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص ٢٧ – ٢٨) وصاحب الحلل الموشية (ص ٢٩) أن شيوخ المرابطين ووجهاء الدولة عرضوا على يوسف أن يتخذ لقب أمير المؤمنين فقال لهم: حاشا لله أن أتسمى بهذا الإسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وإنما أنا رجلهم والقائم بدعوتهم في بلاد الغرب.

[٢] ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٢٨ ؛ الحلل الموشية: ص ٢٩.

[٣] لقد اختلف المؤرخون حول السنة التي اتخذ فيها يوسف لقب أمير المسلمين وناصر الدين فقـد ذكـر صـاحب الحلـل (ص ٢٩) وابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص ٢٧) أن ذلك كان في سنة ٤٦٦هـ في حين ذكر ابن أبـي زرع (روض القرطـاس ص ١٤٩) أن يوسف بن تاشفين تسمى بأمير المسـلمين يـوم إنتصـار الزلاقـة عـام ٤٧٩هـ إلا أن تـاريخ ٤٦٦هـ الـذي أورده ابـن عـذاري وصاحب الحلل الموشية أقرب إلى الصواب بدليل أن المعتمد بن عباد لما راسل يوسف ليستغيث به ضـد ملـك النصـارى اذ فونـش بداية ٤٧٩هـ كان يخاطبه بأمير المسلمين (الحلل الموشية: ص ٤٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج٢ ص ٧٢٢).



نقلا عن د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الاسلام ص١٦٥

الفصل الثاني:

أثر العلماء في الإتجاه الفكري للدولة

لكي تقوم الدول والمجتمعات وتتوطد ، لابد لهـا مـن مذهـب يسوسـها ويحكم تصرفات أفرادها في ما بينهم ، وفي ما بينهم وبين حكامهم ليحـول دون جنـوح الحكـام إلى الظلم والفساد. وذلك حتى تصل إلى أهدافهـا وغاياتهـا. ولمـا كـانت دولـة المرابطـين تهدف لتحقيق شرع الله اختار مؤسسوها وهم من العلماء ، مذهباً فقهياً وعقائدياً لترتكز عليه دولتهم ، سعياً منهم لتحقيق هدفهم.

١- المذهب الفقهي للمرابطين

في مطلع القرن الخامس الهجري كان المغرب الأقصى يعج بـالمذاهب والنحـل ، كما أشرنا إلى ذلك سالفاً. فهناك مذهب الشيعة والخوارج والنحـل الضالـة. وإلى جـانب ذلك مذهب مالك في بعض الحواضر والرباطات العلمية مثل رباط الفقيه وجـاج بـن زولـو اللمطي في السوس الأقصى الذي تتلمذ على شيوخ المالكية في القيروان[١] .

على أن الإضطرابات السياسية في عهد الزناتيين (٣٦٨هـ - ٤٦٢هـ) لم تمكـن من ظهور علماء كثيرين في المغرب الأقصـى ، كمـا أنهـا أدت إلى رحيـل مـن وجـد مـن العلماء.

فقد أضطر الفقيه أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) إلى النزوح عن وطنه فاس بسبب العنت الذي لقيه على يد عمال مغراوة الزناتيين[٢] .

لقد كان من نتائج حال المغرب الأقصى تلك أن تأخر بالنسبة لجيرانـه في ولـوج ميدان العلم. لذا فعندما هب للحاق بالركب وجد العلم قـد مـر بـأطوار ونضـج وأكتسـب كثيراً من الوثوقية الشيء الذي لم يبق معه إمكان لمراجعة الأصول والمسلمات.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٢ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ٢٠ ؛ ابن الزيات: التشوف ص ٨٩.

(٢) مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص ٤٤ - ٤٥.

فكان على أهل المغرب الأقصى أن يأخذوا البضاعة العلمية جاهزة وقد اعتورتها أيدي العلماء من أصقاع مختلفة[١].

إن الإختيار بين تلك البضاعة الفقهية هو الدور الذي قام به العلماء المؤسسون للدولة المرابطية. فوقع اختيارهم على المذهب المالكي ليكون المذهب الفقهي للدولة.

إن مؤسسي الدولة المرابطية هم في المقام الأول علماء درسوا العلم في القيروان وقرطبة[٢] ، فنهلوا من العلوم التي كانت سائدة فيها.

كانت تلك الحواضر في مطلع القرن الخامس الهجري قلاعاً من قلاع المالكية منذ أمد ، فكان من الطبيعي أن يتخرج أمثال: أبو عمران الفاسي ووجاج وعبد الله بن ياسين مشبعين بالفقه المالكي.

إن الأسباب التي دعت أهل القيروان والأندلس إلى إتخاذ المذهب المالكي هي في مجملها نفس الأسباب التي حملت أهل المغرب الأقصى ممثلين في المرابطين إلى إتخاذ المذهب المالكي والتمسك به. ومن هذه الأسباب:

١- أن إنتماء مالك للمدينة المنورة: مركز الإسلام وعاصمة الرسول عليه الصلاة والسلام والراشدين من بعده ، جعل المغاربة ينظرون إليه من زاوية خاصة. فأعجبوا بعلمه وفضله واقتنعوا أنه أقرب إلى حقيقة الشريعة من فقهاء العراق والشام أو غيرهم.

٢- للأثر الوارد في عالم المدينة وهو قوله عليه الصلاة والسلام: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة[٣].

---

[١] عبد الله كنون: النبوغ المغربي ص ٥٢ ؛ عبد الله التواتي: الثقافة المغربية قبل عهد المرابطين ، مجلة الثقافة ، العدد رقم ٧ ص ١٢١.

[٢] لقد كانت للإمام عبد الله بن ياسين رحلة علمية إلى قرطبة (ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ١٠) ولم تذكر المصادر تاريخ تلك الرحلة بل اكتفى ابن عذاري بالقول أنها في عهد أمراء الطوائف مما يعني أنها في مطلع القرن الخامس.

[٣] الإمام أحمد بن حنبل: المسند ج٢ ، الطبعة الأولى ١٩٦٩م ، نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ودار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ص ٢٩٩ ، الترمذي: الجامع الصحيح (مع شرح تحفة الأحوذي للمباركفوري) ج٣ ، د.ت. نشر دار الكتاب العربي بيروت ص ٣٨٠ ، الحافظ النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج١ ، الطبعة الأولى ١٩٦٨ ، الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة الرياض ص ٩٠ - ٩١ ؛ عياض: المدارك ج١ ص ٦٨ - ٦٩.

٣- أن رحلة المغاربة كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك فرجع إليه أهل المغرب وقلدوه دون غيره[١] .

وقد تعددت الرحلة من المغرب إلى الحجاز للأخذ عن إمام دار الهجرة ، فرحل إليه علماء سجلماسة التي روى "أن أحد الأعلام بها أخذ عن الإمام مالك بالمدينة ثم رجع إلى سجلماسة ودرس العلوم بها[٢] "

كما رحل إليها كثير من فقهاء حواضر المغرب الأخرى كالقيروان والأندلس وأخذوا مباشرة عن مالك بن أنس نذكر منهم على سبيل المثال: البهلول بن راشد وعلي بن زياد وأبو مسعود بن أشرس وعبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم وغيرهم.

وبالإضافة إلى هذا السبب فقد شكل إستقرار بعض أئمة المالكية في مصر حافزاً لأهل المغرب للأخذ بهذا المذهب. فقد كانت مصر أقرب حواضر العلم إلى المغرب كما أنها طريقهم في الحج[٣] .

٤- طبيعة المذهب المالكي نفسه: فهو لا يقوم على الرأي والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الأثر والرواية. هذا بالإضافة إلى واقعيته القائمة على إعتماد عمل أهل المدينة بإعتباره نوعاً من الإجماع[٤] . فهو بهذا يميل إلى البساطة واليسر وإلى السهولة والوضوح وإلى الواقعية والعمل الملموس.

إن طبيعة المذهب المالكي هذه كانت توافق طبائع أهل المغرب لذا لم يجد المرابطون عنتاً كبيراً في إقراره والعمل به.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص ١٣٢.

(٢) ادريس العلوي: الدرر البهية ج١ ص ٦٣.

(٣) ابراهيم حركات: تاريخ المغرب ص ١٩٣.

(٤) عياض: ترتيب المدارك ج١ ص ٤٧ ؛ ابراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ص ١٢٠ ؛ عباس الجراري: أسباب إنتشار المذهب المالكي ص ١٩٤ (ندوة الإمام مالك ج١).

إن العلماء المرابطين قد وضعوا بإختيارهم للمذهب المالكي كمذهب رسمي لدولتهم – إطاراً جديداً للإنتماء سوف يشكل مع الزمن نوعاً من الهوية لأهل المغرب[١]. وسوف يصبح المذهب المالكي منذ الخطوة المرابطية هذه جزءاً من المكونات العميقة لشخصية أهل هذا المنطقة[٢].

إن العلماء بجعلهم المذهب المالكي المذهب الرسمي للدولة لم يكونوا بدعاً في ذلك بل كانوا تبعاً في هذه العادة ولعل أبرزها إتخاذ دولة الخلاقة العباسية المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لها[٣] ولم يكتف المرابطون بجعل المذهب المالكي مذهباً رسمياً بقرار من السلطة الحاكمة بل سعوا إلى جعله إختياراً علمياً مدعوماً بالحجج والبراهين يصمد أمام آلية النقد.

فألفوا الكتب في مناقب الإمام مالك وأصحابه وبينوا فضل مذهب مالك وحجيته ولعل أبرز مثال على ذلك هو الجهد الموسوعي الذي قام به القاضي عياض[٤] بتأليفه كتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"[٥].

فالقاضي عياض في هذا الكتاب يرغب في المذهب المالكي بنشر فضائله وعرض محاسن إمامه الإمام مالك بن أنس ومحاسن أصحابه من بعده ، وإظهار ما خصهم الله به من الأوصاف الحميدة والآراء السديدة ، لأنه "حق على طالب العلم ، ومريد تعرف الصواب والحق أن يعرف أولى الأئمة بالتقليد ليعتمد على مذهبه ويسلك في التفقه سبيله.

---

[١] محمد زنيبر: إتجاه عياض الفكري (المناهل العدد ١٩ ص ٤١٦) ؛ محمد عبد القادر السلاوي: دور عياض في توطيد المذهب المالكي في المغرب (دورة القاضي عياض ج١ ص ١٥٣).

[٢] عباس الجراري: أسباب إنتشار المذهب المالكي في المغرب (ندوة الإمام مالك ج١ ص ١٧٧).

[٣] ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص ١٩٤.

[٤] القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ) أحد أعلام المذهب المالكي وأبرز علماء المغرب في العهد المرابطي تولى القضاء في سبتة وغرناطة له مؤلفات مشهورة تدل على علمه منها كتاب: الشفاء ، وكتاب المدارك ، وغيرها كثير (محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض).

[٥] طبع كتاب المدارك أكثر من مرة ولعل أكملها تلك التي أشرفت على طباعتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط ، في ٨ أجزاء تاريخ آخرها سنة ١٤٠٣هـ.

وها نحن نبين أن مالكاً هو ذاك ، لجمعه أدوات الإمامة وتحصيله درجة الإجتهاد وكونه أعلم القوم بل أهل زمانه"[١] .

والقاضي عياض في إحتجاجه لمذهب مالك يثبت مزايا الأئمة الآخرين ولا ينكرها ، ولكنه يؤكد أن مالكاً جمع مالم يجمعه غيره. وحاز قصب السبق[٢] .

لم يكن العمل الذي قام به علماء المرابطون بتوحيد أهل دولتهم على مذهب واحد بالذي يرضي أعداءهم ومناوئيهم فاعتبروا هذا العمل مما يحسب سلباً لا إيجاباً على العلماء المالكيين وكان أول المنددين المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب: فقد أعتبر أن إقرار المذهب المالكي جعل طلبة العلم يهتمون بالفروع ويهملون الكتاب والسنة "فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع ، اعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمن كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٣] وقد تلقف تلك التهمة بعض من المستشرقين من أمثال دوزي وألفريد بل الذي يقول: "وانحطاط الدراسات الدينية سواءً فيما يتعلق بالعقيدة وبالشريعة ؛ على يد الفقهاء المالكيين بمساندة حكومة المرابطين ؛ كان مما يتلاءم مع سكان المغرب الإسلامي"[٤] .

ولنا أن نتساءل هل كان المرابطون وعلماؤهم فروعيين لا يفقهون آية ولا حديثا؟ إن إلقاء نظرة فاحصة على كتب التراجم في عهد المرابطين تجعل الباحث يصل إلى نتيجة معاكسة لما توصل إليه عبد الواحد المراكشي. لقد انتشر في العهد المرابطي طلب العلم بعامة والحديث والقرآن بخاصة فقد اشتهر كثير من أهل الحديث وأئمة علوم القرآن وأخذ عنهم ألوف الطلاب.

---

[١] عياض: المدارك ج١ ص ٦٧.

[٢] نفس المصدر السابق ج١ ص ٤٢.

[٣] المعجب: ص ٢٥٤.

[٤] الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي: ص ٢٤٢ ؛ آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢٠-٢١.

إذ كيف يكون النظر في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مهجوراً وطلبة شيخ واحد من شيوخ الحديث في العهد المرابطي ممن استحق أن يترجم لهم أكثر من ثلاثمائة؟ فابن الأبار ألف كتاباً كاملاً ترجم فيه لثلاثمائة وخمسة عشر من طلبة الإمام أبي علي الصدفي[١] . وهذا العدد ، من غير شك ، إنما هو عدد لبعض المشاهير أما من هم دون هؤلاء في الشهرة فأعداد لا تحصى. ويلخص ابن بشكوال تلك الكثرة بقوله عن الإمام أبي علي الصدفي "قصد مرسية فاستوطنها فرحل الناس من البلدان إليه وكثر سماعهم عليه"[٢] .

وطلب الحديث لم يقتصر على طلبة العلم من عوام الناس ، بل ان إفراد البيت المرابطي الحاكم كانوا ممن اشتهر بطلب الحديث والإعتناء به وأخذه عن شيوخه المعتبرين.

فالأمير ميمون بن ياسين اللمتوني (ت٥٣٠هـ) كان ممن عني بالرواية والسماع وله رحلة حج فيها عام ٤٨٢هـ فسمع صحيح البخاري وصحيح مسلم ولما رجع من رحلته حدث بما رواه فسمع منه الناس باشبيليه وغيرها. وقد أخذ عنه أعلام من أهل الأندلس[٣] . وهناك الأمير منصور بن الحاج داوود بن عمر أحد رؤساء لمتونة الذي سمع من أبي محمد بن عتاب وأبي علي الصدفي بمرسية ، وقد نبغ في معرفة الأخبار والسنن والآثار واجتمع له في الدواوين والأصول الشيء الكثير[٤].

وبرع الأمير أبو بكر الصنهاجي في العلم وتبحر فيه[٥] . وكان هذا الإعتناء بالحديث عاماً في البيت الحاكم المرابطي فأمير المسلمين علي بن يوسف استجاز

---

(١) ألف ابن الآبار كتاباً سماه "معجم أصحاب أبي علي الصدفي" وهو مطبوع ومن أواخر هذه الطبعات طبعة بتحقيق ابراهيم الإبياري نشر دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٨٩.

(٢) الصلة: ج١ ص ٢٣٦.

(٣) ابن الآبار: التكملة ج٢ ص ٦١٦.

(٤) نفس المصدر السابق: ج١ ص ١٦٣.

(٥) Levi - Provencal: INSCRIPTION Arabes d'Espagne P.123.

أبا عبد الله محمد الخولاني جميع مروياته لعلو سنده فأجازه[١] .

إن طلب الحديث لم يكن نافلة بل كان للعمل به ، فهذا قاضي الحضرة بمراكش أبو محمد عبد الله بن اسماعيل الأشبيلي قال عنه ابن بشكوال: أنه كان يميل في فقهه إلى النظر وإتباع الحديث[٢] . وقد ظل الأشبيلي قاضياً ليوسف بن تاشفين إلى أن توفي سنة ٤٩٧هـ.

أما أعلام المحدثين في العهد المرابطي فهم أكثر من أن يحصو ونكتفي بذكر نماذج منهم ، ممن أضحوا فخراً للأندلس والمغرب. فمن هؤلاء أبو علي الحسين الجياني (ت٤٩٨هـ) الحافظ الحجة محدث الأندلس في زمانه. يقول عنه تلميذه أبو الحسن بن مغيث: "كان من أكمل من رأيت علماً بالحديث ومعرفة بطرقه وحفظاً لرجاله جمع من سعة الرواية مالم يجمعه أحد أدركناه"[٣] .

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن حسين التميمي السبتي (ت٥٠٥هـ) ، والقاضي أبي بكر العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) الذي رحل إلى المشرق واستغرقت رحلته نحواً من أحد عشر عاماً رجع بعدها إلى الأندلس بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة ، فكان "خاتمة علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها" على حد تعبير تلميذه ابن بشكوال[٤] . والقاضي أبو بكر دون شك من أكبر علماء الأندلس قاطبة[٥] .

---

[١] ابن الآبار: التكملة ج٢ ص ٥٦.

[٢] الصلة: ج٢ ص ٤٣٩.

[٣] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٢٣٣.

[٤] الصلة: ج٣ ص ٨٥٦.

[٥] الفتح بن خاقان: مطمع الأنفس ص ٢٩٧ ؛ الضبي: بغية الملتمس ص ٩٢ ؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٥ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٩٦ ؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص ٢٥.

ومن هؤلاء المحدثين الكبار: القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) الذي أجمع أهل العلم ، ممن جاء بعده ، على تقدمه في علمي الرواية والدراية[1] . فكان "لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد آثاره"[2] ان آثار القاضي عياض الحديثية تدل على تبحره في هذا العلم وتفوقه فيه. ومن هذه الآثار كتاب "مشارق الأنوار على صحاح الآثار"[3] وله كتاب "الألماع في ضبط الرواية وتقييد السماع"[4] ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب جامع في علم الحديث لعالم من أهل المغرب الأقصى. وقد أضحى هذا الكتاب معتمد المؤلفين في مصطلح الحديث من بعده مثل ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ)[٥] والعراقي (ت٨٠٦هـ)[٦] وابن حجر (ت٨٥٢هـ)[٧]

---

[1] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٦٦٠ ؛ الضبي: بغية الملتمس ص ٥٧٢ ؛ ابن الآبار: معجم أصحاب الصدفي ص ٢٩٦ ؛ وقد ألف ولده محمد كتاباً عنه سماه "التعريف بالقاضي عياض" كما ألف أحمد المقري (ت١٠٤١هـ) كتاباً عن سيرته بعنوان "أزهار الرياض في أخبار عياض" وكلا الكتابين مطبوع وقد طبع الكتاب الأول بالرباط بتحقيق محمد بن شريفة ونشرته وزارة الأوقاف المغربية (د.ت) أما الثاني فقد طبع في المغرب مرتين أخراهما سنة ١٩٨٠.

[2] ابن الأبار: معجم أصحاب الصدفي ص ٢٩٦.

[3] طبع مرتين أحدهما سنة ١٣٢٨هـ والثانية تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط (١٤٠٢ - ١٤٠٨هـ) في ثلاثة أجزاء. وقد قال ابن فرحون عن هذا الكتاب: "لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلاً في حقه (الديباج المذهبج٢ ص٤٩).

[4] طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر عن دار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٠.

[٥] تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح (ت٦٤٣هـ) محدث ، مفسر ، أصولي ، أفتى بدمشق وتوفي فيها. له عدة مؤلفات منها كتاب "مشكل الوسيط" و "الفتاوي" و "معرفة أنواع علم الحديث" يعرف بمقدمة ابن الصلاح (الزركلي: الأعلام ج٤ ص ٢٠٧).

[٦] الحافظ عبد الرحيم العراقي (ت٨٠٦هـ) فقيه شافعي وقف جهده على الحديث حتى كان العلم الشامخ فيه من مؤلفاته "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار" و "الألفية" في مصطلح الحديث و "الألفية" في غريب القرآن وغيرها (الزركلي: الأعلام ج٣ ص ٣٤٤).

[٧] أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) من أئمة العلم والمبرزين فيه ولد في القاهرة وبها توفي. له تصانيف كثيرة منها: "الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة" أربع مجلدات مطبوع ، و"لسان الميزان" ٦ أجزاء مطبوع ؛ غير أن أشهر كتبه هو كتاب "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" وقد طبع عدة مرات (الزراكلي: الأعلام ج١ ص ١٧٨).

والسيوطي (ت٩١١هـ)[١] .

ولعل أشهر محدث عرفه هذا العصر المرابطي هو القاضي الشهيد أبو علي الحسين بن محمد الصدفي (ت٥١٤هـ)[٢] فهو إمام المحدثين بالأندلس. كتب بيده علماً كثيراً وكان حافظاً لمصنفات الحديث قائماً عليها ، ذاكراً لمتونها وأساليبها ورواياتها[٣] . وكان ممن رحل إلى المشرق فأخذ عن أهله وعند رجوعه إلى الأندلس أقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب. وأخذ عنه الجم الغفير منهم. وقد تفرغ أبو علي لنشر العلم وبثه بعد أن استعفى من قضاء مرسية بعد أن سار فيه سيرة فضحت من كان قبله وأتعبت من جاء بعده[٤] على حد تعبير ابن عطية.

ومن هؤلاء الأعلام المحدثين عبد الله بن علي الرشاطي (ت٥٤٢هـ) صاحب كتاب "الأعلام بما في كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني من أوهام"[٥] وعلي بن النعمة الأنصاري المري (ت٥٦٧هـ) صاحب كتاب "الإمعان في شرح مصنف النسائي"[٦] . وعبد الله بن عيسى الشيباني (ت٥٣٠هـ) الذي كان يحفظ البخاري وسنن أبي داوود عن ظهر قلب[٧] .

إن هذه الأعداد الكثيرة من المحدثين وطلبة علم الحديث لتدل دليلاً قاطعاً على أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يهجر بل كان الإقبال عليه كبيراً عكس

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف منها "الإتقان في علوم القرآن" "الإشباه والنظائر" "تاريخ الخلفاء" ، (الزركلي: الأعلام ج٣ ص ٣٠١).

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٢٣٥ ؛ الضبي: بغية الملتمس ص ٣٥٣ ؛ المقري: نفح الطيب ج٢ ص ٩٠ المقري: أزهار الرياض ج٣ ص ١٥١ ؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ج١ ص ١٢٨ وغيرهم كثير.

(٣) إبراهيم الأبياري: مقدمة المعجم في أصحاب القاضي الصدفي لابن الأبار ص ٩ ؛ حسين مؤنس: شيوخ العصر ص ٩٢.

(٤) ابن عطية: الفهرست ص ٧٥.

(٥) الضبي: بغية الملتمس ص ٤٥٢.

(٦) الضبي: بغية الملتمس ص ٥٥٢.

(٧) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٤٤٧.

ما يزعم عبد الواحد المراكشي ومن تبعه[١] .

والعلماء المالكيون كان كل سعيهم وهدفهم إنتشار العلم وأن تكون دولة المرابطين دولة علم ودين. وقد أضحت بالفعل كذلك لأنها تأسست على أيدي أهل العلم. وظل البيت المرابطي بيت علم ومأوى للعلم وأهله.

أما الإعتناء بالقرآن الكريم فلا يحتاج إلى إستدلال لأن كتاب الله هو الأساس الذي يقوم عليه كل علم. فلا يمكن أن يوصف أحد بصفة العلم ، وخصوصاً في تلك العصور ، مالم يكن من أهل القرآن. فالطالب المبتديء لابد أن يبدأ بحفظ القرآن وتجويده ليتجه بعد ذلك إلى الفنون الأخرى[٢] وقد ازدهر علم القراءات في عهد المرابطين ونبغ فيه علماء أعلام منهم أبو عبد الله محمد بن سعيد المقري (ت٥٤٧هـ) المعروف بابن غلام الفرس. وكان من أمهر مجودي القرآن ومتقنيه "وانتهت إليه الرئاسة في معرفة القراءات"[٣] .

ومن هؤلاء الأعلام أحمد بن خلف المعروف بابن الباذش (ت٥٤٠هـ) صاحب طتاب "الإقناع" و"الطرق المتداولة" وهما من الكتب المهمة في القراءات[٤] . وقد صنف أبو الحسن محمد بن الطفيل العبدي المعروف بابن عظيمة (ت٥٤٣هـ) في القراءات وما يتعلق بها كتباً نافعة منها: "جالب الإفادة في مخارج الحروف" وله أرجوزة في القراءات السبع. وكانت إليه وإلى بنيه الرياسة في الإقراء[٥] .

ومن هؤلاء العلماء العالم الجليل والمقريء المجود أبو الحسن علي بن النعمة (٥٦٧هـ) الذي كان مفسراً محدثاً راوية حافظاً وفقيهاً مشاوراً بارعاً في علوم اللسان[٦] .

---

[١] من أمثال ألفرد بل في كتابه الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص ٢٤٠.

[٢] ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص ٢٣٨ ؛ عبد البديع الخولي: الفكر التربوي في الأندلس ص ١٦١.

[٣] ابن الأبار: التكملة ج٢ ص ٤٧٥.

[٤] ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص ١٩٠ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ١٩٤.

[٥] ابن الأبار: التكملة ج١ ص٤٤٥

[٦] ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر ٥ ق١ص ٢٢٦.

أما تفسير القرآن فقد نبغ فيه كثير من العلماء في عصر المرابطين. فاشتهر أبو القاسم أحمد بن عمر المعروف بابن ورد (ت٥٤٠هـ) الذي كان من جلة الفقهاء المفسرين المحدثين[١] . ولأبي محمد عبد الجليل المعروف بالقصري تفسير لكتاب الله[٢] . وللقاضي أبو بكر بن العربي المعافري كتاب في التفسير مشهور هو كتاب "أحكام القرآن"[٣] .

إلا أن أشهر مفسر في العصر المرابطي هو الإمام أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربي (ت٥١٤هـ)[٤] وهو أحد رجالات الأندلس الجامعين الفقه والحديث والتفسير والأدب. وكتابه في التفسير "المحرر الوجيز"[٥] كتاب جليل الفائدة اعتنى العلماء به كثيراً ولازموه طويلاً[٦] . وقد اعتمد عليه جماعة من المفسرين ممن جاءوا بعده[٧] .

إن هذه الأمثلة التي سردنا سابقاً لبعض العلماء المبرزين في علوم القرآن والتفسير والحديث لتدحض بشكل قاطع زعم عبد الواحد المراكشي أنه "نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٨] وتؤكد أن العلماء في هذا العصر

---

[١] ابن فرحون: م.س.ج١ ص ١٨٥ ؛ ابن الخطيب: م.س.ج١ ص ١٦٩.

[٢] ابن الزبير: صلة الصلة الترجمة رقم ٤٤ ص ٣٠.

[٣] طبع كتاب "أحكام القرآن" طبعتين الطبعة الأولى سنة ١٣٣١هـ مطبعة السعادة بمصر ، أما الثانية ففي سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م تحقيق البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

[٤] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٣٦٧ ؛ ابن خاقان: قلائد العقيان ص ٢٣٩ ؛ الضبي: بغية الملتمس ص ٣٧٦ ؛ ابن الأبار: المعجم في أصحاب ابن علي الصدفي ص ٢٦٥ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٩ ؛ .... وغيرهم.

[٥] طبع هذا التفسير في دولة قطر إبتداءً من سنة ١٩٧٧م.

[٦] من الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن فرحون عن عمه العالم عبد الله بن فرحون أنه قال: لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه (الديباج ج١ ص ٤٥٥).

[٧] لقد أخذ عنه جماعة منهم: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ) في كتابه "الجامع لأحكام القرآن" فقد أعتمد على كثير مما فيه ويظهر هذا الإعتماد منذ الصفحات الأولى من الكتاب ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ (ج١ ، الطبعة الثانية ١٩٥٢) كما أخذ عنه أبو حيان الغرناطي في تفسيره "البحر المحيط" (ج١ ص١٠) وممن أخذ عنه واعتمده من المحدثين محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره"التحرير والتنوير" (ج١ ص ١٤).

[٨] عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٥٤.

المرابطي نبغوا في كل علوم الإسلام وصاروا أئمة في كثير من ميادينها فلم يتعصبوا للفقه المالكي على حساب العلوم الأخرى.

٢- مذهب العلماء في الحكم في عهد المرابطين

لقد سعى العلماء في العهد المرابطي إلى جعل الدولة ذات منطلق ومرتكز ديني. لقد كان للعلماء من أمثال الإمام عبد الله بن ياسين والإمام محمد بن الحسن الحضرمي[١] رؤية خاصة لهوية الدولة التي يسعون إلى تحقيقها من خلال مباديء الإسلام ومعطيات الواقع. لقد كان الهدف والمبدأ هو وحدة ديار الإسلام تحت لواء قيادة الخلافة العباسية وكان الواقع هو إستحالة هذه الوحدة الشاملة في الظرف الحالي. ولتجاوز هذا الإشكال أعطى هؤلاء العلماء لدولتهم هدفاً وهوية يتمثل في الجهاد بمعناه الشامل من مدافعة للعدو إلى إقامة الحق الذي يعين ويهيء سبل تلك المدافعة. وقد عرف علماء الأحكام السلطانية مثل الفراء[٢] هذا النوع من الدول القائم على الجهاد والمعترف بسيادة الخلافة بأنه "إمارة يفوض الأمير جميع أحكامها ، ويتم التأكيد على تدبير الحرب كأحد أهم أحكامها"[٣] . فالعلماء إذا أرادوا أن يجعلوا من دولتهم المرابطية نسقاً سياسياً فرعياً تابعاً لدولة الخلافة[٤] . ولقد حصل أمراء المرابطين على التفويض من طرف الخلفاء العباسيين[٥] . وكدليل على هذه التبعية نقش الأمراء المرابطون إسم الخليفة العباسي على سكتهم واكتفوا بلقب أمير المسلمين[٦] .

---

[١] محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (ت٤٨٩هـ): فقيه ، أصولي ، متكلم (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٥٤٧).

[٢] محمد بن الحسين أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ) عالم أصولي له تصانيف كثيرة منها الأحكام السلطانية (ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ج٢ ص ١٩٣).

[٣] أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ، تحقيق محمد فقي ؛ الطبعة الثانية ص ٣٩ طبع شركة الحلبي ١٩٦٦.

[٤] ضريف محمد: تاريخ الفكر السياسي بالمغرب ص ٩٨.

[٥] إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص ١٨٦.

[٦] مجهول الحلل الموشية: ص ٥٠ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٨.

هكذا يغدو العلماء دعاة لوحدة الأمة في إطار دولة الخلافة من خلال إعتبارها نسقاً سياسياً مركزياً تدور في فلكه مجموعة الأنساق الفرعية أياً كان شكلها[١] .

إن هذه الدولة المجاهدة يراد لها أن تسعى إلى إقامة العدل الشامل في علاقة الحاكم والمحكومين إمتثالاً لقوله تعالى" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاىء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. . . ."[٢] .

"إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمنت إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. . ."[٣]

وقيمة العدل هي أساس القيم وقطب رحى التعامل والعلاقات بين البشر. لذا فقد سعى العلماء في دولة المرابطين إلى تحقيق العدل عن طريق نظم ثلاثة هي:

أ- **نظام البيعة:**

كانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة الأمير المرشح ثم يبايعه سادة لمتونة ثم سادة القبائل الأخرى ، حتى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة تلي عقد البيعة في المساجد وقرىء على الناس[٤] . ونظام البيعة من صميم أنظمة الحكم في الإسلام وأحد ركائزه. فهو نوع من البيع يبذل فيه الرعية السمع والطاعة لولي الأمر مقابل الرعاية وتطبيق العدل بمقتضى الشرع من طرف الحاكم.

ب- **أما النظام الثاني فهو نظام الشورى:**

الشورى مبدأ عظيم من مبادىء النظام الإسلامي في الحكم. يقول تعالى ، مخاطباً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، "وشاورهم في الأمر"[٥] والشورى من خصائص

---

[١] ضريف محمد: نفس المرجع السابق ص ٩٨.

[٢] سورة النحل: الآية ٩٠.

[٣] سورة النساء: الآية ٥٨.

[٤] حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ ؛ يوسف اسباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ص ١١٢.

[٥] سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

المجتمع المؤمن الصالح يقول تعالى: "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون"[١] وقد جعل الإمام الطرطوشي الشورى أساساً من أهم أسس الحكم فقال: "سياسة الملك ثلاثة: اللين وترك الفظاظة والمشاورة...."[٢]

ولقد سن العلماء القائمون على الدولة المرابطية العمل بالشورى فكانوا لا يقطعون أمراً ذا بال إلا بعد أن يستشيروا جماعة الحل والعقد من المرابطين. فالإمام عبد الله بن ياسين كان كثير المشورة لأصحابه ، رغم أنهم سامعون طائعون له ، ومن الأمثلة على ذلك أنه لما وردت على عبد الله بن ياسين رسل فقهاء سجلماسة ودرعة سنة ٤٤٧هـ يستنجدون به ويرغبون إليه الوصول إليهم لإزالة ما حل بهم من ظلم وجور ، قام عبد الله بن ياسين بجمع رؤساء المرابطين وقرأ عليهم كتب الإستغاثة وشاورهم في الأمر[٣] .

وقد سلك أمراء المرابطين منهج الشورى متأثرين في ذلك بالمنهج الذي رسمه لهم علماؤهم. وقد تكون في العهد المرابطي شبه مجلس للشورى يتكون أساساً من العلماء يستعين أمير المسلمين برأيهم في المهم من أمره لهذا كان يوسف بن تاشفين: "يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم..."[٤] .

جـ- أما النظام الثالث فهو نظام القضاء:

لقد أولى العلماء في العهد المرابطي القضاء من الرعاية ما يستحق. فحرصوا على إستقلاله وهيبته وسعوا لإقامة الحق مهما كلفهم ذلك. فارتفع قدر القضاء لما تولاه علماء أعلام من أمثال الإمام أبي الوليد محمد بن رشد (ت٥٢٠هـ) الذي تقلد القضاء بقرطبة فسار فيه بأحسن سيرة وأقوم طريقة[٥] ، وأبي علي الصدفي (ت٥١٤هـ) الذي تولى قضاء مرسية "فسار فيه سيرة فضحت من كان قبله وأتعبت من جاء بعده"[٦] والقاضي أبي بكر

---

[١] سورة الشورى: الآية ٣٨.

[٢] سراج الملوك: ص ٥٠.

[٣] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٧.

[٤] الحلل الموشية: ص ٨٢

[٥] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤٦ ؛ الضبي: بغية الملتمس ص ٤٠ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ٩٨.

[٦] عياض: المدارك ج٨ ص ١٩٣ ؛ ابن عطية: الفهرس ص ٧٤ ؛ ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ١٤٣.

بن العربي (ت٥٤٣هـ) الذي كان من أهل الشدة في الحق والقوة على الظالمين والرفق بالمساكين ، ولم يكن طريق الحق والإستقامة سهلاً. فقد لقي القاضي ابن العربي من الأذى الكثير فذكر أنه لما "أشتد الخطب على أهل الغصب وعظم على الفسقة الكرب تألبوا وألبوا وثاروا"[١] . فأحرقت مكتبته ونجا هو بصعوبة[٢] .

لقد منح المرابطون القضاة في دولتهم سلطات واسعة لا حدود لها. فالجميع أمام القاضي سواء ، وتشدد المرابطون في ذلك ، فكان يتكرر هذا الأمر في رسائلهم ، والتي تؤكد على الجميع بأن يخضع لحكم القاضي. ونرى هذا واضحاً في الرسالة التي وجهها الأمير علي بن يوسف إلى قاضي الجماعة بقرطبة ابي عبد الله بن حمدين إذ يقول له فيها: ".... وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ، ونحن أول وكلهم آخر ، سامعون منك غير معترضين في حق عليك . والعمال كافة سواء في الحق....."[٣] .

لقد تضافرت النظم السالفة فتحققت بها العدالة والأمن العام الذي اطمأنت به النفوس وتهيأت الظروف "للرخاء فانفسح الأمل"[٤] .

لم يكن المذهب المرابطي في الحكم مذهباً ظرفياً ، بل كان قاعدة ثابتة. لهذا نجد علماء المرابطين يحسون بعد وفاة الإمام عبد الله بن ياسين ، أن ما رسخه في الأذهان من مباديء قد يندثر وينسى بعد وفاة الجيل الأول من أهل الدولة. ونتيجة لذلك فقد ألفوا في سياسة الحكم ليسير عليها الكبير وينشأ عليها الصغير[٥] .

---

[١] العواصم: تحقيق د. عمار طالبي ج٢ ص ٤٠٠.

[٢] نفس المصدر والصفحة.

[٣] ابن بسام: الذخيرة القسم ٢ ص ١٠٦.

[٤] يرى الماوردي أن أهداف السلطة هي: تحقيق العدل الشامل بين بني البشر ، فالعدل موحد ومؤلف ثم الأمن العام الذي تطمئن إليه النفوس ثم الخصب الدار الذي على السلطة أن تهيء أسبابه ليستمر الأمن ولينفتح باب الأمل. (أدب الدنيا والدين ص ١٣٦).

[٥] سامي النشار: مقدمة كتاب السياسة للمرادي ص ٣٢.

فألف الإمام الحضرمي المرادي كتاباً سماه "الإشارة في تدبير الإمارة"[١] عرض فيه نظرية علماء المرابطين في الحكم وحسن التدبير. وهو يبسط هذه النظرية في ثلاثين باباً ليسهل حفظها على الناشئة من الأمراء.

وقد حاول المرادي في كتابه أن يضع تصوراً للسلوك السياسي السليم في مختلف المواقف والظروف وتجاه مختلف الفئات[٢] . ومن أهم ما يركز عليه في كتابه ويحث عليه ضرورة إصلاح الحاكم لنفسه والعدل في حكمه. فالعدل في نظره "أنصر من الرجال ، وصاحبه له فضائل أربع: الأجر ، والثناء ، والنصر ، والبقاء". ثم يقول: إنه إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة فليبشر ساكنها بالعز والعمارة[٣] .

هنا نتساءل: هل عمل الأمراء المرابطون بهذا الكتاب وانتهجوا نهجه؟

ليس لدينا ما يؤكد أنهم التزموا هذا الكتاب أو اعتمدوه منهجاً. إلا أن المؤكد هو أنهم كانوا يسلكون سياسات قريبة من تلك التي ينادي بها الإمام الحضرمي ويحث عليها. فمثلاً نرى المرادي يعقد باباً عن مخالطة الأصحاب وينهي فيه الأمراء عن مخالطة الأسافل ممن أفسدتهم الحضارة الزائفة[٤] ، وهذا التوجيه ينطبق على حال أمراء المرابطين يقول صاحب الحلل الموشية: "وكانوا قوماً ربتهم الصحراء نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل"[٥] . على أننا وإن لم نجد ذلك الأثر البالغ لكتاب الإمام الحضرمي في المسلك السياسي للأمراء المرابطين ، فإن مزيته الفكرية لا يمكن أن تنكر بإعتباره أول كتاب يؤلف في السياسة بالمغرب الأقصى[٦] . وقد تأثر

---

[١] نشره د. سامي النشار سنة ١٩٨١ باسم: كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة (دار الثقافة – الدار البيضاء) في حين نشره د. رضوان السيد سنة ١٩٨١ باسم: الإشارة على أدب الإمارة (بيروت).

[٢] رضوان السيد: مقدمة كتاب الإشارة ص ٢٢.

[٣] كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة: ص ١٠٧.

[٤] كتاب الإشارة: ص ٧٨.

[٥] الحلل الموشية: ص ٦٧.

[٦] ضريف محمد: مرجع سابق ص ٩٢.

بأفكاره وأطروحاته عدد من الكتاب في علم السياسة من أمثال ابن رضوان[1] وابن الأزرق[2] وربما ابن خلدون[3] أيضاً.

لقد حاول العلماء في عهد المرابطين أن يترسموا بالدولة خطى الجيل الأول من السلف الصالح في تعاطيهم مع الحكم ، وطريقتهم في إدارة شؤون المسلمين. لقد ندب هؤلاء العلماء المرابطين إلى الزهد والصبر على الحق وبذل المستطاع من أجل إحقاق الحق ، وفوق ذلك الإستشعار بالمسؤولية والحرص على أدائها كما ينبغي.

إن وصية الأمير أبي بكر بن عمر ليوسف بن تاشفين ، عندما ولاه على المغرب وفوض إليه شؤونه ، لدليل على تعمق الإحساس بالمسؤولية لدى هؤلاء الأمراء وذلك لاشك نتيجة التربية العلمية التي تلقوها على أيدي العلماء من أمثال عبد الله بن ياسين والإمام الحضرمي وغيرهما. يقول الأمير أبو بكر بن عمر في هذه الوصية مخاطباً يوسف: "..... إني وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه ، فاتق الله في المسلمين ، واعتقني واعتق نفسك ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم. والله تعالى يصلحك ويهديك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ...[4] " لقد سعى العلماء في الدولة المرابطية إلى تكريس هذا المفهوم للحكم وتطبيقه على أرض الواقع ، إبتداءاً بعبد الله بن ياسين والإمام الحضرمي المرادي وإنتهاء بالقاضي عياض والقاضي أبي بكر بن العربي والإمام الطرطوشي الذي كتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رسالة يبين له فيها سبيل النجاح والنجاة وضرب له فيها الأمثال لتستبين سبيل المصلحين الهادين المهتدين ويذكر الطرطوشي في رسالته ما وصف به سلمان الفارسي رضي الله عنه الحاكم المسلم إذ

---

[1] ابن رضوان: عبد الله بن يوسف (ت٧٨٣هـ) أحد كتاب الدولة المرينية له كتاب " الشهب اللامعة في السياسة النافعة" تحقيق علي سامي النشار ١٩٨٤ (ابن القاضي: جذوة الإقتباس ج٢ ص ٤٣٥).

[2] ابن الأزرق: محمد بن علي (ت٨٩٥هـ) قاضي الجماعة بغرناطة له مؤلفات منها كتاب "بدائع السلك في طبائع الملك" طبع بتحقيق علي سامي النشار ببغداد ١٩٧٨ (المقري: نفح الطيب ج٣ ص ٤٥١).

[3] سامي النشار: مقدمة كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة ص ٣٠.

[4] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٥.

يقول "هو الذي يقضي بكتاب الله ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله، قال تعالى: "الذين إن مكنهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر"[1] فمن مكنه الله في الأرض وآتاه سلطاناً ولم يفعل ما أمر الله به في هذه الآية خفنا ألا يكون من أهلها ...."[2] إنه عرض للنموذج والمثال المنشود للحاكم المسلم وحث على السعي من أجل الوصول إليه أو أقرب مثال له. ومما يدل على نجاح العلماء في ما ذهبوا إليه هو تمسك أمراء الدولة المرابطية وحتى في آخر أيامهم بالمباديء الإسلامية فلم يعرف عن علي بن يوسف جور ولا ظلم وكان متوسعاً في الشورى[3] وكان خليفته تاشفين[4] مثالاً للأمير المجاهد الخير[5] رغم أنه جاء إلى الحكم في الوقت السيء إذ كانت كل عوامل السقوط قد تضافرت لسقوط الدولة المرابطية.

٣- مذهب العلماء المرابطين العقائدي وموقفهم من التصوف

أ- **مذهبهم العقائدي:** لقد إتسم القرن الخامس الهجري بإشتداد الصراع الفكري بين أهل الحق والباطل وكان من ميادين الصراع الفكري في هذا القرن علم الكلام الذي

---

(١) سورة الحج الآية ٤١.

(٢) ابن العربي: رحلة ابن العربي نشر د. عصمت دندش في مجلة المناهل ع٩ ص ١٧٨ ؛ ويذكر سعيد أعراب أن هذا النص ليس نص الرحلة وإنما هو تجريد لكتاب الرحلة وأن عنوان هذا النص هو "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان" (مع القاضي أبو بكر بن العربي نشر دار الغرب بـ١٩٨٧ ص ١٧٠).

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٥٢.

(٤) الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين (ت٥٣٩هـ) تولى إمارة المسلمين بعد وفاة أبيه سنة ٥٣٧هـ وتوفي في وهران وهو يدافع الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي. وكان تاشفين موصوفاً بحسن السياسة والعدل "سالكاً ناموس الشريعة، مائلاً إلى طريقة المستقيمين، لم يشرب قط مسكراً ولا استعمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك" هذا وصفه ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ٤٤٨ ؛ ويكاد من ترجموا له يجمعون على أوصافه الخيرة وسلوكه القويم (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٤ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٩٧ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ١٢١).

(٥) كان الأمير تاشفين قبل ولايته للعهد سنة ٥٣٣هـ أميراً على الأندلس من سنة ٥٢٣ - ٥٣١هـ فكانت له على النصارى وقائع عظيمة، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو. (ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ٤٤٨ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٤ ص ٨٠).

هو علم أصول العقائد مثل القضايا المتعلقة بذات ا لله وصفاته. وأفعال العباد هل هي إختيارية أم لا؟ وصاحب الكبيرة هل هو من أهل النار أم لا؟ وغيرها[١].

ظهر في المشرق في هذا القرن أعلام كبار من أعلام علم الكلام من أمثال القاضي أبي بكر الباقلاني[٢] والقاضي عبد الجبار[٣] المعتزلي صاحب كتاب "المغني في التوحيد والعدل"[٤] وكتاب "فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة" وأبي اسحاق الأسفرايني[٥] والإمام الغزالي[٦].

إن أهم ما ميز علم الكلام في القرن الخامس الهجري هو نفوذ الفلسفة إلى جميع مدارسه. فاستعملتها جميع أطراف المعارك الفكرية لتدعيم مواقفها مع تفاوت في درجة الأخذ[٧].

---

[١] ابن خلدون: المقدمة ج٢ص١٤٧.

[٢] القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني (ت٤٠٣هـ) متكلم مشهور على مذهب أبي الحسن الأشعري، كان يلقب "بشيخ السنة ولسان الأمة". مالكي المذهب. قال عنه ابن خلكان "كان في علم الإعتقاد أوحد زمانه ....، وكان موصوفاً بجودة الإستنباط وسرعة الجواب" وكانت له بجامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة. (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٦٩؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ ص ٢٢٨).

[٣] القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ) قاضي قضاة الدولة البويهية وأحد أعلام المعتزلة وإمامهم في عصره ومن أغزر المعتزلة إنتاجاً. وهو الذي وضع قواعد فكر المعتزلة وأصله (الزركلي: الأعلام ج٤ ص ٤٧؛ عبد الكريم عثمان: قاضي القضاة عبد الجبار الهمداني، دار العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٧).

[٤] طبعت أجزاء عدة من كتاب المغني في القاهرة حقق بعضاً منها ابراهيم مدكور بيومي وذلك سنة ١٩٧٢.

[٥] ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الاسفراييني (ت٤١٨هـ) فقيه وأصولي شافعي. قيل أنه بلغ رتبة الإجتهاد وكان شيخ أهل خراسان في زمانه. أقام بالعراق مدة ثم عاد إلى اسفرايين فبنى له بها مدرسة ولزمها ودرس فيها. وعنه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور من تصانيفه "الجامع في أصول الدين" (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص ٢٨).

[٦] محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ) فقيه أصول، فيلسوف، متصوف مشهور له نحو مائتي مصنف من أشهرها كتاب "إحياء علوم الدين" و"تهافت الفلاسفة" و"المنقذ من الضلال" (ترجمته في معظم كتب التراجم منها (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص ٢١٦ - ٢١٩).

[٧] عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي خلال ق٥ ص ٤٥.

وإلى جانب مدرسة علم الكلام المطعم بالفلسفة ظهرت مدرسة فلسفية بحتة لها مسارها الخاص وتناولها الخاص للقضايا الفكرية. وهذه المدرسة تعبر عن ثقافة اليونان وفلسفته أكثر مما تعبر عن ثقافة الإسلام وفكره[١] .

ومن رجال هذه المدرسة ابن سينا (ت٤٢٨هـ)[٢] والبيروني (ت٤٤٠هـ)[٣] وغيرهما ممن بذر الشك والإلحاد في العقل المسلم[٤] .

إن هذه الميادين الفكرية والطروحات العقلية إمتد نفوذها وإتسع صداها إلى أرجاء العالم الإسلامي ، فوصلت المغرب الإسلامي مجردة من حدتها وجدتها فتعامل معها العلماء بروية وهدوء.

لذا كانت الدولة المرابطية دولة سنية في منهجها وأحكامها ولكن من منظور مالكي بحت ، لهذا فقد تعامل علماؤها مع علم الكلام من هذه الزاوية والخلفية.

لقد كان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه سلفياً في تفكيره وفي تعاطيه مع مستجدات الأمور.

لذا كان الإمام مالك كثيراً مايروي قول عمر بن عبد العزيز: "سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها إتباع لكتاب الله وإستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله وليس لأحد بعد تبديلها ولا النظر في شيء خالفها..."[٥] ليبين من خلال هذا الأثر أن العمل الذي يجب إقتفاؤه هو عمل السلف الأول. لهذا بغض مالك أقوال الفرق الإسلامية في العقائد لأنها أثارت أموراً لم يثرها السلف الصالح وليس في مصلحة المسلمين إثارتها. وثم أن هذه الأقوال مبنية على النظر العقلي المجرد

---

[١] سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج١ ص ١٩٢.

[٢] الحسين بن عبد الله بن سينا (ت٤٢٨هـ): الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات. أشهر كتبه كتاب "القانون" في الطب وكتاب "الشفاء" في الفلسفة و"أسرار الحكمة المشرقية" (الزركلي: الأعلام ج٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢).

[٣] محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي (ت٤٤٠هـ) فيلسوف رياضي مؤرخ من أهل خوارزم اطلع على فلسفة اليونان والهند وصنف كتباً كثيرة منها "الآثار الباقية عن القرون الخالية" (الزركلي: الأعلام ج٥ ص ٣١٤).

[٤] ابن الأثير: الكامل مج٨ ص ١٥ ط.الثانية ١٩٦٧ دار الكتاب العربي.

[٥] عياض: المدارك ج١ ص ٢٠٠.

وسلكت سبيل الجدل والمراء ، وهذان المسلكان لم يسلكها السلف الصالح[١].

ومالك عندما يضطر إلى الإجابة عن بعض المسائل المثارة من طرف الفرق الكلامية فإنه يجيب بالمأثور ولا يزيد عليه لذا نراه عندما سئل عن "الرحمن على العرش استوى: قال: الإستواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عن هذا بدعة والإيمان به واجب وأنني لأظنك (أي السائل) ضالاً[٢].

كان مالك إذن يقف عند الظاهر الواضح من النصوص القرآنية ونصوص السنة الخاصة بالعقائد ، فلا يثير حول هذه النصوص منازعات عقلية لا يهتدي الفكر فيها إلى رأي. لقد كان مذهبه في أصول العقائد إتباع السلف في طريقتهم وتعاطيهم مع النصوص وهو إمرارها كما جاءت[٣] ، والحرص على عدم الخوض في أقوال وإستشكالات لم يثرها السلف. وأعتبر الخوض في هذه الأقوال يوقع المسلمين في حيرة دينية وإضطراب في فهم حقائق الإسلام[٤].

إن هذه الخلفية الفكرية جعلت العلماء المرابطون ينبذون الفلسفة بإعتبارها علماً لا ينفع وفكراً مشوباً بالكفر[٥]. وفي أصول العقائد تشبثوا بمنهج الإمام مالك القائم على التسليم بما جاء من عند الله من غير خوض في متشابهه لما في ذلك الخوض من إفساد للعقائد[٦].

على هذا الأساس قرر العلماء المرابطيون تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه تعاطيه ، وأنه بدعة في الدين ، ربما أدى أكثره إلى إختلال في العقائد[٧]. ونتيجة لهذا وجدنا أمير المسلمين علي بن يوسف يكتب المرة تلو المرة إلى

---

[١] أبوزهرة: مالك ص ١٥٣.

[٢] عياض: المصدر السابق ص ١٩٨.

[٣] أبو زهرة: مرجع سابق ص ١٥٤.

[٤] أبو زهرة: مرجع سابق ص ١٥٧.

[٥] حسن السايح: موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي (دورة القاضي عياض ج٢ ص ٢٤٣).

[٦] المراكشي: المعجب ص ٢٥٥.

[٧] المراكشي: نفس المصدر والصفحة.

عماله في البلاد بالتشدد في نبذ الخوض في شيء من علم الكلام[١] .

إن هذا التشدد والمنع من الخوض في علم الكلام كان المقصود به في الأساس حفظ عقائد العامة من جمهور المسلمين.

أما من كان له رسوخ في العلم وتميز في الفهم فله أن يطلع على علم الكلام ومباحثه ليذب عن حرمات الشريعة إذا إحتيج إليه ، كما يقول ابن العربي[٢] .

وقد علل الفقيه أبو محمد عبد الحق[٣] عدم ضرورة تعلم علم الكلام والتعمق فيه في بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري ، لسلامة هذه البلاد من البدع في ذلك الوقت[٤] .

ومما يدل على أن محاربة العلماء في العهد المرابطي لعلم الكلام إنما كانت لحجز العامة عن الوقوع في الشبهات فتفسد عقائدها ، ما نلمسه من تقدير لبعض أئمة الكلام لدى هؤلاء العلماء. ويتجلى هذا التقدير بوضوح في الجواب الذي كتبه شيخ المالكية أبو الوليد ابن رشد في رده على إستفسار أمير المسلمين علي بن يوسف عن أبي الحسن الأشعري[٥] وأبي أسحاق الأسفراييني وأبي بكر الباقلاني ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانة. أهم أئمة رشاد وهداية أم هم قادة حيرة وعماية؟ فأجابه: بأن هؤلاء أئمة خير وهداية وممن يجب بهم الإقتداء لأنهم قاموا بنصر الشريعة وأبطلوا شبه أهل الزيغ[٦].

---

[١] المراكشي: نفس المصدر والصفحة.

[٢] العواصم من القواصم: ج٢ ص ١٠٩.

[٣] عبد الحق بن عبد الرحمن الأشيلي (ت٥٨١هـ) المعروف بابن الخراط ، فقيه حافظ محدث.هاجر من الأندلس إلى بجاية عند انقراض الدولة المرابطية (ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ ص ٥٩).

[٤] الونشريسي: المعيار ج١١ ص ٢٣٠.

[٥] علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من أئمة المتكلمين المجتهدين له كثير من المؤلفات منها "مقالات الإسلاميين" جزءان ، مطبوع ، و"الإبانة عن أصول الديانة" مطبوع أيضاً. (الزركلي: الأعلام ج٥ ص ٦٩).

[٦] ابن رشد: الفتاوى تحقيق المختار التليلي ج٢ ص ٨٠٢.

وقد إشتهر بعض علماء المرابطين بمعرفة علم الكلام مثل الإمام الحضرمي المرادي فقد وصفه القاضي عياض بأنه أول من أدخل علوم الإعتقاد إلى المغرب الأقصى وله فيها عدة مؤلفات منها كتاب "التجريد"[١] ومن علماء الكلام في هذا العصر أبو الحجاج بن موسى الكلبي وهو تلميذ المرادي[٢] . قال عنه ابن بشكوال: "من أهل التبحر والتقدم في علم التوحيد والإعتقادات وهو آخر أئمة المغرب فيه[٣] ". والعبارة الأخيرة تدل على أن علم الكلام لم ينتشر في المغرب كثيراً كما إنتشر في المشرق.

أما الفلسفة فكانت منبوذة من طرف العلماء في العهد المرابطي لهذا هجرت فلم يتعاطاها الناس. وحتى من تعاطاها من الخاصة إنما كان يفعل ذلك سراً. وأصدق مثال على ذلك أن الفيلسوف مالك بن وهيب[٤] ، رغم قربه من أمير المسلمين وعلو مكانته عنده ، لم يستطع أن يقيد معارفه الفلسفية ولابثها ، "بل أضرب عن النظر ظاهراً فيها وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها" كما يقول ابن أبي اصيبعة[٥] .

ولعل أحسن تلخيص لموقف العلماء من الفلسفة في هذا العهد ما نجده في "وصية القاضي ابي الوليد الباجي لولديه" محذراً من "قراءة شيء من المنطق وكلام الفلسفة فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة"[٦] .

لقد أدت حال النفور هذه أن أصبح علم الفلسفة من الممنوعات وخرج عن دائرة العلوم الموصي بتعلمها يقول المقري عن الفترة المرابطية وما يشتغل به طلبة العلم "وكل العلوم لها عندهم حظ وإعتناء إلا الفلسفة والتنجيم"[٧] .

---

[١] عياض: الغنية تحقيق محمد بن عبد الكريم ص ٢٨٢.

[٢] ابن الزيات: التشوف ص ١٠٦.

[٣] الصلة: ج٢ ص ٦٤٤.

[٤] مالك بن وهيب: فقيه ، فيلسوف ، زاهد ورع كان مستشار أمير المسلمين علي بن يوسف ووزيره (المقري: نفح الطيب ج٥ ص ٢٨).

[٥] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٥ بيروت ص ٥١٥.

[٦] وصية الباجي لولديه نشر جودة عبد الرحمن بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ع٣ مج١ سنة ١٩٥٥ ص ٣٥.

[٧] المقري: نفح الطيب ج١ ص ٢٢١.

د – موقف العلماء من التصوف في عهد المرابطين

تميز العهد المرابطي بنوعين من التصوف أحدهما هو التصوف السني القائم على إقتفاء أثر السلف الصالح في إمتثال أوامر الشرع وإجتناب نواهيه والإبتعاد عن الشبهات ، وترك ما لا بأس به خشية الوقوع في ما به بأس. وقد مثل هذا الإتجاه ثلة من العلماء من أمثال الفقيه وجاج بن زلو الذي بنى مدرسة بنفيس يعلم الناس فيها العلم ويحضهم على الخير ويضرب لهم المثل الحسن بسلوكه[1] ، وهو شيخ الإمام عبد ا لله بن ياسين الذي كان زاهداً في زخرف الدنيا متقللاً من حلالها ، صابراً على الحق[2] .

ولعل أشهر أهل هذا المنهج هو الفقيه المحدث الزاهد الإمام أبو علي حسين بن محمد الصدفي (ت٥١٤هـ). لقد قضى الصدفي حياته بالعلم والتعليم والجهاد غير متشوف لعرض صابراً على ذلك إلى أن أستشهد بموقعة قتندة[3][4] .

لقد أثر هذا المنهج والسلوك في الكثير من طلبة العلم وشيوخه وغيرهم ، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان متقشفاً في مأكله ومشربه زاهداً في متاع الدنيا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره على حد عبارة ابن أبي زرع[5] . وكذلك ابنه أمير المسلمين علي فقد كان كما وصفه عبد الواحد المراكشي" يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد من الملوك والمتغلبين"[6] .

إلى جانب هذا التيار الصوفي السني بدأت تتشكل ملامح تيار صوفي فلسفي. نشأ هذا التيار نتيجة التأثر بالتراث اليوناني كفلسفة أفلاطون وأرسطو التي ترجمت في المشرق ثم نقلت إلى الأندلس ، بالإضافة إلى مؤلفات الفارابي وابن سينا

---

(١) ابن الزيات: التشوف ص ٨٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٤.

(٣) عياض: المدارك ج٨ ص ١٩٤.

(٤) قتندة: بلدة من اقليم سرقسطة في الثغر الأعلى (ياقوت الحموي: ج٤ دار صادر بيروت ص ٣١٠).

(٥) روض القرطاس: ص ١٣٦.

(٦) المعجب: ص ٢٥٢.

وأخوان الصفا[١] ومصنفات كبار المتكلمين لاسيما المعتزلة[٢] . ويمثل هذا الإتجاه كل من ابن العريف[٣] صاحب كتاب "محاسن المجالس"[٤] الذي تحدث فيه عن المقامات الصوفية التي يمر بها السالك في طريقة الصوفية ، ومنهم ابن برجان[٥] وأبو القاسم بن قسي[٦] الذي ضمن كتابه "خلع النعلين" آراءه في الفيض الوجودي ومراتب الموجودات[٧] .

لقد آثار هذا التيار الأخير من الصوفية حفيظة العلماء الذين اعتبروا هذه الطائفة خارجة عن الشرع. فابن العربي ينكر على هؤلاء قولهم بالحلول والإتحاد وما إليها من ألفاظ كالحرقة والفناء والعشق الذي يقول عنه " وللصوفية في إطلاق العشق على ا لله تجاوز عظيم وإعتداء كبير ، ولولا إطلاقه تعالى المحبة ما أطلقناها فكيف نتعداها إلى سواها من ألفاظ المجان وليس لهذا أصل في الشريعة[٨] .

كما أنكر عليهم ما يدعونه بالتجلي ويعارض فكرة الفيض[٩] . وسلك نفس المسلك في إنتقادهم والرد عليهم القاضي عياض[١٠] .

---

[١] اخوان الصفا: جماعة ذووا نزعة فلسفية ظهروا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وقد أذاعوا أفكارهم عن طريق رسائل أذاعوها بين الناس (عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي ص ٣٧٧).

[٢] عصمت دندش:الأندلس في نهاية المرابطين ص ٣٦٠؛بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص ١٣٢.

[٣] أحمد بن محمد المعروف بابن العريف (ت٥٣٦هـ): متصوف من أهل المرية (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٨٣).

[٤] نشر هذا الكتاب المستشرق آسين بلاتيوس ASIN Palacios سنة ١٩٣٣ في باريس.

[٥] أبو الحكم بن برجان (ت٥٣٦هـ): متصوف من أهل أشبيلية ومن أهل علم الكلام له تفسير في القرآن (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤).

[٦] أحمد بن قسي (ت٥٤٦هـ) أحد المتسترين بالتصوف والثائرين على المرابطين في آخر دولتهم (ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق إ.ليفي بروفنسال. ط٢٠ ١٩٥٦ بيروت ص ٢٤٨).

[٧] د. أبو العلاء عفيفي: أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين ، مجلة كلية آداب الأسكندرية المجلد ١١ السنة ١٩٥٧ ص ٥٤.

[٨] العواصم: ص ١٦.

[٩] نفس المصدر ص ١٨.

[١٠] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص ١٦٧.

وقد وصل نكير الفقهاء على أهل هذه النحلة أن أغروا بهم الأمراء فاستدعى أمير المسلمين ابن العريف إلى مراكش لإختبار أحواله[1] . وقد سجن جماعة من هؤلاء المتصوفة منهم ابن برجان والميورقي[2] . وفي جو هذا الصراع بين العلماء والمتصوفة ، أقدم بعض العلماء المرابطين على التنديد بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي وقاموا بالرد عليه[3] . ثم أفتوا بمنعه من التداول ثم سعوا في مصادرة نسخه وإتلافها بالإحراق. وبالفعل فقد إستطاع نفر من العلماء وخصوصاً علماء قرطبة إستصدار أمر من أمير المسلمين علي بن يوسف بإحراق كتاب إحياء علوم الدين وذلك سنة ٥٠٣هـ.[4] وأمر بتفتيش المكتبات وأن يحلف أصحابها أنهم لا يملكون نسخاً من الأحياء.

لقد نال هذا القرار حيزاً من إهتمام الكتاب والمؤرخين الذي كتبوا عن الدولة المرابطية بين مدافع عن هذا القرار وبين مندد به.

لكننا قبل أن نصدر حكماً على هذا الفعل نرى أن نستجلي الدوافع التي كانت وراء هذا العداء لكتاب الإحياء ولصاحبه.

---

[1] لما وصل مراكش أمر أمير المسلمين علي بن يوسف بإطلاق سراحه وأحسن إليه لكن القاضي ابن أسود قاضي شرق الأندلس الذي كان أحد أبرز الناقمين على ابن العريف أمر بسم هذا الأخير فمات في صفر ٥٣٦هـ بعد شهور من عودته من مراكش (ابن الزيات: التشوف ص ١٢١).

[2] محمد بن الحسين أبو بكر الميورقي: صوفي من أهل غرناطة توفى ببجاية عام ٥٣٧هـ (ابن الأبار: المعجم ص ١٤٦).

[3] ألف القاضي محمد بن حمدين رسائل في الرد على الغزالي وكتابه ، وقد أخذها عن ابن حمدين أكثر من عالم من أمثال عبد الحق بن عطية (الفهرس ص ٨٥) والقاضي عياض (الغنية ص ١١٦).

[4] ابن القطان: نظم الجمان ص ٧٠ تحقيق د. محمود مكي (دار الغرب ١٩٩٠) ؛ وقد اعتمد روايته كل من ابن عذاري (البيان المغرب ج٤ ص ٥٩) وصاحب الحلل الموشية (ص ١٠٤) أما صاحب المعجب فيذكر أن الأمر صدر بإحراق جميع كتب الإمام الغزالي (عبد الواحد المراكشي: المعجب تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمي ، دار الكتب بالدار البيضاء ١٩٧٨ ص ٢٥٥). غير أن الثابت أن الذي أحرق هو كتاب الإحياء خاصة

بالعودة إلى المصادر نجـد أن بعضهـا يـورد هـذه الحادثـة دون أن يعللهـا كـابن القطان[١] وابن عذاري[٢] . كما نجد البعض الآخر كصاحب "الحلـل الموشـية" يقـول أن الفقهاء تكلموا في كتاب الإحياء وأنكروا فيه أشياء[٣] لكنه لا يحدد طبيعـة هـذه الأشـياء التي أنكروها وكذلك فعل ابن الزيات[٤] وأخيراً نجد البعض يقدم تعليـلاً للحـادث لكـن دون إتفاق على سبب بعينه. فصاحب كتاب بيوتات فاس الكبرى" يقـول: "إن العلمـاء تكلموا فيه – أي الإحياء – لما فيه من الأحاديث الموضوعة"[٥] بينما نجد المراكشي يربط بين محاربة العلماء لعلم الكلام وقضية الإحراق[٦] .

وكما اختلفت المصادر في تبيين أسباب عداء العلماء لكتـاب الإحيـاء ، إختلفـت أيضاً آراء المحدثين حول هذه الحادثة وأسـبابها. فمنهـم مـن يـرى أن الإحـراق تم لأن الفقهاء اعتبروا الغزالي من أهل الرأي[٧] . ويرى البعض الآخر أن الإحراق يدخـل ضمـن الحرب بين المالكية والشافعية[٨] ، في ما يرجع البعض الآخر سبب الإحراق إلى موقـف الغزالي الرافض لفرض الضرائب على المسلمين ، ثم إلى منحى الكتاب الصوفي الباطني[٩] .

والذي يبدو هو أن قرار إحراق كتاب الإحياء كان نتيجة عدة أسباب أولها: مـا إشتمل عليه من أحاديث ضعيفة وأخرى موضوعة وهو ما أنكـره عليـه علمـاء كبـار مـن أمثال الإمام الطرطوشي الذي وصف كتاب الإحياء "بأنه شحن بالكذب على رسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فلا أعلم كتاباً على وجه بسيط الأرض أكثر كذباً على الرسول صلى

---

[١] نظم الجمان: ص ٧٠.

[٢] البيان المغرب ج٤ ص ٥٩.

[٣] الحلل الموشية: ص ١٠٤.

[٤] التشوف: ص ٣٦.

[٥] ص ٣٣.

[٦] المعجب: ص ٢٥٥.

[٧] د. أحمد حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٤٦.

[٨] عبد ا لله العروي: تاريخ المغرب ص ١٢٩.

[٩] مصطفى بنسباع: إحراق كتاب الإحياء (ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية) الندوة ٥ تطوان ١٩٩٣. ص ٢٥٦

الله عليه وسلم منه[١] " وهو نفس ما عابه عليه ابن الجوزي الذي ألف رسالة سماها "إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء"[٢] .

ثاني الأسباب: ماشاب الكتاب من آراء فلسفية لم تكن معروفة لدى أهل التصوف والزهد[٣] .

ثالث هذه الأسباب: هو تعريضه بالفقهاء وتشنيعه عليهم معتبراً أنهم لم يتصفوا بمقتضى مسماهم ، لأنهم قصروا الفقه على العلم بالحلال والحرام في حين يرى هو أن للفقه معنى أسمي من ذلك فهو العلم الدال على طريق الآخرة بتصفيته للنفوس وأن هذا المعنى هو الذي كان معروفاً لدى السلف الأول من الصحابة والتابعين[٤] .

وقد كان لهذا النقد وقعه على الفقهاء لأنه سيعزز حجج خصومهم من المتصوفة.

لهذا كانت نقمة العلماء عليه جزء من حربهم مع الصوفية الفلسفية ، ومحاولة لرد الإعتبار ومحافظة على المكانة التي كانت لهم في ظل الدولة المرابطية.

كل هذه الأسباب سوغت في نظر بعض العلماء ، الإفتاء بإحراق كتاب الإحياء.

لم يكن هذا القرار محل إجماع من العلماء بل أن بعضاً منهم جاهر بمعارضة هذه القرار والتنديد به. ومن هؤلاء أبو الحسن البرجي (ت٥٠٩هـ) الذي أفتى بتأديب من يحرق كتاب الإحياء وتضمينه قيمته لأنه مال مسلم[٥] . كما إنتصر أبو الفضل النحوي (ت٥١٣هـ) لكتاب الإحياء وكتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بذلك ، وقد أفتى بأن الأيمان التي فرضت في عملية التفتيش عن كتاب الإحياء ، أيمان لا تلزم[٦] .

إلا أن هؤلاء المعارضين كانوا أقلية ، كما أنهم لم يسلموا من المضايقة من طرف المفتين بالإحراق وخصوصاً القاضي محمد بن حمدين قاضي الجماعة الذي أمر بعزل

---

[١] الونشريسي: المعيار ج١٢ ص ١٨٥.

[٢] عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي ص ٦٠.

[٣] الونشريسي: مصدر سابق ص ١٨٦.

[٤] الغزالي: الإحياء ج١ ص ٣٢.

[٥] ابن الأبار: معجم أصحاب ابي علي الصدفي ص ٢٧٨.

[٦] ابن الزيات: التشوف ص ٩٦.

البرجي من القضاء لمّا علم بمعارضته لقرار الإحراق[1] . وهذا المسلك ينم عن ضيق صدر بالرأي المخالف وعجز عن الإقناع بالحجة دون اللجوء إلى التسلط.

لم يكن أسلوب الإحراق أسلوباً سليماً ، ولعل الحل الذي كان يراه القاضي عياض في التعامل مع كتاب الإحياء كان الأسلوب الأمثل ، فقد كان يقول: "لو اختصر هذا الكتاب واقتصر على مافيه من خالص العلم لكان كتاباً مفيداً"[2][3] .

إن كتاب الإحياء ، رغم المآخذ التي لا يخلو منها مؤلف ، لقي القبول لدى الأمة وأثنى عليه علماؤها ونكتفي هنا برأي شيخ الإسلام ابن تيمية فيه:

"وفيه (أي الإحياء) أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة ، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم ، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين ، في أعمال القلوب الموافقة للكتاب والسنة ، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ماهو موافق للكتاب والسنة ، ما هو أكثر مما يرد منه"[4] .

ولنا أن نتساءل في نهاية هذا الفصل هل كان العلماء في العهد المرابطي محقين في سعيهم لفرض رؤية واحدة للأشياء على مستوى الأحكام والعقائد والحكم؟

إن مما لاشك فيه أن تصرف العلماء في تلك الفترة على أساس أن الحق واحد وأنه في جهتهم فقط وبالتالي محاربة من سواهم ، قد يكون قلل من فرص إيجاد نوع من التنوع الفكري مثل ما كان سائداً في المشرق. فالإختلاف في الرأي والمذهب أحدث في المشرق أشكالاً من النضال الفكري الذي غذى الأدب والعلم بعناصر متنوعة ومتجددة ، وأمدها بدواعي الحياة والإزدهار والإبتكار.

---

[1] ابن الأبار: المصدر السابق ص ٢٧٩.

[2] محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض تحقيق د. محمد بن شريفة ص ١٠٦.

[3] ومع هذا فقد روى ابن العماد في الشذرات _ج٤ ص ١٣٩) أن عياضاً كان يرى وجوب إحراق كتابالإحياء للغزالي.

[4] ابن تيمية: الفتاوى مج١٠ ، نشر دار عالم الكتب ، الرياض ١٩٩١ ، ص ٥٥٢.

ولكن أليس صحيحاً أيضاً أن ثمار الفكر ليست كلها خيرة مفيدة؟ وأن منها ماهو ضلال بحت؟ أفلا يكون من مهمة العلماء عندئذ أن ينصبوا ميزان " الصلاح" وأن يمارسوا إلى حد ما "الحجر الصحي على العقول"؟

إننا نميل إلى ذلك ، ونرى أن العقول مثل الأجسام تحتاج إلى أن تحمى من الأفكار الموبوءة الفتاكة التي تبث الشك وتظلم القلب فتنسد دروب الهداية والفلاح.

ونحن نرى أن حماية العقول وخصوصاً عقول العامة من أن تفسد مهمة كبرى من مهمات العلماء. وهي مهمة قاموا بها في كل أنحاء العالم الإسلامي وعلى مر العصور. إلا أنهم في هذا العهد المرابطي وجدوا دولة وجهازاً حاكماً يساند توجهاتهم ويطبق تعليماتهم.

إن النظرة المتأنية المقارنة بين الحالة الفكرية التي كان يعيشها المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي لاشك تجحف بهذا الأخير فالبون المعرفي كبير. غير أن الإنتاج الفكري المشرقي لم يكن مفيداً كله ولا صالحاً مصلحاً دنيا وأخرى. لذلك إنتشرت الأفكار بكل أنواعها فازدهرت النحل والطوائف وما استتبع ذلك من كوارث على الأمة الإسلامية. وهي حالة لا نجدها في المغرب الأقصى على هذا العهد.

لقد كانت مقتضيات الأمور وواقع الظروف التي تمر بها المنطقة ، من صراع البقاء أمام زحف الخطر المسيحي الذي يهدد بإجتثاث كيان الأمة في كل حين ، تستدعي من العلماء أن يوحدوا القلوب والمشارب لتكوين جبهة واحدة تصمد أمام الخطر الماحق وقد صدقت الأحداث التالية في المغرب الأقصى نظرة العلماء هذه فقد ضعفت الجبهة الإسلامية عن مجابهة النصارى ومدافعتهم نتيجة ثورات داخل البيت الإسلامي أنبتتها وأشعلت جذوتها بعض الأفكار الهدامة التي جاءت إلى المغرب من المشرق[1] .

ومع كل ذلك فقد حقق العلماء بسعيهم إلى التوحيد المذهبي نوعاً من اللحمة بين العناصر البشرية المشكلة للدولة المرابطية وخصوصاً في العدوة الجنوبية.

فعملية المزج والتوحيد وإن كانت في الأساس تهدف إلى تحقيق الوحدة الدينية فقد أدت إلى توحيد سياسي وثقافي وهو مكسب تاريخي لا جدال فيه.

---

[1] مثل ثورة ابن تومرت التي سنتحدث عنها بالتفصيل.

الفصل الثالث

العلماء وسياسة المرابطين الوحدوية

لقد كانت فكرة الوحدة إحدى أهم ركائز المنهج المرابطي. وكان إعتراف القائمين على الدولة المرابطية بالتبعية للخلافة العباسية ، تعبيراً صادقاً عن هذا الإلتزام والإتجاه. والوحدة بالنسبة للمرابطين هدف عام ولكنها في الظرف الزمني الذي كانوا يعيشون فيه وسيلة لجهاد العدو ومدافعته والتقوى على خطره الداهم.

لقد قام المرابطون ، بتوجيه مباشر من العلماء بتوحيد المغرب الأقصى وموريتانيا وكوّنوا في هذه الرقعة دولة تحمي مصالح المسلمين وتنشر بينهم العدل ، وتقوم على الجهاد لإعلاء كلمة الله. هذا الصرح الجديد الشامخ ولّد الأمل من جديد في نفوس كثير من المسلمين ببزوغ عهد جديد ينتشر معه بعض من الأمن والقوة في دار الإسلام بعدما عمتها الفوضى والذلة. وكان من الطبيعي أن يكون أول المشرئبين إلى هذه الدولة الجديدة هم أهل الأندلس ، العدوة الثانية لقرب الجوار وعمق الوشائج.

١- الحال في الأندلس عند قيام دولة المرابطين

كانت شبه الجزيرة الأيبرية عند قيام دولة المرابطين منقسمة إلى قسمين: قسم شمالي تقوم فيه المماليك المسيحية وهي إمارة برشلونة ومملكة أرغون ومملكة قشتالة وليون[١] . وقسم جنوبي وهو الأندلس الإسلامية.

كانت هذه الأندلس قد انقسمت منذ سقوط دولة بني أمية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ[٢] إلى دويلات تتجاوز العشرين عرفت بإسم دول أو ممالك الطوائف[٣] .ومن أهم هذه الدويلات: إمارة بني عباد في اشبيلية[٤] وإمارة بني جهور في

---

[١] يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٦٨.

[٢] الحميدي: الجذوة ص ٢٧ - ٢٨ ؛ المراكشي: المعجب ص ٨٧ - ٨٨ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب ج٣ ص ١٤٥ - ١٤٦.

[٣] عن أمراء الطوائف والأسر التي حكمت مختلف المدن انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسراب الحاكمة في التاريخ الإسلامي ص ٨٦ - ٩٢ ؛ عنان: دول الطوائف

[٤] تأسست في اشبيليه عام ٤١٤هـ وإستمرت حتى عام ٤٨٤هـ (يوسف حواله: بنو عباد في اشبيليه الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ؛ طبع شركة دار العلم بجدة.

قرطبة[١] ، وبني الأفطس في بطليوس[٢] ، وبني ذي النون في طليطلة[٣] وبني زيري في غرناطة[٤] وبني صمادح في المرية[٥] وبني هود في سرقسطة[٦] .

وهكذا ساد التفكك السياسي بلاد الأندلس وتحولت إلى أشلاء ممزقة "وذهب أهل الأندلس في الإنشقاق والإنشعاب والإفتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار[٧] "

أما أمراء هذه الدول "فجعل الله بينهم من التحاسد والتنافس والغيرة مالم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات ، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ على التعاضد عزم"[٨] .

---

[١] تأسست في قرطبة عام ٤٢٤هـ وإستمرت حتى عام ٤٦٢هـ عندما سقطت في يد المعتمد بن عباد (بن بسام: الذخيرة ق١ المجلد الثاني ص ١١٤ - ١١٦) ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٢٧ - ١٥١ ؛ خالد الصوفي: جمهورية بني جهور ١٩٥٩ المطبعة التعاونية ، دمشق.

[٢] تأسسب عند إنتثار عقد الخلافة وإستمرت إلى أن سقطت في يد المرابطين سنة ٤٨٨هـ (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٠ - ١٧٦).

[٣] تأسست سنة ٤٢٧ إلى أن سقطت سنة ٤٧٨هـ في يد ألفونس السادس (ابن عذاري: البيان المغرب ج٣ ص ٢٧٦ - ٢٨٢ ؛ ابن سعيد المغربي: المغرب ج٢ ص ٧ ؛ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٩٤ - ١١٨).

[٤] تأسست سنة ٤٠٣هـ وإستمرت حتى سنة ٤٨٣هـ حين سقطت في يد المرابطين (الأمير عبد الله بن بلقين: كتاب التبيان تحقيق أمين توفيق الطيبي ، ط١ مطابع منشورات عكاظ ، الرباط ١٩٩٥).

[٥] تأسست سنة ٤٢٩هـ وأستمرت حتى سقطت بيد المرابطين سنة ٤٨٤هـ (ابن عذاري: ج٣ ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ ابن الأبار: الحلة البيراء ج٢ ص ٧٨ - ٨١ و ص٨٢ - ٨٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ دار النهضة العربية ، بيروت).

[٦] تأسست سنة ٤٣١هـ حتى سقطت سنة ٥١٢هـ في يد النصارى (ابن عذاري: ج٣ ص ٢٢١ - ٢٢٤ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج٣ ص ٢٨١ - ٢٨٤).

[٧] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٤.

[٨] نفس المصدر ص ٢٤٤.

وقد تلقب هؤلاء المتغلبون في الأندلس بألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر بالمعتمد إلى غير ذلك من الألقاب. وفي ذلك يقول أبو الحسن بن راشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي إنتفاخاً صولة الأسد[١]

كان إستقلال هذه الإمارات إستقلالاً واهياً فقد كانت تفتقد لأبسط مقومات الدولة. إذ إتسمت بأسسها الهشة وافتقرت إلى قاعدة تضمن لها كياناً صلباً[٢].

وقد كان حكام هذه الإمارات مستبدين مستهينين بالدماء ، مكثرين من أسباب الترف لذا اقتصر كل همهم على الإنغماس في اللذات ومحاربة بعضهم بعضاً وفي الإستعانة في سبيل ذلك بالنصارى الأسبان ودفع الإتاوات المالية لهم إتقاءاً لشرهم[٣].

وفي مقابل ذلك كان النصارى الأسبان قد أعلنوا حرب "الإسترداد" وقد بلغت حركة الإسترداد[٤] هذه قوتها مع فرناندو الأول[٥] وإبنه

---

[١] المراكشي: المعجب ص ١٠٥.

[٢] إبراهيم أو تشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص ١٣.

[٣] محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٣٨٢.

[٤] سميت حرب الإسترداد لأنها كانت تهدف إلى إسترداد الأندلس من المسلمين وكان واضع خططها الطويلة الأمد هو الملك سانشو أو شانجه الكبير الذي حكم ما بين ١٠٠٠م – ١٠٣٥م فوحد الدويلات النصرانية عن طريق المصاهرة وقد قويت هذه الحركة على ابنه فرناندو الأول إلى أن توفي سنة ١٠٦٥م فقد خاض وقائع حربية ناجحة ضد المسلمين. كما قام بتوحيد جليقية وليون مع قشتالة وكانت سياسته قائمة على أن الحرب إما أن تسفر عن أخذ الأراضي أو عن الحصول على الجزية من المسلمين فتتقوى الدولة الأسبانية بتلك الموارد. أما بالنسبة إلى الأراضي التي لم يكن الحصول عليها ممكناً فقد كان الإرهاب الحربي والتدمير هو الأسلوب المتبع لإنهاكها. وقد تعثرت هذه الحركة بعد موت فرديناند بسبب إنقسام دولته بين أبنائه والحرب بينهم ولكنها قويت من جديد على يد إبنه الفونس السادس الذي سيقطع بها أشواطاً كبيرة جعلت الوجود الإسلامي في الأندلس لأول مرة في تاريخه مهدداً بالزوال (اندري جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية تعريب محمد مزالي ج٢ ص ١١١ ؛ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٣٨٢ – ٣٨٣).

[٥] فرناندو الأول (حكم بين عام ١٠٣٥ – ١٠٦٥) ملك قشتالة وليون. إستطاع هذا الملك أن يقود أسبانيا النصرانية إلى إنتصارات كبرى أعطتها التفوق السياسي والعسكري في شبه الجزيرة وكان من أ[بـ]رز مظاهر هذا التفوق إحتلال الأراضي الإسلامية وإخضاع ملوك الطوائف لصولته وإرغامهم على دفع الجزية (عنان: دول الطوائف ص ٣٨٤).

الفونس السادس[١] . فقد بدأت الأراضي والحصون الإسلامية تسقط تباعاً ورقعة الأندلس الإسلامية تنكمش وبات الوضع يؤذن بزوال الإسلام.

أمام هذا الوضع اليائس كان الأمل معلقاً على العلماء لكونهم أئمة الناس وملاذهم في المحن. لكن حال أغلبهم كانت مثل حال أمرائهم في الإخلاد إلى الأرض والنأي عن تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقهم. ويصف ابن بسام تلك الحال بقوله: "والفقهاء أئمتهم صموت عنهم (أي عن الأمراء) صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، خابِض في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم وأولئك هم الأقلون فيهم"[٢] .

ومع ذلك فإن بقية من العلماء من ذوي القلوب الحية بالعلم والضمائر المستنيرة بالإيمان استنكرت هذا الوضع ورفعت عقيرتها داعية إلى إصلاح الأوضاع بالوحدة ومدافعة العدو.

وسنعرض هنا لبعض من هؤلاء العلماء الذين صدعوا بالحق وتحملوا تبعات ذلك مقتنعين أن ذلك واجبهم. فمن هؤلاء أبو محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ)[٣] الذي آلمه ما آلت إليه أوضاع الأندلس من سوء جره عليها أمراء لا هم لهم إلا مطالبهم الذاتية من غير إعتبار لدين ولا مصلحة بل أن ابن حزم يقسم بالله أن هؤلاء الملوك "لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا إليها" ويستدل ابن حزم على هذا بما رآه في السابق من تصرفات هؤلاء الأمراء في سعيهم للبقاء على كراسيهم ، إذ بذلوا الدين والوطن ورضوا الدنية فقد مكنوا النصاري من بلاد الإسلام "فربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمرها النواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه[٤] "

---

[١] ألفونس السادس (حكم بين سنتي ١٠٦٥ - ١١٠٩م) عاصر هذا الملك عهد الطوائف وبداية عصر المرابطين واستطاع أن يدفع حركة الإسترداد إلى الأمام بإحتلاله مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥م (٤٧٨هـ).

[٢] الذخيرة: ج٥ ص ١٨٠.

[٣] أبو محمد بن حزم: عالم كبير من علماء الأمة ظاهري المذهب . من أهم كتبه كتاب "المحلى" في الفقه (الحميدي: جذوة المقتبس ج٢ ص ٤٨٩ ؛ ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٣٩٥ - ٣٩٦ ؛ الضبي: بغية الملتمس ج٢ص ٥٤٣ - ٥٤٥

[٤] رسائل ابن حزم الأندلسي ج٣ تحقيقاحسن عباس مكتبة الخانجي بمصر ص ١٧٧.

وقد اعتبر ابن حزم نظام دول الطوائف نظاماً غير شرعي على أساس أن الأمويين وحدهم أصحاب الحق الشرعي في حكم الأندلس[١] .

ومن هؤلاء العلماء الذين أحزنهم ضعف المسلمين في الأندلس الفقيه أبو حفص بن الحسن الهوزين[٢] ي. فقد تأثر هذا الفقيه تأثراً عميقاً بالهجوم المسيحي على ببشتر سنة ٤٥٦هـ وتألم للمذابح والمآسي التي عاناها السكان. فبعث إلى المعتضد بن عباد[٣] أمير اشبيليه وأقوى زعماء الطوائف ، برسائل ملتهبة حماساً يحرضه فيها على تزعم الجهاد ضد النصارى الأسبان. وشرح له في هذه الرسائل حال المسلمين السيئة حكاماً ومحكومين ومما قاله في هذه الرسائل:

أيا أسفاً للدين إذ ظل نهبة ... بأعيننا والمسلمـــون شهود

أعيذكم أن تذهبـوا فيمسكم ... عقاب كما ذاق العذاب ثمود

واقبح بذكر يستطير بأرضكم ... يؤم به أقصى البـــلاد وفود[٤]

وقد صور الفقيه ابن العسال حال المسلمين بالأندلس فهـي بائسة يملؤها القلق والرعب إذ هم ضحية لتكالب أعدائهم النصارى وجبن حكامهم ، يقول ابن عسال:

ولقد رمانا المشركـون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الإصماء

باتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبنـــاء[٥]

لكن هذا النصح وهذا الإستنكار والإستنهاض لم يجد نفعاً ولا غير وضعاً. فلقد كان أمراء الطوائف في شغل عن الشعور بعمق الأزمة وفداحة الخطب. وقد صور الشاعر حالهم تلك بأحسن تصوير إذ يقول:

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ج١ ص ١٦٩.

(٢) أبو حفص الهوزني: فقيه اشبيلي جريء لا يخشى في الحق لاومة لائم ، ونتيجة لذلك قتله المعتضد بن عباد بيده سنة ٤٦٠هـ. (ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص ١٨٢ - ١٨٤).

(٣) المعتضد بن عباد: ثاني أمراء بني عباد في اشبيليه حكم من سنة ٤٣٣ إلى ٤٦١هـ يقول عنه ابن حيان فيما ينقله عنه ابن بسام "شهاب الفتنة صاحب الحوادث الفظيعة الشنيعة والوقائع المبيرة" ويصف سياسته فيقول:"وجاء منها عبولات تذعر من سمع بها فضلاً عمن عاينها" (ابن بسام: الخذيرة ق٢ ج١ ص ١٦).

(٤) ابن بسام: الذخيرة ق٢ج١ ص ٧٥.

(٥) أبو محمد عبد الله بن العسال (ت٤٨٧هـ): فقيه غلب ليه الزهد فأشتهر به (ابن سيد: المغرب ج٢ ص٢١).

وكيف يشعر من في كفه قدح　　تحدو به مذهلات الناي والوتر

صمت مسامعه عن غير نغمته　　فما تمر به الآيات والســــور

تلقاه كالعجل معبوداً بمجلسه　　له خـــوار ولكن حشوه خـور[١]

وفي هذا الوضع المتداعي كان كل يوم من العهــد الطـائفي يحمـل كارثـة جديـدة على الإسلام وأهله في الأندلـس. وكـان سـقوط طليطلـة بيـد ألفونـس السـادس في محـرم ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) قمة هذا الإنهيار.

سقوط طليطلة و إستنجاد العلماء الأندلسيين بالمرابطين

لما كان سقوط مدينة طليطلة في يد ألفونس السادس هو السبب المباشر لإستصراخ أهل الأندلس بالمرابطين ، فإنه من المناسب أن نوضح كيف سقطت هذه القاعدة الكبرى من قواعد الإسلام وملابسات ذلك السقوط.

كانت طليطلة تحت حكم أسرة بني ذي النون من أمـراء الطوائـف. ومـن أشـهر أمراء هذه الأسرة المأمون بن ذي النون (ت٤٦٧هـ)[٢] فقد بلغت في عصره إمارة بني ذي النون ذروة مجدها وأصبح يضاهي ملك بني عباد في اشبيليه. فلمـا تـوفي خلفـه في حكـم طليطلة حفيده يحي الملقب بالقادر وكان فتى حدثاً قليل الخـبرة. وكـانت أولى سـقطاته أن تخلص من وزير جده الفقيه أبو بكر بن الحديــدي الـذي اختصـه المـأمون بـالنظر في الشؤون المالية وشؤون الرعية وإبداء الرأي والمشورة[٣] ، فقتله القادر.

وبمقتل الفقيه ابن الحديدي انقسمت طليطلة إلى فريقين متصـارعين كـل منهمـا يتربص بالآخر[٤] .

---

[١] ابن بسام: الذخيرة ج٣ ص ٢٥٦.

[٢] المأمـــون بن ذي النون (ت٤٦٧هـ) تولى الحكم في طليطلة من سنة ٤٣٥ - ٤٦٧هـ. وكان أبـرز حـدث وقع في فترة حكمه هو إلتجاء الفونس السادس إليه سنة ١٠٧٢ هرباً من أخيه سعانشو ملك قشتالة وقد أمضـى الفونس تسعة أشهر في طليطلة ، مغموراً بكرم المـأمون ورعايتـه ، إلى أن قتـل أخـوه سانشـو فعـاد إلى مملكتـه. ويبدو أن الفونس استثمر هذه المدة التي قضاها في طليطلة للتفكير في كيفية إحتلالها فدرس المدينة ووقـف على مواقع الضعف في تحصيناتها. (محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٣٩١).

[٣] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٣٤٨.

[٤] ابن بسام: الذخيرة ق٤ ج١ ص ١٥١ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٩.

في نفس الفترة تعرضت أملاك القادر لشن الغارات من ابن هود صاحب سرقسطة[١] .

وإزاء هذه المشاكل الخانقة رأى القادر أن الحل الوحيد هو أن يلجأ إلى الفونس السادس وأن يلتمس عونه وحمايته.

وكان المأمون جد القادر هذا قد إعترف بطاعة ألفونس من قبل وقبل تأدية الجزية إليه. وبالطبع حذا القادر حذوه واشتط ألفونس في مطالبه المالية التي رضخ لها القادر فضلاً عن تنازله عن بعض الحصون[٢] .

وفي سنة ٤٧٢هـ ثار أهل طليطلة على القادر فاضطر إلى الفرار والإستنجاد بألفونسو الذي إستجاب لدعوته وأعاده إلى ملكه سنة ٤٧٤هـ على رغم من أهلها[٣] .

لم تكن إستجابة ألفونس تلك حباً في القادر ولا وفاءً بسالف الود بل كانت بداية لمخطط بيته لإحتلال طليطلة. وكان هذا المخطط قائماً على إنهاك قوة طليطلة وإضعاف مواردها قبل إحتلالها[٤] . فبدأ منذ ذلك التاريخ يشن الغارات على نواحي طليطلة بحجة وبغير حجة فينتسف زروعها وأقواتها واستولى على كثير من حصونها[٥] . دامت هذه الهجمات أربع سنوات لم تجد طليطلة خلالها ناصراً ولا مدافعا.

كان أمراء الطوائف إزاء ما تتعرض له طليطلة ما بين عاجز كما هو حال المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس الذي بذل كل ما في وسعه من أجل توحيد الصف لمواجهة ألفونس. كما حاول بجيشه أن يصد هجمات ألفونس إلا أنه كان يهزم[٦] ، وفي مقابل عجز المتوكل رغم حسن نيته وطويته ، كان هناك المتمالئون الخائنون كما هو حال

---

[١] عنان: مرجع سابق ص ١٠٨.

[٢] ابن الكردبوس: الإكتفاء في أخبار الخلفاء تحقيق أحمد مختار العبادي ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ، ص ٨٣.

[٣] ابن بسام: الذخيرة ق٤ ج١ ص ١٢٤.

[٤] ابن بلقين: كتاب التبيان ص ١٠١.

[٥] أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين ص ٥٧.

[٦] المصدر السابق ص ٥٩.

المعتمد بن عباد صاحب اشبيليه ، الـذي عقد معـاهدة مـع ألفونـس يتعهـد بموجبهـا المعتمد أن يدفع جزية كبيرة إلى ألفونس ويتعهد بـالأخص بمـا هـو أهـم وهـو أن يـترك ألفونس طليقاً في أعماله ضد طليطلة وأن لا يتعـرض لمشروعه للإستيلاء عليهـا. وتعهـد ألفونس من جانبه بتقديم العون العسكري للمعتمد ضد أعدائه من أمراء الطوائف[١] .

وفي سنة ٤٧٧هـ زحـف ألفونـس السـادس علـى طليطلـة بجيـش كبـير وضـرب الحصار حول المدينة التي استسلمت له في محرم ٤٧٨هـ[٢] . وقد إتخذ الفونـس طليطلـة عاصمة لمملكته وحول جامعها إلى كنيسة[٣] .

كان لسقوط طليطلة في يد النصارى دوي عظيم ووقع أليم في نفـوس أهـل الأندلس وذلـك للأهمية الدينية والمعنوية لهذه المدينة[٤] . فلقد شعر أهـل الأندلـس بمـرارة الموقـف وتخوفـوا مـن تداعي بقية الممالك. وطغـى في البـلاد الأندلسـية تيـار تشاؤمي يعـبر أصدق تعبير عـن مخـاوف المسلمين. وقد عبر عن هذا التيار الفقيه عبد الله بن العسال بقوله:

يا أهل أندلس حثـوا مطيكم	فما المقـــام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيـرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عـــدو لا يفارقنا	كيف الحياة مع الحيات في سفط[٥]

---

[١] مجهول: الحلل الموشية ص ٤١ ؛ الحميري: الروض المعطار ص ٢٨٨.

[٢] الحميري: المصـدر السـابق ص ١٣٥ ؛ المقـري: نفـح الطيـب ج٥ ص ٨٤ ؛ ليفـي بروفنسـال: الإسـلام في المغرب والأندلس ص ١٤٦ ؛ أشباخ: ص ٥٩.

[٣] ابن بسام: الذخيرة ق٤ ج١ ص ١٦٧.

[٤] لقد كانت طليطلة عاصمة القوط قبل دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الايبرية.

[٥] لقد استوقفت هذه الأبيات أكثر من باحث لما تحمله من معاني ولمكانة صاحبها. وقد انقسـم البـاحثون إزاء هذه الأبيات إلى مفهومين وحملوها على محملين :

فالدكتور إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف ص ١٨٣) يرى أن ابن العسال استعمل هـذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة ليبالغ في التنبيه والتذكير ، أما د/عبد الرحمن الحجي (التاريخ الأندلسي مـن الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة ص٣٥١) فيرى أن الفقيه يدعو دعوة جـادة إلى الرحيـل عـن الأندلـس وأن أبياته صورة للجبن الشديد والأنانية.

والذي يظهر أن أبيات العسال إنما هي نفثة مصدور وأنة مكلوم بلغ به الأسى مداه فقال ماقال مبالغة في التنبيـه كما قال إحسان عباس. فابن العسال عالم زاهـد فـلا يعقـل أن يدعـو إلى الفـرار وتـرك الأندلـس والتـولي يـوم الزحف لما في ذلك من إثم وعقوبة أخروية.

وقد ندب الشعراء هذه المدينة بشعر يفيض أسى وحزناً[١]. لكن الأمر كان يتطلب ماهو أكثر من الندب والبكاء.

بدأ عقلاء أهل الجزيرة الأندلسية يفكرون في مخرج جدي لهذا الوضع المنذر بالزوال.

كانت الحلول المتاحة قليلة تكاد تقتصر على سبيلين لا أكثرهما:

- توحيد كلمة أمراء الطوائف لمجابهة الخطر المسيحي ونبذ الفرقة فيما بينهم.
- أما السبيل الثاني فهو الإستنجاد بالمسلمين من أهل المغرب وافريقية.

كان على العلماء وهم أئمة أهل الأندلس وزعمائهم ، أن يضطلعوا بالدور الأكبر في استكناه الحلول. لهذا سعى جماعة منهم إلى توحيد كلمة أمراء الطوائف ودعوتهم إلى إدراك خطورة المرحلة التي يعيشون فيها وفداحة نتائج تصرفاتهم على مستقبل الإسلام في الأندلس.

ومن أبرز من سعى في هذا الطريق العالم الكبير أبو الوليد الباجي الذي "رفع صوته بالإحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما أنبت من تلك الأسباب. فقام مقام مؤمن آل فرعون: لو صادف آذاناً واعية ، بل نفخ في عظام نخرة وعكف على أطلال داثرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته ، وماكان أفطن الفقيه - رحمه الله - بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم. لكنه كان يرجو حالاً تثوب ومذنباً يتوب"[٢].

---

[١] لعل أبرز ما قيل في سقوط طليطلة تلك القصيدة الرائية المجهولة القائل والتي منها:

لثكلك كيف تبتسم الثغور	سروراً بعد ما يئست ثغور
طليطلة أباح الكفر منها	حماها ان ذا نبأ كبير

(نفح الطيب للمقري ج٤ ص ٤٨٣ - ٤٨٦).

[٢] ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص ٩٥.

وقد توفى الباجي – رحمه ا لله – أثناء تأديته هذا الواجب ، سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام[١] .

ومع تردي الوضع ، واليأس من أمراء الطوائف أن تثوب حالهم أو يتوب مذنبهم ، بدأ العلماء بالتفكير جدياً في الإستعانة بالمرابطين.

لقد كانت وفود أهل الأندلس ، يتقدمهم فقهاؤهم ، قد بدأت تفد على يوسف بن تاشفين قبل سقوط طليطلة ، مستعطفين مجهشين بالبكاء[٢] . وقد كانت هذه الوفود تستعين في سعيها لدى يوسف بفقهاء بلاطه[٣] . وكان يوسف إزاء هذه المناشدات يعد خيراً.

فلما سقطت طليطلة عقد إجتماع في قرطبة حضره جماعة من فقهائها على رأسهم قاضيها عبد ا لله بن محمد بن أدهم (ت٤٨٦هـ) ، فتشاور الجمع في حال بلاد الأندلس. وما وصلت إليه من الذلة والصغار. اقترح بعض المشاركين الإستنجاد بعرب افريقية الهلاليين[٤] ولكن القاضي تخوف من وصولهم وتخريبهم للبلاد كما فعلوا بافريقية. وفي مقابل ذلك اقترح ابن أدهم أن يستنجدوا بالمرابطين فهم "أقرب إلينا وأصلح حالاً". فطلب منه المجتمعون أن يكاتب يوسف بن تاشفين وأن يستدعيه وفوضوه بالأمر[٥] .

---

[١] عياض: المدارك ج٨ ص١٢٧.

[٢] الحميري: الروض المعطار ص ٢٨٨ ؛ الحلل الموشية: ص ٣٣.

[٣] الحميري: نفس المصدر السابق والصفحة.

[٤] المقصود بعرب افريقية الهلاليين: قبائل أهمها الأثبج ورياح وزغبه وعدي كانوا في مطلع القرن الخامس الهجري يسكنون في صعيد مصر على الضفة الشرقية من نهر النيل. وفي تلك الفترة كان يلي افريقية (تونس الحالية) من قبل الدولة الفاطمية في مصر البربر الصنهاجيون المعروفين ببني زيري. وفي سنة ٤٤١هـ انقلب هؤلاء على الفاطميين وعادوا للمذهب السني وتركوا المذهب الشيعي ودعوا لبني العباس في بغداد. رأى الوزير الفاطمي البطائحي أن يرسل قبائل بني هلال إلى افريقية للإنتقام من بني زيري وقد خرب هؤلاء كل المدن التي مروا عليها مثل برقة وافريقية (أبو عبد ا لله محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار: المؤنس في أخبار افريقيا وتونس. تحقيق محمد شمام. ط٣ ١٩٦٧ ، المكتبة العتيقة تونس ص ٨٤.

[٥] ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ١٤١.

كان مؤتمر قرطبة أول إجماع للخروج بالأندلس من محنتها بزعامة الفقهاء ، وتجاوز أمراء الطوائف العاجزين. لقد أظهر هذا المؤتمر إستعداد العلماء لتحمل مسؤولياتهم التاريخية في المحافظة على بقاء الأندلس الإسلامية ، وألا يظلوا مكتوفي الأيدي في هذا الظرف الحاسم.

يبدو أن خبر هذا المؤتمر قد وصل إلى المعتمد بن عباد ، وكانت قرطبة إحدى توابع ملكه ، فقدم إلى قرطبة من اشبيليه. ويمكن أن نتصور بسهولة الحرج الذي أصبح فيه المعتمد غداة هذا المؤتمر. فهو الآن بين عدو يسومه الخسف ويشتط عليه في المطالب المهينة والمذلة[١] ، ورعية فقدت ثقتها فيه وفي قدرته على الدفاع عنها.

لهذه المعطيات تقرر عند المعتمد ضرورة الإستنجاد بالمرابطين ، مسايرة لهذه الرعية ونكاية في ألفونس. أما كون المعتمد قد أحس بالندم على ما قام به من دور مشين في سقوط طليطلة فأراد تكفير ذلك بإستدعاء المرابطين[٢] ، فلا يبدو جلياً ، إذ أن تدخل المرابطين وعبورهم إلى الأندلس كان قد أصبح لا مفر منه سواء أذن المعتمد بذلك أم لم يأذن. لذا فقد انصب تفكير المعتمد على كيفية الإستفادة من هذا الإستدعاء في توطيد ملكه وإدامة صفو ترفه.

فلما وصل المعتمد إلى قرطبة أعلمه القاضي ابن أدهم بأمر الإجتماع وما دار فيه ، فاستصوبه المعتمد[٣] . ويبدو أن النتيجة التي وصل إليها المعتمد بضرورة الإستنجاد بالمرابطين ، قد وصل إليها معظم أمراء الطوائف إلا أن المعتمد كان أول من بادر منهم إلى هذه الخطوة[٤] . وندب باقي أمراء الطوائف لتشكيل وفد لإرساله إلى يوسف. وبالفعل تشكل وفد من العلماء يضم كلاً من قاضي قرطبة أبي بكر بن أدهم وقاضي

---

[١] من هذه المطالب المهينة طلب الفونس من المعتمد السماح له بإدخال امرأته القمطيجة Condesa إلى جامع قرطبة لتلد فيه بناء على نصيحة الأساقفة الذين ادعوا أن كنيسة معظمة عندهم كانت قائمة في مكان جامع قرطبة. (الحميري: الروض المعطار ص ٢٨٨ ؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام ج٢ ص ١٥٩).

[٢] يوسف حواله: بنو عباد في اشبيليه ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

[٣] ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ١٤١.

[٤] محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٣١٧.

غرناطة ابن القليعي وقاضي يطليوس ابن مفاذا وحمل هذا الوفد رسالة إلى يوسف تبين حال الأندلس ويدعوه إلى الجواز إليها لإنقاذها من النصارى[١] .

أفلح هذا الوفد في إقناع يوسف بن تاشفين بضرورة الجواز إلى الأندلس لجهاد النصارى. وقد لبى الوفد بعض الشروط التي اشترطها يوسف[٢] .

ويبدو أن فكرة الجواز إلى الأندلس بغرض الجهاد كانت تراود يوسف بن تاشفين قبل هذا الإستدعاء الأخير. فقد ذكر الحميري[٣] أن يوسف بن تاشفين طلب من صاحب سبتة الإذن لجيوشه في العبور قصد الغزو ونصرة أهل الأندلس. فرفض صاحب سبتة يحي البرغواطي[٤] "فشكاه يوسف إلى الفقهاء فافتوا أجمعين بمالا يسر صاحب سبتة" أي قتاله. وقد فتحت سبتة سنة ٤٧٧هـ[٥] . أي قبل سقوط طليطلة.

دور العلماء في موقعة الزلاقة

لقد أسفرت المراسلات بين أهل الأندلس والمرابطين ، والتي تزعمها الفقهاء في كلتا العدوتين: الأندلسية بأن رفعوا ضرورة الإستنجاد بالمرابطين ثم أقنعوا الأمراء بهذا الرأي. وفي العدوة المغربية اقنع الفقهاء أمير المسلمين بضرورة نصرة أهل الأندلس وأن ذلك واجب عليه[٦] . أسفرت هذه المراسلات والوفود عن جواز أمير المسلمين يوسف بن

---

[١] مجهول: الحلل الموشية ص ٤٥ - ٤٦.

[٤] يحي البرغواطي: ابن سقوط. كان والده سقوط (ت٤٧٠) مولى من موالي الحموديين وقد تمكن سقوط من التفرد بحكم سبتة وطنجة منذ سنة ٤٥٣هـ وولى ابنه يحي هذا المتلقب بالحاجب حكم سبتة في حين إستقر هو بطنجة ، وقد إنتهى حكم هؤلاء البرغواطيين بسقوط طنجة في يد المرابطين سنة ٤٧٠هـ ومقتل سقوط الذي كان يدافع عنها ببسالة وقد تجاوز عمره التسعين سنة ثم سقوط سبتة في أيديهم سنة ٤٧٧هـ (محمد بن تاويت: تاريخ سبتة ص ٣٩ - ٥١).

[٣] الحميري: الروض المعطار ص ٨٦ ؛ ابن الأبار: الحلة البيراء ج٢ ص٩٨.

[٢] من هذه الشروط تسليم الجزيرة الخضراء ، وكانت تابعة للمعتمد ، لتكون قاعدة للمرابطين يعبرون عن طريقها بأمان ولحماية خطوط تموينهم ويبدو أن المعتمد تلكأ في الإستجابة لهذا الشرط ثم قبله في النهاية (مجهول: الحلل الموشية ص ٤٩ ؛ ابن زيري: التبيان ص ١٢٢).

[٥] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٤٤.

[٦] ابن الأبار: المصدر السابق ص ٩٩.

تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٧٩هـ. وقد اغتبط العلماء لهـذا الجـواز إذ اعتـبروه نصـراً في حد ذاته[١].

إننا هنا لن نسـتعرض التفـاصيل[٢] بـل نكتفـي بـالقول أن يوسـف لما جـاز إلى الأندلس كان أول من تلقاه من أمرائها المعتمد بن عباد الذي أكرم أمـير المسـلمين ودعـاه إلى النزول إلى اشبيليه للراحة من الرحلة. لكن ابن تاشفين اعتذر له قائلاً: "إنما جئـت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه"[٣].

في تلك الأثناء كان ألفونس السادس يحاصر سرقسطة فلما بلغه جواز يوسف بـن تاشـفين رفع الحصار عنها وبدأ يحشد القوى النصرانية ويستنجد بأمم مسيحية أخرى فوفدت إليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية ، وتحـالف مـع سانشـورا مـيرث ملـك أرغـون والكونـت برنجار ريموند فأنضما إليه بقواتهما. وتكون من الجميع جيش جرار[٤].

والتقى الجيشان المرابطي ، وقد انضمت إليه قوات المعتمد وبعض السـرايا الـتي بعثها بعض من أمراء الطوائف مثل ابن صمـادح صـاحب المريـة وابـني بلقـين صـاحبي غرناطة ومالقة الذين حضـرا بأنفسـهما والجيـش المسـيحي ، ألتقيـا شمـال بطليـوس في فحص الزلاقة (Sacralias)[٥] حيث دارت معركة كبرى من معارك الوجود الإسلامي في الأندلس.

---

[١] لقد عبر عن هذا الشعور الفقيه ابن القليعي إذ أعتبر أن هذا الجواز وقع على "رغـم أنـوف الفسـقة سـلاطين الأندلس" (ابن بلقين: التبيان ص ١٣٤).

[٢] كثيرة هي الكتب التي تحدثت عن موقعة الزلاقة ومنهـا: ابـن بسـام: الذخـيرة ق٢ ج١ ص ٢٤١ - ٢٥٦ ؛ عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١٢١ - ١٢٥ ، مجهول: الحلل الموشية ص ٣٩ - ٦٦ ؛ المراكشي: المعجب ص ١٩٥ - ٢٠٠ ؛ الحميري: الروض: مـادة الزلاقـة ؛ ابـن أبـي زرع: زرع القرطـاس ص ١٤٥ - ١٥٢ ؛ ابـن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٨٣.

[٣] المراكشي: المعجب ص ١٣٢.

[٤] لقد اختلف المؤرخون في عدد جيش النصـارى المشـاركين في موقـع الزلاقـة فيحـدده ابـن ابـي زرع (روض القرطاس ص ١٤٩) بمئة وثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل ويقدره صاحب الحلل الموشية (ص٥٦) بثمـانين ألف فارس دون غيرهم ، أما ابن الأثير (الكامل ج٨ ص ١٤٣) فيحدد العدد بخمسين ألف.

[٥] مجهول: الحلل الموشية ص ٥٦ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٦.

فمع فجر يوم ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ باغتت قوات ألفونس معسكرات أهل الأندلس ، فانهزم هؤلاء عند أول لقاء ودارت عليهم الدائرة ، وأرسل ابن عباد عند ذاك كاتبه ابن قصيره إلى يوسف بن تاشفين ، فركب يوسف من فوره على رأس قواته وقصد محلة ألفونس "فاقتحمها وأضرمها ناراً وضرب طبوله فاهتزت لها الأرض وتجاوبت الآفاق ، فارتاعت لها قلوبهم وتخلخلت أفئدتهم ، ورأوا النار تشتعل في محلتهم. وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم ، فسقط في أيديهم فألووا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم فالتحمت الفئتان واشتدت الكرة وعظمت الهجمات"[١] .

وقد أشرك الأمير يوسف بن تاشفين في المعركة حرسه الخاص وهم فرقة العبيد ، وكانوا مسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط فانقضوا كالصاعقة على قوات النصارى ، وتمكن أحدهم من طعن ألفونس في فخذه طعنة بالغة لازمه أثرها بقيه عمره[٢] .

دامت المعركة بين الطرفين يوماً واحداً أسفر عن هزيمة ساحقة للقوات النصرانية. فقد كان موضع المعترك على إتساعه ، ماكان فيه موضع قدم إلا على ميت أو جريح[٣] .

وتمكن ألفونس بعد إصابته من الفرار في جماعة قليلة من جنده[٤] .

لقد إنتصر المرابطون في هذا اليوم إنتصاراً عظيماً عم به الفرح والسرور في بلاد الأندلس والمغرب وإعتبرت في معارك المسلمين الكبرى والمفاخر العظمى للمرابطين يقول القاضي ابن العربي: "ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة ... لكان ذلك من أعظم فخرهم"[٥] .

---

[١] مجهول: الحلل الموشية ص ٦٠ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٨.

[٢] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص ١١٧ ؛ الحلل الموشية: ص ٦١.

[٣] الحميري: الروض المعطار ص ٢٩١.

[٤] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٨ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٤٤ ؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٨٦.

[٥] مجهول: الحلل الموشية ص ١٤٠.

كانت عظمة هذه المعركة في كونها أحيت الأمل في قلوب المسلمين بالأندلس بعدما كاد يقضي عليهم اليأس. وقد كان للعلماء في هذه المعركة دور كبير وحاسم إبتداءاً بالتهيئة كما رأينا سابقاً ثم بالمشاركة الفعلية حيث بذل العلماء جهدهم في وعظ المسلمين وحضهم على الصبر والثبات وترغيبهم في ما عند الله من أجر عريض وتحذيرهم من الفشل والتولي يوم الزحف[1] .

وقد استشهد في هذه المعركة جماعة من العلماء منهم: قاضي مراكش أبو مراون عبد الملك المصمودي ورفيقه الفقيه أبو محمد يعلى المصمودي الذي كان قاضياً بالعدوة[2] . وممن استشهد كذلك الفقيه أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[3] وكان من أهل العلم والورع والفضل قال عنه ابن بشكوال: "وأستشهد بالزلاقة مقبلاً غير مدبر"[4] .

وممن أستشهد أيضاً الفضل ■ ولد الحافظ أبي محمد بن حزم وكان من أهل العلم[5] ، أما الذين حضروا المعركة من العلماء المرابطين فكثير كان في طليعتهم قاضي الجماعة بمراكش يوسف ابن الملجوم والفقيه أبو مروان العذري والفقيه أبو بكر بن القصيرة الذي خلف لنا احدى الروايات الميدانية عن معركة الزلاقة[6] .

العلماء وجهودهم في توحيد العدوتين

شكلت معركة الزلاقة منعطفاً مهماً في تاريخ الأندلس والمغرب الإسلامي. وقد خلقت لدى الأندلسيين أملاً في مستقبل ينحسر فيه الخطر المسيحي الداهم ويحل فيه

---

[1] المقري: نفح الطيب ج٦ ص ١٤٥.

[2] ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر٨ ق٢ ص٤٢٥.

[3] ذكر الحميري فيما نقله عنه المقري في نفح الطيب ص ١٤٥ أن الفقيه ابن رميلة رأى ليلة معركة الزلاقة وكانت ليلة جمعة رؤيا بشره فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر المسلمين صبيحة تلك الليلة والشهادة له هو ، فتأهب ابن رميلة ودهن رأسه وتطيب.

[4] الصلة: ج١ ص ١١٨.

[5] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٦٧٨.

[6] ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص ٢٤١ ؛ وقد اعتمد ابن بسام على رواية ابن القصيرة لمعركة الزلاقة. وقد اعتمدنا على كثير من ذلك في ما أوردناه عن الزلاقة. (الذخيرة: ق٢ص ٢٤١ - ٢٥٦).

العدل والرخاء الإجتماعي والإقتصادي لقد برهنت الزلاقة أن التفوق المسيحي نسبي ، وأن إمكانية قهره ممكنة إذا توفرت النية الحسنة والقوة ووحدة الكلمة.

لكن هذه المعركة أثارت في أعماق النفوس سؤالاً شائكاً وهو هل بإستطاعة الكيانات السياسية القائمة أي دول الطوائف الإيفاء بمتطلبات هذا الأمل المنشود؟.

وبإستقراء سريع كان الأندلسيون يقفون أمام الحقيقة المرة وهي إفتقار هذه الكيانات إلى القوة وتخاذلها عن الوحدة ومجانبتها للنية الحسنة.

لم يكن من المعقول بالنسبة للأندلسيين وعلى رأسهم علماؤهم الرجوع إلى الحال السابقة لمعركة الزلاقة ، وكأن شيئاً لم يحدث.

كان الأندلسيون وبالخصوص العلماء والفقهاء يريدون لمعركة الزلاقة أن تكون بداية التغيير إلى غد أحسن. وفي مقابل ذلك كان ملوك الطوائف العاجزين عن تحقيق الأحسن يريدون أن يكون غدهم مواصلة لأمسهم اللاهي المتخاذل وأن تكون معركة الزلاقة حدثاً عقيماً بلا نتائج.

في ظل هذا التجاذب بين رغبة أمراء الطوائف في تجميد الأوضاع على ماهي عليه من سوء وبين طموح الرعية في تغيير الحال إلى الأصلح ، إنضم العلماء إلى تيار الأمل الواعد هذا. لقد إلتزم العلماء في الأندلس في معظمهم الحياد السلبي من مجريات الأمور في دول الطوائف قبل معركة الزلاقة. ولعل مرد ذلك إلى أن هؤلاء العلماء لم يكونوا يتوفرون على البديل[1] . أما الآن بعد معركة الزلاقة ، وقد وجدوا البديل متمثلاً في دولة المرابطين وما تحمله من مبادىء إسلامية وأميرها يوسف بن تاشفين ، فقد ترك العلماء مواقفهم السلبية.

لهذا فما كاد أمير المسلمين يوسف يعود إلى المغرب ، تلك العودة المفاجئة[2] التي منعت المرابطين من أن يجنوا ثمار النصر كاملاً وأن

---

[1] ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي ص ٨٦.

[2] لقد إختلف المورخون في السبب أو الأسباب التي أدت بيوسف إلى الرجوع بسرعة إلى المغرب فقد ذهب كثير منهم إلى أن سبب عودته هو موت إبنه الأمير أبو بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٢ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ٦٦ ؛ أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٨٩) فيما يرى البعض أن إضطرابات حصلت على الحدود الشرقية للدولة المرابطية هي التي أدت إلى سرعة رجوع يوسف (عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص ٥٧) على أن حسن محمود (قيام دولة المرابطين ص ٢٨٦) يرى أن سبب رجوع الأمير يوسف هو موت ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر. وهذا الإحتمال الأخير مستبعد لأن الأمير توفى سنة ٤٨٠هـ والذي يبدو صحيحاً هو التعليل الأول.

يجعلوا من معركة الزلاقة أكثر من صدمة قوية للأسبان ، إذا ما كاد يعود حتى بدأ الطرفان المؤثران في الأحداث الأندلسية : الأمراء والعلماء كل يسعى لتحقيق أهدافه السابقة الذكر.

فقد عاد أمراء الطوائف إلى سيرتهم الأولى من الإختلاف فيما بينهم والإتصال بالعدو وأداء الجزية رغم ما تعهد به هؤلاء الأمراء في الإجتماع الذي دعاهم إليه يوسف قبل انصرافه إلى المغرب وطلب منهم فيه الإتفاق والإتحاد ضد عدوهم المشترك الأسبان الذي استغل تشتتهم ، وقد قرر الأمراء في الإجتماع قبولهم لهذه الوصية وأنهم سيسعون لتحقيق رغبة أمير المسلمين[١] . وفي سبيل محاربة هذا العدو ترك لهم أمير المسلمين ثلاثة آلاف جندي بقيادة سير بن أبي بكر[٢] .

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الأمراء إضطربت الأحوال من جديد في الأندلس وبدأ النصارى يستعيدون بعض قوتهم وركزوا عدوانهم على شرقي الأندلس: بلنسيه[٣] ومرسية ولورقة[٤] فبثوا الرعب. وقد اتخذ النصارى من حصن لييط (أليدو) المنيع قاعدة لتلك الهجمات وذلك العيث. وقد شحنه ألفونس بالرجال والسلاح[٥] .

أما العلماء فقد إزدادوا قناعة مع هذه الأزمات الجديدة بأن لا سبيل لنجاة الأندلس وخلاصها مما هي فيه من كرب سوى الإلتجاء إلى عاهل المرابطين. فبدأت الكتب والوفود تترى على يوسف طالبين الإنجاد والغوث[٦] . فأصغى إليهم أمير

---

[١] ابن بلقين: التبيان ص ١٢٥.

[٢] المقري: نفح الطيب ج٦ ص ١٠٤ ؛ إبن الأبار: الحلة السيراء ص ٣٥٦.

[٣] كانت بلنسية تابعة بحكم الواقع للقشتاليين عن طريق صنيعتهم القادر بن ذي النون حاكم طليطلة السابق ، وكان القادر يستعين في حكمها بخدمات المغامر القشتالي السيد Cid وإسمه الحقيقي هو رود ريغوديات لقاء مبلغ من المال (عن هذا المغامر المشهور يمكن الرجوع إلى: ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ١٦٥ - ٢٣٧).

[٤] كانت هاتان المدينتان تتبعان للمعتمد بن عباد.

[٥] مجهول: الحلل الموشية ص ٦٧ ؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٥٢.

[٦] مجهول: الحلل الموشية ص ٦٧.

المسلمين ووعدهم خيراً. وكان ذلك سنة ٤٨١هـ[١] وكما حدث قبل الزلاقة استنجد المعتمد بن عباد أيضاً بيوسف فعبر إلى المغرب وشرح لأمير المسلمين الحالة الحرجة التي يعاني منها أهل الأندلس و"عظم له شأن لييط وأنه في قلب البلد وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقده"[٢] . إلا أن هذا المقصد الحسن لم يكن كل الهم الذي أشخص المعتمد إلى المغرب بل كانت هناك مآرب ومكاسب ذاتية يسعى لتحقيقها ومن أهمها إستعداء المرابطين على ابن رشيق[٣] الذي يرى المعتمد أنه غصبه حقه المكتسب في السيادة على مدينة مرسية[٤] .

رأي أمير المسلمين يوسف أن واجبه الديني يحتم عليه تلبية النداء من جديد وأن يفزع لنصرة المسلمين في الأندلس ، فجاز إلى الأندلس في منتصف عام ٤٨١هـ وبعث إلى رؤساء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ويحدد لهم اللقاء عند حصن لييط[٥] .

لبى أمراء الطوائف نداء أمير المسلمين يوسف واتجهوا بقواتهم نحو لييط[٦] . فشرع الجميع في مهاجمة الحصن حيث أطبقوا عليه من كل جهة ونصبوا حوله المجانيق وشنوا عليه الغارات ولم يتركوا فناً من فنون الحصار إلا إستعانوا به ولكن الحصن كان منيعاً[٧] .

---

[١] ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٥٢.

[٢] ابن بلقين: التبيان ص ١٢٦.

[٣] عبد الرحمن بن رشيق القشيري: مغامر طموح ، كان عاملاً على حصن بلج بمقاطعة لورقة ولما أخفق ابن عمار وزير المعتمد بن عباد في محاولته الأولى للإستيلاء على مرسية إستعان بابن رشيق الذي نجح في الإستيلاء على المدينة ٤٧١هـ ثم إنتهز ابن رشيق الفرصة حين دب النزاع بين أبن عمار والمعتمد فوطد مركزه بتولية أقربائه على الحصون المجاورة للمدينة. ثم إستبد ابن رشيق بالمدينة إلى أن ازاحه المرابطون وسلموه للمعتمد سنة ٤٨١هـ (ابن الأبار: الحلة ج٢ ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٢).

[٤] ابن بلقين: التبيان ص ١٢٧.

[٥] حصن لييط أو لبيط ويدعوه الأسبان بـALEDO: يقع بين مرسية ولورقة. وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم وكان ضمن أملاك المعتمد بن عباد (مجهول: الحلل الموشية ص ٦٧).

[٦] الحلل الموشية ص٦٨ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٢ ؛ عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١٢٧.

[٧] الحلل الموشية ص٦٩.

وقد دام حصار حصن لييط مدة أربعة أشهر[١] ثم رفع يوسف الحصار عن لييط وقفل راجعاً إلى بلاده بعد ما آيس من سقوطه ، وبعد ما خانه أهل مرسية فقطعوا عنه الإمدادات الغذائية[٢] .

شكلت غزوة لييط مرحلة هامة من تاريخ الأندلس. ففي أشهر الحصار تلك تبين أمير المسلمين يوسف حقيقة أمر أمراء الطوائف وصدم لما رآه من خلاف ووقيعة وتنابذ بينهم.

وقد برز من هذه الخلافات على الأخص خلاف المعتمد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين واتهمه بإغتصاب الولاية منه على مرسية واتهمه بما هو شر من ذلك وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً وأنه دفع إليه جباية مرسية[٣] وأنه يعاون النصارى المدافعين عن حصن لييط في السر[٤] .

وكعادته أحال أمير المسلمين الأمر إلى العلماء ليروا فيه رأيهم فجاءت فتاويهم بإزاحة ابن رشيق واسلامه للمعتمد فأمر يوسف بتسليم ابن رشيق إلى المعتمد واشترط على المعتمد أن يبقي على حياته[٥] . إلا أن أخطر ما دار أثناء تلك الغزوة هو ما قام به العلماء من دور تحريضي على أمراء الطوائف. فقد قام عدد من الفقهاء بتنبيه أمير المسلمين ولفت نظره إلى ما عليه أمراء الطوائف من فساد وجور. وقد أثار العلماء لدى يوسف مسألة الضرائب المفروضة على الأندلسيين من طرف أمرائهم وبينوا له فداحتها ومنافاتها للشرع[٦] . وقد وصف لنا ابن حزم بعضاً من هذه الضرائب المفروضة من طرف أمراء الطوائف بقوله : "فإنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها قطيعاً ، كجزية

---

[١] ابن أبي زرع: المصدر السابق ص ١٥٢.

[٢] الحلل الموشية: ص٧٠ ؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق ص ١٥٢

[٣] الحلل الموشية: ص ٦٩ ؛ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٣٣٦.

[٤] عبد الله بن بلقين: المصدر السابق ص ١٢٩

[٥] الحلل الموشية: ص ٧٠.

[٦] ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ص ١٨٩.

اليهود والنصارى يؤدونها مشاهرة[1] وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس وعلى كل خلية شيء ما ، وقبالات ما ، تؤدى على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد. هذا كل ما يقبضه المتغلبون اليوم وهو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد والتخلي من الله عز وجل"[2] .

وقد قصمت هذه الضرائب ظهر الرعية فطلب العلماء بالأندلس من يوسف رفع هذه المكوس والظلامات عن الرعية ، فتقدم بذلك إلى أمراء الطوائف فتظاهروا بالإمتثال[3] .

وبطبيعة الحال لم يكن في وارد ملوك الطوائف قبول التخلي عن هذه الضرائب الثقيلة لأنها كانت تشكل الوسيلة الوحيدة لتغطية مصاريف ترفهم وأداء الجزية التي فرضها عليهم الحكام المسيحيون.

وقد قام الفقهاء في فترة حصار لييط بدور الوسيط بين الرعية من الأندلسيين وأمير المسلمين يوسف. فقد أتت هذه الرعية "أفواجاً شاكين وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط"[4] ومن أبرز من سعى وجاهر بمعائب أمراء الطوائف الفقيه أحمد بن القليعي.

وابن القليعي هذا يحتاج منا إلى وقفة لما كان له من دور في إمارة غرناطة. لقد اشتهر ابن القليعي بالعلم والإستقامة والورع وقد وصفه ابن بشكوال بأنه: "كان ثقة صدوقاً أخذ الناس عنه"[5] . وقد أورثه هذا العلم والورع كره الظلم ، ولاشك أنها سجية وخلق لدى كل من كان مثله في العلم والورع ، لكن هذا الخلق والصفة كانت في ابن القليعي أكثر وضوحاً وبروزاً بحيث نعته بها مترجموه. فقد وصفه الإمام ابن

---

[1] مشاهرة: أي كل شهر.

[2] رسائل بن حزم: ج٣ ص ١٧٤.

[3] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٧.

[4] الأمير عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١٢٧.

[5] الصلة: ج١ ص ٧٥ الترجمة ١٥٧.

عطية بقوله: "وكان رحمه الله شيخ فضل وصدق موقوفاً على حوائج المظلومين والمضطهدين"[١] .

وعندما يوقف العالم نفسه على إزالة الظلم والإضطهاد فلابد أن يصطدم بمصادر هذا الظلم والطغيان. ويبدو أن هذا ماحدث بالفعل لإبن القليعي مع أمراء غرناطة إبتداءً من باديس (حكم من ٤٢٨ إلى ٤٦٥هـ) الذي كان يخاف من هذا الفقيه ومبادئه. ولذلك جعله في شبه إقامة جبرية طيلة حكمه فقد "كان لا يدعه في المدينة ويأمره بسكنى ضيعته"[٢] . وفي نفس الوقت كان يبحث عن وسيلة للتخلص منه ، "ويتملط سيفه لقتله فحماه الله منه بالعلم"[٣] .

أما حفيد باديس عبد الله بن بلقين فحاول الإستفادة من مكانة ابن القليعي وعلمه عندما ظهر المرابطون فجعله وزيره وسفيره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٤] .

ولاشك أن ابن القليعي سر بهذه السفارة إذ أتاحت له فرصة الإتصال بالمرابطين وأميرهم يوسف. وقد توطدت العلاقة بين ابن القليعي وأمير المسلمين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان ابن القليعي أحد أعضائها[٥] .

وقد أدرك هذا الفقيه منذ معركة الزلاقة أن يوسف بن تاشفين هو الأمل الوحيد للأندلسيين وأنه يجب بذل كل جهد لإقناعه بوضع حد لمهازل أمراء الطوائف. فلما كان حصار لييط وضع هذا الفقيه خباءه قرب أمير المسلمين وجعل من هذا الخباء مركزاً للتشهير بأمراء الطوائف والتحريض عليهم. وقد وصف الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة خباء ابن القليعي في حصار لييط بأنه "صار بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد يجد بهم السبيل إلى الطلب ، للقدر الذي قدره الله"[٦] .

---

[١] الفهرس: ص ٦٩.

[٢] ابن بلقين: التبيان ص ١٣٤.

[٣] ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ١٤٧.

[٤] ابن بلقين: التبيان ص ١٣٤.

[٥] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٩٨ ؛ الحميري: الروض المعطار ص ٢٨٨.

[٦] التبيان: ص ١٢٧.

وكان ابن القليعي يحث الرعية علـى الإمتنـاع عـن دفـع المغـارم الـتي يطـالبهم بدفعها الأمراء مما أوقع بعضاً من هؤلاء في حرج وعسر مادي[١] . ولم يخف ابن القليعي نواياه بل جاهر بعداء الأمراء وأظهر نواياه اتجاههم[٢] .

وقد عظم على الأمراء موقف العلماء الذي اتخـذوه فرامـوا تـلافي الأمـر بإسـتمالة هؤلاء. فقد قام تميم بن زيري أمير ملقة بأرسـال مبلـغ كبـير مـن المـال إلى القـاضي أبـو الأصبغ عيسى بن سهل[٣] ، يستعطفه به. وقد رده ابن سهل ورفض قبوله[٤] .

ولم يكن الترغيب وحده وسيلة أمراء الطوائف لتغيير مواقف العلمـاء بـل لجـؤوا كذلك إلى الترهيب. فبعد حصار لبيط اعتقل الأمير عبد ا لله بن بلقين الفقيه ابن القليعي لفترة من الزمن[٥] .

لم تكن مسألة الضرائب والمكوس هي التهمة الوحيـدة الـتي قدمهـا العلمـاء ضـد أمراء الطوائف بل قدموا تهمة أخطر هي إتهام أمـراء الطوائـف بالخيانـة لتعـاملهم مـع ألفونس السادس ومداخلتهم له وتقديمهم الجزية له حتى بعد هزيمته في معركة الزلاقـة. وأعتبر العلماء هذا المسلك منافياً للشرع الإسلامي[٦] .

لقد أثرت هذه الحملة التي شنها العلماء علـى أمـراء الطوائـف ، في نفـس أمـير المسلمين يوسف وبدأ يفكر جدياً في المسلك الذي ينبغي أن يسلكه مع هؤلاء الأمراء وهذه الأرض المسلمة : هل يتركها لمصيرها فريســـــة عـــدو كلب حاقد وأمراء قاصري الهمة

---

[١] عبد ا لله بن بلقين: التبيان ص ١٢٨.

[٢] نفس المصدر السابق: نفس الصفحة.

[٣] أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسـدي (ت٤٨٦هـ): مـن أبـرز فقهـاء المالكيـة بـالأندلس في القـرن الخـامس الهجري. تولى القضاء بطنجة ومكناسة ثم غرناطة وقد اشتهر ابن سهل بمصنفه (ديوان الأحكام الكـبرى) وهـو كتاب جمع فيه الفتاوى التي صدرت إبان خلافة قرطبة (عياض: المدارك ج٨ ص١٨٣ ؛ ابـن بشـكوال: الصلـة ج٢ ص ٤١٥الترجمة رقم ٩٤٢).

[٤] عبد ا لله بن بلقين: التبيان ص ١٣٢.

[٥] ابن بلقين: المصدر السابق ١٣٤ - ١٣٥.

[٦] أحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي ص ١٨٩.

عـاجزي الحـول؟ أم يتدخـل إسـتجابة لإسـتغاثة ونـداء العلمـاء ومـن ورائهـم الشـعب الأندلسي ليزيح هؤلاء الأمراء وينقذ الأندلس.

دور العلماء في إسقاط أمراء الطوائف وتوحيد العدوتين

كانت حصيلة غزوة لييط غصة في نفس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فقد تكشفت له حقيقة أمراء الطوائف وماهم عليه من تناحر وتخاذل عن الدفاع عن حرمة بلادهم ، وماهم عليه من ترف وإنغماس في اللذات. كما تكشفت له وضعية الرعية المضطهدة المثقلة بالضرائب غير الشرعية. وقد شخص له علماء الأندلس الداء اللاحق بهم وأن لا سبيل إلى شفاء الأندلس إلا بإجتثاث هؤلاء الأمراء. ويبدوا أن يوسف قد اقتنع برأي العلماء الأندلسيين وإستقر رأيه على ضرورة التخلص من هؤلاء الأمراء.

إلا أن يوسف لم يكن ليقدم على أمر بهذه الخطورة حتى يستفتي أكبر عدد ممكن من العلماء ليطمئن إلى سلامة موقفه بمطابقته لشرع ا لله.

وبالفعل استفتى يوسف العلماء في العدوتين المغرب والأندلس في شأن هؤلاء الأمراء وإنتزاع الأمر من أيديهم وشرعية إزاحتهم عن كاهل الأمة. وقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم وإزاحتهم[١] . وبأنه في حل مما تعهد لهم به من الإبقاء عليهم في جوازه الأول[٢] ، لأنهم خانوا ا لله بمعاهدتهم ألفونس على محاربة المسلمين وبالتالي فإن عليه أن يبادر إلى خلعهم جميعاً "فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم ، أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي ا لله"[٣] . ثم أن الإبقاء على هؤلاء الأمراء لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد[٤] . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٥] . وكان ممن استفتى في هذا الموضوع الفقيه يوسف بن عيسى المعروف بان الملجوم وقد اتسمت فتواه بالموضوعية والبعد عن النفاق. وقد ذكر له يوسف بن تاشفين في حيثيات

---

[١] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٦.

[٢] ابن بلقين: التبيان ص ١٢٣.

[٣] ابن الكردبوس: الإكتفاء ص ١٠٦.

[٤] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ١٨٧.

[٥] نجم الدين سليمان بن سعيد الطوفي: شرح مختصر الروضة تحقيق د. عبد ا لله التركي ج١ ص ٣٣٥

سؤاله بأن هؤلاء الأمراء يتظاهر بعضهم على بعض بالنصارى وأنهم يضربون على المسلمين مالا يطيقون من المكوس والمغارم وأنهم تركوا الجهاد وصالحوا النصارى وباعوا لهم آلة الحرب من خيل وسلاح وأقوات فأجابه: بأن من كان من الملوك مصراً على هذه الأوصاف وموجوداً في الوقت إمام أعدل منه عار من تلك الأوصاف مؤتمن من إرتكاب ذلك وهو قادر على قتال المتغلب على المسليمن الموصوف بما ذكر فله قتاله وعزله عن ولايته عن المسلمين..."[١] .

وقد أيد فتوى علماء المغرب والأندلس علماء أجلاء آخرون منهم الإمام الغزالي والإمام الطرطوشي. يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف: "...فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة ، ولاسيما وقد استنجدوا بالنصارى...."[٢] .

لقد أدت هذه الفتاوى إلى ترجيح كفة التدخل المرابطي في الأندلس ، فأمير المسلمين يوسف بسبب تقواه وورعه لم يكن ليتراجع عن هذا القرار بعد أن أوجبه عليه الشرع.

لم يكن التدخل المرابطي في الأندلس قصد ربح مادي ولا مكسب اقتصادي بل كان جهاداً في سبيل الله أملاه حق نصرة المسلم[٣] .

إن مفهوم الأمة الواحدة الذي تشبث به المرابطون منذ قيام دولتهم وجعلهم يعلنون تبعيتهم للخلافة العباسية ، رغم ما كانت عليه من ضعف ، جعل مسألة السيادة والإستقلال بالنسبة للكيانات الإسلامية الصغيرة مسألة نسبية مرتبطة بالقدرة

---

[١] مجهول: بيوتات فاس الكبرى ص١٥.

[٢] رسائل أبي بكر بن العربي: تحقيق د.عصمت دندش ص ١٩٨ (نشرتها ملحقة بكتابها دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا).

[٣] ويكفي هنا أن نورد نص كلام يوسف بن تاشفين الذي يبين فيه دوافعه إلى إحتلال الأندلس إذ يقول "...إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ؛ لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ؛ وغفلة ملوكهم وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم للراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين....) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٤١.

على حماية الوجود الإسلامي في الرقعة التي يوجد فيها تلك الكيانات ثم إقامة العدل في الرعية بتحكيم شرع الله فمتى انخرمت هذه العلة بطل السبب وهو السيادة والإستقلال.

لم تكن حال يوسف بن تاشفين مع أمراء الطوائف ببعيدة عن معنى المثل الذي ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"[1] .

فلو أن الأمير يوسف بن تاشفين ومعه العلماء تركوا هؤلاء الأمراء الخائنين وشأنهم ، بحجة إحترام السيادة والإستقلال ، لخرقوا وأفسدوا نصيبهم من سفينة الأمة.

والأدهى من ذلك أن الضرر الناشيء عن ذلك ليس قاصراً على هؤلاء الأمراء بل هو منجر على غيرهم. وهذا بالفعل ما حدث بعد ذلك فالنصارى في اسبانيا ما كادوا يحتلون اسبانيا ويعيدوها دار كفر ، نتيجة تصرفات أمراء السوء ، حتى بدأ شر هؤلاء النصارى يطول مناطق أخرى في العدوة المغربية. وليست سبته التي يحتلها الأسبان إلى اليوم إلا مثالاً على ذلك.

فبسط السيطرة المرابطية على الأندلس إذا كان عملاً دينياً ذو هدفين دفاعي آني لحماية ما تبقى من الأندلس الإسلامية. وهدف إستراتيجي بعيد المدى وهو حماية المغرب الأقصى من هذه الهجمة الصليبية الحاقدة[2] .

إطمأن يوسف إذن إلى سلامة قرار إزاحة أمراء الطوائف ، فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣هـ وذلك برسم الجهاد[3] . وسار تواً إلى طليطلة فأغار على أحوازها وضرب

---

[1] ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري المجلد ٥ تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية. ص ١٣٢.

[2] عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثاني ص ٣٣٩.

[3] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٩ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص٥٠ ؛ السلاوي: الإستقصا ج١ ص ١٢٠.

الحصار حولها وفيها ألفونس. كل ذلك ولم يتقدم أحد من الأمراء الأندلسيين لمساعدته[١] . كان هذا الموقف من طرف أمراء الطوائف مبرراً إضافياً لخلعهم.

بدأ يوسف بصاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، وكان قد فاق أقرانه من أمراء الأندلس في الخيانة[٢] . حاصر المرابطون غرناطة طيلة شهرين حاول ابن بلقين خلالهما إنقاذ نفسه بتوسيط العلماء لدى أمير المسلمين[٣] . لكن هؤلاء العلماء ، وبالأخص القاضي ابن سهل ، اعتبروا أن حصار يوسف لغرناطة فرصة لا تعوض ، وخير ساقه الله من أجل إنهاء حكم ابن بلقين[٤] . فقام القاضي ابن سهل بحث يوسف على التخلص من ابن بلقين. وأخبره أن الجيش في غرناطة منقسم على نفسه[٥] .

وفي أثناء هذا الحصار اضطربت الأحوال داخل غرناطة فقد تشوفت الرعية إلى الخلاص من حاكمها وظلمه واستبشروا خيراً بالمرابطين. فالكل كان يطمع أن يتبدل حاله نحو الأحسن."طمعاً منهم بالحرية وأنهم لا يلزمهم غير الزكاة والعشر"[٦] .

وأمام هذا الوضع الميؤوس منه استسلم الأمير عبد الله بن بلقين وقبل الشروط التي قدمها له الفقيه ابن سعدون مبعوث أمير المسلمين يوسف[٧] . وكان ذلك في ١٣ رجب ٤٨٣هـ.

كان إستسلام عبد الله بن بلقين ونفيه إلى المغرب المرحلة الأولى من مراحل خلع أمراء الطوائف. واتضح لبقيتهم المصير الذي ينتظرهم ، ففزع هؤلاء الأمراء إلى كل الوسائل التي يمكن في نظرهم أن تحميهم من الخطر المرابطي.

---

[١] ابن أبي زرع: نفس المصدر والصفحة.

[٢] عقد الأمير عبد الله إتفاقاً مع البرهانس ثم عقد معاهدة مع ألفونس ودفع له مالاً كثيراً كجزية.

[٣] عبد الله بن بلقين: كتاب التبيان ص ١٥٦.

[٤] ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي ص ١٩١.

[٥] يصور الأمير عبد الله في كتابه التبيان (ص١٥٤) شأن ابن سهل وابن واروي اللذين أرسلهم إلى يوسف فيقول: "وصح عندي وقت انصرافهما أن ابن واروي قال: أرسلنا للخدمة له في زعمه ، و لم نصنع غير أني كتفته والقاضي ضرب عنقه".

[٦] ابن بلقين: التبيان ص ١٥٧ – ١٥٨.

[٧] المصدر السابق: ص ١٥٦ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٤.

كانت الخطوة التالية للمشروع المرابطي لتوحيد الأندلس هي مملكة اشبيليه وأميرها المعتمد بن عباد. لقد تعامل أمير المسلمين مع المعتمد معاملة خاصة ، ربما تقديراً لدوره في إستدعاء المرابطين للجهاد ، وتمثلت هذه المعاملة الخاصة في أنه منح المعتمد فرصة جديدة لتصحيح وضعه فطلب إليه أن يطبق أحكام الشرع وأن يلغي المظالم والمكوس ويلتزم المرابطة ومدافعة النصارى "فامتنع ابن عباد جهده وبنى على الشر"[١] . كان هذا الإباء بمثابة إعلان الحرب على يوسف. تريث أمير المسلمين في شأن المعتمد وعاد إلى المغرب[٢] ويبدو أنه أستفتى العلماء من جديد في شأن المعتمد فأفتى أكثرهم بإرتداده لإستغاثته بالنصارى لمحاربة المرابطين. وأباحوا دمه. في حين أفتاه قاضي مراكش مع آخرين بعدم إرتداده ولم يبح دمه[٣] . وقد مال يوسف إلى هذه الفتوى الأخيرة.

كان المعتمد بن عباد من جانبه قد عزم أمره على مناوءة المرابطين ومدافعتهم ولم يترك للصلح مجالاً ، فباشر في ترميم الأسوار والقنطرة[٤] . ووجه دعوة إلى أمراء الطوائف لعقد حلف لمقاومة المرابطين[٥] . كما تحالف مع ألفونس لنفس الغرض[٦] . كل هذه التحركات وفتوى العلماء بإرتداده جعلت يوسف يقرر نهائياً التخلص من المعتمد وأن يسقيه "من الكأس التي أسقى به عبد الله بن بلقين"[٧] .

وبالفعل أرسل يوسف جيشاً بقيادة سير بن أبي بكر لإحتلال اشبيليه وقد تمكن الجيش المرابطي من اقتحام اشبيليه وإعتقال المعتمد بن عباد في ٢٢ رجب ٤٨٤هـ[٨] ،

---

[١] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٠.

[٢] الحلل الموشية: ص ٧٢ ؛ ابن ابي زرع: روض القرطاس ص ١٥٤.

[٣] العباس ابن إبراهيم: الأعلام ج٤ ص ٢٦ عن الإمام البرزلي ؛ ابن بلقين: التبيان ص ١٧١.

[٤] الحلل الموشية: ص ٧٢.

[٥] Dozy: Histoire de Musulamans d'Espagne T3 P.145.

[٦] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٠.

[٧] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٠ ؛ الحلل الموشية: ص ٧٢.

[٨] ابن بلقين: التبيان ص ١٧١ – ١٧٢ ؛ المراكشي: المعجب ص ١٥٠ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٥ ؛ عنان: دول الطوائف ص ٣٥٢.

بعد حصار دام أربعة أشهر[١] . وقد تخلل هذا الحصار حدثان مهمان: هما ثورة الرعية في اشبيليه على المعتمد[٢] وقد فشلت هذه الثورة لكنها كانت تعبر عن حال السخط التي كانت تعم الرعية من حكم هؤلاء الأمراء. فالحال التي كانت تعانيها تلك الرعية من ضرائب ومغارم وظلم جعلتها تطمح بأبصارها إلى المرابطين لإنقاذها من هذه الوضعية المزرية. أما الحدث الثاني فهو إستصراخ المعتمد بألفونس ضد المرابطين فأرسل إليه هذا الأخير قائده البرهانس في جيش كبير. وماكادت هذه القوة من النصارى تصل إلى حصن المدور حتى زحف المرابطون للقائهم بقيادة ابراهيم ابن اسحاق اللمتوني ونشبت بين الفريقين معركة ضارية أسفرت عن هزيمة ساحقة للجيش القشتالي[٣] .

ويبدو أن المعتمد بخطوته هذه أي الإستنجاد بألفونس ضد المرابطين ، قرر أن مصلحته الذاتية تتماشي أكثر مع "رعي الخنازير القشتالية" منها على "رعي الجمال عند أمير المسلمين" كما قرر المعتمد بتلك الخطوة أن يتيح الفرصة لألفوس ليعيد الأندلس دار كفر.

فليس المهم بالنسبة إلى المعتمد أن ينهزم الإسلام والمسلمون بل المهم أن يبقى هو في قصره عاكفاً على لذاته ، ولو إلى حين ، تابعاً ذليلاً لملك قشتالة[٤] .

واصل المرابطون بعد إحتلال أشبيليه خطتهم التوحيدية فاحتلوا المرية[٥] ثم اتجهوا صوب بطليوس إمارة بني الأفطس. وقد أعاد أمير بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس نفس السياسة التي اتبعها المعتمد إذ تحالف مع ألفونس بل وتنازل له عن مدن مهمة هي اشبونة وشنترين وشنتمرية[٦] . مقابل حماية ألفونس له من المرابطين.

---

[١] عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١٧١ ؛ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٣٥١.

[٢] المراكشي: المعجب ص ٢٠٥.

[٣] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٥.

[٤] محي الدين اللاذقاني: فانتازيا التاريخ ص ١٥.

[٥] سقطت في أيدي المرابطين في ٢٢ ربيع الأول ٤٨٤هـ وقد توفى أميرها المعتصم بن صمادح ، وكان مريضاً ، يوم دخول المرابطين المرية وعندما سمع قرقعة السلاح وصهيل الخيل قال:"لا إله إلا الله نغص علينا كل شيءً حتى الموت" (ابن بلقين: التبيان ص ١٦٩ ؛ ابن ابي زرع: روض القرطاس ص ١٥٥).

[٦] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٢ - ١٧٣. Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne T3 P.152.

شكلت هذه الخيانة مبرراً جديداً لدى المرابطين لإنهاء حكم المتوكل. كما أثار هذا الإجراء حفيظة سكان بطليوس فانضموا إلى جهود المرابطين لإنقاذهم من هذا الأمير الخائن[1] . وقد أسفرت جهود الطرفين عن دخول المرابطين بطليوس وإعتقال المتوكل في صفر ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)[2] .

لقد كان المتوكل بن الأفطس أميراً شهماً تتسم مواقفه في بعض الأحيان بتناقض غريب. فقد كان هذا الأمير أول من حاول توحيد الجبهة الإسلامية ضد الهجمة المسيحية وفي سبيل ذلك آزر الجهود التي قام بها الفقيه أبو الوليد الباجي في هذا الشأن[3] .

ثم كان المتوكل الأمير الطائفي الوحيد الذي هب لإنجاد طليطلة[4] . ثم كان من أوائل من خاطب الأمير يوسف بن تاشفين داعياً إياه للجواز إلى الأندلس لمدافعة العدو. ومما كتب له في هذه الرسالة قوله: "لما كان نور الهدى ، أيدك الله ، دليلك وسبيل الخير سبيلك ... ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعي لما أعضل الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. وطوائف العدو المطيف بأنحائها أهلكهم الله ... أيقنوا الآن بضعف المنن وقويت أطماعهم في افتتاح المدن واضطرمت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم..."[5] .

وفي مقابل هذه المزايا الحميدة والمواقف المشرفة نجد المتوكل يداخل ألفونس ويرتمي في أحضانه وكأنه الولي الحميم وينسى أمام أنانية طاغية ، كل ماضية المشرف الذي شيده بمدافعه هذا الألفونس. لقد كرر المتوكل نفس العمل الذي قام به

---

[1] تمثلت جهود هؤلاء المواطنين في إتفاقهم مع المرابطين بأن يفتحوا لهم الأبواب ليلاً وهو ما فعلوه (ابن بلقين: التبيان ص١٧٤).

[2] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٢ - ١٧٣ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١٠٢.

[3] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٩٨ ؛ محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص ٩١.

[4] محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ١١١.

[5] الحلل الموشية: ص ٣٤ - ٣٥.

المعتمد بن عباد قبله. وضربوا بذلك المثل الواضح والبرهان الساطع أن مصير الإسلام وأهله لا يساوي عندهم شيئاً مقابل التشبث والبقاء في الحكم "ولو يوماً واحداً"[١] .

لقد ارتبطت الفترة الأخيرة من تاريخ بني الأفطس في بطليوس بشخصية الفقيه ابن الأحسَن السجلماسي وهو من سجلماس انخرط في خدمة الدولة المرابطية ودعوتها. وكان أول إتصال له بالشأن الأندلسي عندما أرسله أمير المسلمين هو وقاضي الجماعة أبو مروان عبد الملك المصمودي للتفاوض مع المعتمد بن عباد في أمر تسليم الجزيرة الخضراء للمرابطين قبيل الجواز الأول ليوسف بن تاشفين[٢] . وبعد معركة الزلاقة إستقر الفقيه ابن الأحسن في بطليوس ضمن جماعة من صلحاء المرابطين كان هدفهم الأول الجهاد في الثغور ومدافعة العدو. إلا أنه في ما يبدو كان لهم هدف ثاني وهو تمهيد النفوس لتدخل المرابطين وإبراز ضرورة ذلك لتوحيد الصفوف والكلمة لدريء الخطر النصراني[٣] .

تمتع الفقيه ابن الأحسن في بطليوس بمكانة رفيعة وإحترام كبير لعلمه ولمكانته عند أمير المسلمين ، فقربه المتوكل وصرف إليه الكثير من شؤونه[٤] .

غير أن سلوك المتوكل المهادن للنصارى والمتودد إليهم جعل العلاقة بين الإثنين يشوبها الحذر ثم النفور[٥] . وبدأ الفقيه ابن الأحسن يسعى في الخفاء لخلع المتوكل.

وتطورت علاقة المتوكل مع النصارى بتنازله لألفونس عن عدد من المدن ، فأعلن ابن الأحسن مناوأته للمتوكل وسعى جاداً في تأليب الناس عليه. وقد لقيت دعوته إستجابة كبيرة في نفوس أهل بطليوس. فلما حاصر المرابطون المدينة ساعدهم أهلها على إقتحامها بأن فتحوا لهم أبوابها[٦]. كانت هذه هي أهم دول الطوائف في ذلك الوقت ولم يبق منها سوى دولة بني هود في سرقسطة التي كان يحكمها أحمد بن هود وقد أقره المرابطون على ما بيده من ملك وأبقوه خط دفاع أمامي ضد هجمات النصارى[٧] .

---

[١] ابن بلقين: التبيان ص ١٧١ ؛ عبد الرحمن الفاسي: ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد ص ٣٥٦.

[٢] ابن بلقين: التبيان ص ١٢٢.

[٣] المراكشي: المعجب ص ٢٠٤.

[٤] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٣.

[٥] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٢.

[٦] ابن بلقين: التبيان ص ١٧٤.

[٧] مجهول: الحلل الموشية ص ٧٤ - ٧٥

وبخلع المتوكل طويت في الأندلس صفحة أمراء الطوائف وتوحدت العدوتان بفضل مساعي العلماء وجهدهم الدؤوب وحرصهم على لم شمل الأمة.

لقد كان العلماء في مؤازرتهم لمساعي المرابطين وإرشادهم لهم ينطلقون في أغلبهم من قناعات دينية راسخة تتمثل في وجوب مساندة من يقدر أن يدافع عن حرمة الإسلام ويحمي حوزته في الأندلس ويزيل الظلم ويحكم بالعدل. ومع ذلك فلاشك أن البعض ساند المرابطين لما آنسه فيهم من تعظيم للعلم وأهله. ورأوا أن حظوظهم مع هذه الدولة وأهلها أوفر من حظهم مع غيرها[1]

ومن هذه الزاوية النفعية البحتة وجد بين العلماء من عارض الدولة المرابطيّة ومساعيها لخلع أمراء الطوائف فهذا أبو عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع (ت٤٩٧هـ) وكان شيخ الفقهاء في قرطبة ، أسقط من الفتوى بعد دخول المرابطين لهذه المدينة ، لفرط تعصبه عليهم مع بني عباد[2].

---

(١) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٦٥.

(٢) عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ١٨١.

خريطة ٦١

الأندلس

خلال عصر الطوائف

من قيام الفتنة عقب سقوط العامريين في جمادى الآخر ٣٩٩هـ فبراير ١٠٠٩م إلى سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة وليون في صفر ٤٧٨هـ / مايو ١٠٨٥ ميلادية

- مملكة ليون وقشتالة
- " نبرة
- " أرجون
- كونتية قطلونية
- " البرتغال
- حدود الأندلس الإسلامي بعد سقوط طليطلة

ملحوظة: لم توضع حدود لدويلات الطوائف لعدم وضوحها أو ثباتها.

خليج بسكاية — تطيلة — كونتية البرتغال — برتغال — برشلونة — طركونة — الجزائر الشرقية — منورقة — ميورقة — يابسة — فورمنتيرة — بحر الروم — البحر الأعظم — أشبونة — قطاجنة — لقنت — دانية — بلنسية — قسطلون — جبل طارق — سبتة — الجزيرة الخضراء — طنجة — تطوان — أصيلا — العرايش — مليلة — وهران — تلمسان — المغرب الأوسط — المغرب الأقصى — قادش — مقياس الرسم ١ : ٥٠٠٠٠٠٠

نقلا عن د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص ١٧٣

الباب الثاني

العلماء والسلطـــة

الفصل الأول: العلماء في مواقع النفوذ.

الفصل الثاني: العلماء في مواجهة السلطة.

الفصل الثالث: العلماء حكاماً.

الفصل الرابع: أثر العلماء في الدعوة والجهاد.

الفصل الأول

العلماء في مواقع النفوذ

لقد قامت الدولة المرابطية ، كما رأينا في الفصول السابقة ، على أيدي العلماء وجهودهم ومثابرتهم وتضحياتهم. فلما استوى عود هذه الدولة وإشتد كان من الطبيعي أن يحظى العلماء فيها بموقع مؤثر ونفوذ متسع. فلم يكن إذاً مستغرباً أن يعظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين شأنهم ويصرف الأمور إليهم ويأخذ برأيهم فيها[١] . فكان كثير المشورة لهم[٢] . وإزداد هذا النفوذ وتلك المكانة على عهد إبنه علي بن يوسف "... فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته"[٣] . وتجلى هذا النفوذ والمكانة من خلال تأثيرهم على القرارات المهمة في الدولة. فقد أضحى العلماء أهم مستشاري أمراء المرابطين ، إذ كان هؤلاء حريصين على الإستشارة في كل أمورهم وجعلوا ذلك المبدأ أحد مرتكزاتهم في الحكم ، كما أشرنا إلى ذلك في فصل سابق. وكان مستشاروا أمير المسلمين عادة مجموعة من شيوخ المرابطين ونخبة من الفقهاء. وكان هؤلاء الأخيرون يمثلون القوة الأكثر تأثيراً على قرارات أمير المسلمين. فكان لمشورتهم في أغلب الأحيان الغلبة.

وقد كان العلماء يستشارون في كل الأمور جليلها وصغيرها إبتداءً بأمور مثل ولاية العهد وإنتهاءً بأمور مثل بناء الأسوار والحصون وتوسعة المساجد. فعندما أراد أمير المسلمين يوسف تعيين ولده علياً ولياً للعهد إستشار العلماء في ذلك فرضوا هذا الإختيار[٤] . وقد إزداد الإعتماد على مشورتهم على عهد أمير المسلمين علي بن يوسف "فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء"[٥] . فكان لهم دور فعال في

---

[١] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٤٦ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٣٤٩.

[٢] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص ١١٣ ؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٣٧.

[٣] عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٥٣.

[٤] مجهول: الحلل الموشية ص ٧٩.

[٥] عبد الواحد المراكشي: مصدر سابق ص ٢٥٢.

إختيار الأمير تاشفين لولاية عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ، إذ كانت زوجته قمر تضغط عليه لتعيين إبن آخر من أبنائه لولاية العهد هو الأمير اسحاق. ولكن أهل الشورى ، والفقهاء في مقدمتهم أجمعوا على إختيار الأمير تاشفين. وبرروا ذلك بأسباب موضوعية منها ديانته وتقواه وشجاعته وشهامته ورجاحة عقله ولما ظهر منه في الأندلس من النكاية في العدو[١] .

وكان هؤلاء المستشارون يلازمون أمير المسلمين في قصره وفي تنقلاته ليبدوا آرائهم في المشاكل المطروحة. ولهذا لا يبعد القول أن سلطة أمراء المرابطين كانت في المقام الأول تنفيذية. في حين كان الفقهاء المستشارون هم الذين يبتون في وجاهة القرارات وصلاحيتها[٢] ولم تكن إستشارة أهل الرأي من كبار الفقهاء مقصورة على أمير المسلمين بل كان نائباه في المغرب والأندلس[٣] ملزمين بالإستشارة في كل ما يأتيان[٤] . وكذلك الحال بالنسبة لولاة الجهات فقد كانوا مطالبين من أمير المسلمين بإستشارة أهل الرأي في جهاتهم "ليطلعوهم على ما يخفى عليهم من أحوال رعاياهم"[٥] .

وبالإضافة إلى هذا الدور الإستشاري مارس العلماء نفوذهم وتأثيرهم في المجتمع من خلال الوظائف التي كانوا يمارسونها ولعل أهمها هي وظيفة القضاء.

كان القضاء أحد أبرز الوظائف في العهد المرابطي. وقد ارتفع شأن هذه الوظيفة وإزدادت الصلاحيات الموكلة إلى القاضي فمنح سلطات واسعة ، إلى حد أنه كان في

---

[١] مجهول: الحلل الموشية ص ١٢٠ ؛ أبن الخطيب: مصدر سابق ج١ ص ٤٤٦ - ٤٤٩ وقد ذكر ابن الخطيب في ترجمته لتاشفين بن علي أنه "لم يشرب قط مسكراً ولا استمع إلى قينة ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك" (الإحاطة ج١ ص ٤٤٨).

[٢] إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج١ ص ٢٠٢.

[٣] كان لأمير المسلمين نائبان أحدهما للمغرب مقيم في فاس والآخر للأندلس مقيم في قرطبة وفي بعض الأحيان في غرناطة. وكان نائب أمير المسلمين هو الحاكم المدني والعسكري في منطقته ويتبع لحكمه ولاة الأقاليم في منطقته (ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٥٩ ، ١٦٤ ؛ إبراهيم حركات: مرجع سابق ص ٢١٠).

[٤] د. محمود مكي: وثائق تاريخية عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد ٧ (١٩٥٩) ، ص ١٧٧.

[٥] نفس المصدر: ص ١٧٦.

وسعه أن يتدخل في إختيار العمال وعزلهم ، كما فعل القاضي أبو الوليد بن رشد عندما طالب أمير المسلمين علي بن يوسف بعزل أخيه تميم[١] من النيابة في الأندلس لعدم كفايته[٢] . وقد إستجاب أمير المسلمين لهذا الطلب فعزل تميماً في رمضان ٥٢٠هـ[٣] . .

وكانت سلطة القاضي فوق سلطة الحاكم الإداري والعسكري. فهو الرقيب عليه وعلى الولاة والعمال التابعين له. وكان القاضي مسؤولاً عن تصرفات العمال والولاة.

وقد أوضح أمير المسلمين علي بن يوسف هذه المسؤوليات المناطة بالقاضي في رسالة وجهها إلى قاضي مالقة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي[٤] (ت٥٤٢هـ) والمؤرخة في ذي الحجة من سنة ٥٢٣هـ ومما جاء فيها: "وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوي العامة في اللطيف والجليل وسلمناك القيام بالخفيف منها والثقيل ، فتفقد ما قبلك حق تفقده ... وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه وعلمت بصحة استهدافه وتصديه فأنه أمره إلى صاحب البلد مستعملة ومموليه ، واشعره بما ثبت عندك فيه فإن غل يد أذيته وأنفذ عزله عن رعيته ، وإلا فأخف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي تقصر عنها يدك ... وأي عذر لك وقد شددنا من أزرك وعضدنا من أمرك...."[٥]

---

(١) أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين: أخو أمير المسلمين علي بن يوسف وقد ولي حكم غرناطة بين سنتي ٥٠٠ و٥٠٣هـ ثم نقل إلى حكم تلمسان بالمغرب ، وعاد إلى الأندلس نائباً لأمير المسلمين بين سنتي ٥١٥ و٥١٦هـ مقيماص في غرناطة ثم نقل إلى اشبيليه ثم عاد للنيابة سنة ٥١٩هـ مقيماً في قرطبة إلا أنه عزل في السنة التالية لعدم كفايته وشكوى أهل الأندلس منه التي ذكرنا في المتن. وفي تاريخ وفاته خلاف والأرجح أنه توفى سنة ٥٢٠هـ (ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٦٤ ؛ هويسي ميرانده: علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان العدد الثالث والرابع (١٩٥٨ - ١٩٥٩) ص ١٧٣).

(٢) مجهول: الحلل الموشية ص ٩٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٧٣.

(٤) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي (ت٥٤٢هـ): قال عنه ابن بشكوال "من أهل العلم والمعرفة والفهم" استقضى ببلده ثمانية عشر عاماً حمد فيها ثم استعفى من القضاء لما كبر في السن وانقطع للعبادة (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٢٨٥ ؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٤ - ١٠٥).

(٥) محمود مكي: مصدر سابق ص ١٧١ - ١٧٣.

وكانت سلطته وأحكامه نافذة على الجميع ، وقد شدد أمراء المرابطين في الإلتزام بهذا المبدأ فكان يتكرر في رسائلهم إلى ولاتهم وعمالهم ، وفي ذلك يقول علي بن يوسف مخاطباً القاضي ابن حمدين: "وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ولا يتعرضوا عليك في قضاء تقضيه .... والعمال والرعية كافة سواءً في الحق. فإن شكت إليك الرعية بعامل وصح عندك ظلمه لها ، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله ، وإن شكا العامل من رعيته خلافاً في الواجب ، فاشكه منها وقومها له ، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه ، وإن استوجب الغرم في ما استهلك فاغرمه واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه. والأمر في استكفاء من يكفيك ويغني في بعض الأمور عنك إليك ولا نشير عليك بشيء ، وتصرفك أحياناً في إصلاح صنعك وترفيع معاشك غير مضيق عليك فيه فاعلمه"[1] .

فمن خلال هذه الرسالة يظهر أن القاضي لا يرد له حكم ، وأن حكمه نافذ بين السلطة التنفيذية ، المتثملة في المرابطين وعمالهم ، وبين رعيتهم.

ومن أمثلة وصاية القضاة على الولاة أن أمير اشبيليه الأمير واجداي بن عمر بن سير اللمتوني لما تسبب في احدى غزواته في أسر بعض المسلمين لتهاونه في أخذ الحيطة رفع القضاة الأمر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فألزم واجداي فدية من أسر وأنفذ الأمر بعزله[2] .

وأما تعيين القضاة فكان يتم إما بأمر من أمير المسلمين أو يرشح أهل البلد أحد الفقهاء لتولي قضاء بلدهم ويبعثون بترشيحهم هذا للأمير الذي يقر هذا الترشيح ، ويرسل بخطاب التعيين كما حدث في قرطبة سنة ٥٣٦هـ عندما ترك القاضي أحمد بن رشد منصبه فاختار أهل قرطبة القاضي أبا جعفر بن حمدين ، وأرسلوا باسمه للأمير علي بن يوسف فأقرهم على إختيارهم[3] .

---

[1] ابن بسام: الذخيرة ق. الأول ، مج الأول ص ٢٦١ - ٢٦٢.

[2] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٨٠.

[3] النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٣ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

وفي بعض الأحيان يختار أهل البلد إسمين لمرشحين ، ويرسلوا بهما إلى أمير المسلمين فيختار أحدهما أو يجعل الإختيار لهم ، فإذا عجزوا عن الإتفاق عين لهم قاضياً[1] .

ويترأس هيئة القضاء قاضي الجماعة وهو بمنزلة وزير العدل اليوم. وكان هناك قاضيان للجماعة أحدهما يشرف على القضاء في الأندلس ومقره في قرطبة ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو القاسم أحمد بن حمدين التغلبي[2] وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد[3] وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج[4] . أما قاضي الجماعة الثاني فمقره بمراكش ويشرف على عمل القضاة في المغرب ويدعى أحياناً بقاضي الحضرة[5] . وكان بحكم منصبه من أهم أعضاء مجلس الشورى وأنفذهم لدى أمير المسلمين[6]. ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللخمي[7] ، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله الصنهاجي[8] .

---

[1] محمود مكي: مصدر سابق ص ١٨٦.

[2] أبو القاسم أحمد بن محمد بن حمدين (ت٥٢١هـ): فقيه قرطبي من بيت علم ودين وفضل وجلالة تولى قضاء الجماعة بقرطبة مرتين أولاهما بعد أبيه القاضي محمد بن حمدين وذلك من سنة ٥٠٨ - ٥١١هـ وثانيهما من سنة ٥١٥هـ خلفاً لأبي الوليد بن رشد الذي استعفى من القضاء وقد ظل في هذا المنصب إلى أن توفي. وكان نافذاً في أحكامه ، جزلاً في أفعاله (ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٨١ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٣ ؛ ابن القطان: نظم الجمان ص ٧٤).

[3] أحد أعلام فقهاء المالكية وسنتعرض لذكره بالتفصيل في الصفحات التالية ترجمته في أغلب المصادر (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤٦ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ٩٨).

[4] محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج (ت٥٢٩هـ) أحد كبار علماء قرطبة ومفتيها ، كان معدوداً في المحدثين والأدباء ، بصيراً بالفتيا رأساً في الشورى. "وكانت الفتوى في وقته تدور عليه لمعرفته وثقته وديانته ، قيد العلم عمره وعني به عناية كاملة. تولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٥٢٨هـ وقتل مظلوماً سنة ٥٢٩هـ وهو يتولاه (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٠ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٢ ؛ ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٣٤).

[5] ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦.

[6] د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٦٧.

[7] ابن الأبار: المعجم ص ٢١٤.

[8] ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٣١٤.

وقد يسند إلى أحد العلماء مهمة الإشراف على شؤون القضاء في العدوتين كما حصل مع الفقيه أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك بن سمجون اللواتي[١] الذي صرف إليه أمير المسلمين يوسف جميع أمور الأندلس والمغرب ، وفوض إليه كبارها[٢] .

وكانت سلطة قاضي الجماعة قوية بحيث كان يتعين على أمير المسلمين أو نائبه أن يستشيره في تعيين غيره من القضاة.

وكان القاضي في العهد المرابطي يشرف على عدة خطط أو عدة وظائف ومنها الإشراف على بيت المال فيختار له رجلاً عرف عنه الغنى والعدل والأمانة[٣] كما يشرف على الأحباس ويعين عليها من يثق بدينه وأمانته. كما يشرف على خطة الأحكام ويدعى صاحبها بصاحب الأحكام واختصاصه الفصل في القضايا البسيطة ، وصاحب الأحكام يختاره القاضي من أهل الثقة المعروفين بالعلم والنزاهة[٤] .

كما كان القضاة يشرفون على أمور المساجد من إمامة وخطبة فيتولاها هو بنفسه أحياناً وفي بعض الأحيان يعين غيره فيها. ويقوم ببناء المساجد وتوسعتها حين تضيق بالمصلين. فقد أشرف القاضي أبو عبد الله محمد بن داوود قاضي فاس على زيادة مساحة جامع القرويين بفاس سنة ٥٣٠هـ[٥] ومثله ما قام به القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية من زيادة في المسجد الجامع بالمرية سنة ٥٣١هـ[٦] والقاضي عياض الذي زاد في جامع سبتة من جهته الغربية[٧] .

---

(١) وصفه القاضي عياض بأنه زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه. توفى سنة ٤٩١هـ (عياض: الغنية ص ٢٥٨).

(٢) عياض: الغنية ص٢٥٨.

(٣) ابن عبدون: رسالة الحسبة ص ١٠.

(٤) المصدر السابق: ص٩.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٥٩ ؛ ابن القاضي: جذوة الإقتباس ص ٢٢.

- Margais (Georges): Manuel d'Art Musulman, L'Architecture 2 vol. Paris 1926 vol 1 P.312.

(٦) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية ص ١٤٩.

(٧) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١١.

وكان للقاضي في عهد علي أربعة فقهاء مستشـارين يختـارهم مـن أهـل الصـلاح والتقوى ومهمتهم في الأساس هي إعانة القاضي على تبين الحقيقة في ما يرفع إليه لهـذا كان "لا يقطع أمراً ولا يبت في حكومة في صغير من الأمـور ولا كبـير إلا بمحضـر أربعـة من الفقهاء"[١] .

كل هذا جعل للقضاة مكانة عظيمة في عهد المرابطين بحيث أصبح مقدم أحدهـم مناسبة للإحتفال به فهذا القاضي عياض عندما قدم غرناطة سنة ٥٣١هـ متوليـاً للقضـاء بها استقبله أهلها إستقبالاً رائعاً "فخرج الناس للقائه وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمـر مثله"[٢] .

وكان أولوا الأمر يأمرون بالإحتفاء بالقضاة فعندما قام القـاضي عيـاض برحلـة إلى الأندلـس سنة ٥٠٧هـ كتب أمير المسلمين علي بن يوسف إلى قاضي الجماعة ابن حمدين يأمره الإعتناء بأمره "لأن له إلينا ماتة[٣] مرعية أوجبت الإشادة بذكره والإعتناء بأمره"[٤] .

وصار التعظيم والإحتفاء عادة لهؤلاء القضاة حتى أن أحدهـم وهـو القـاضي أبـو بكر بن أسود[٥] غضب من كون أمير غرناطة لم يحتف به عندما مر به متجهاً إلى قرطبة ، ثم شكاه إلى نائب أمير المسلمين في الأندلس الأمير تاشفين بن علي الذي بادر بالكتابة إلى أمير غرناطة يلومه على عدم إحتفائه بالقاضي وتقصـيره في العنايـة بـأمره ، وأعتـبر الأمير هذا الأمر إثماً كبيراً يستحق عليه أمير غرناطة التأنيب "فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة والفرطة الفاضحة"[٦] .

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٥٣.

(٢) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص ١١.

(٣) الماتة: الحرمة والوسيلة (محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهـر القـاموس ، منشـورات دار مكتبـة الحياة. بيروت ، د.ت مج١ ص ٥٨٤).

(٤) ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص ٣٢٨.

(٥) أبو بكر محمد بن ابراهيم بـن أحمـد بـن أسـود الغسـاني (ت٥٣٦هــ) فقيـه مـن أهـل المريـة شـؤور ببلـده واستقضى بمرسية مدة طويلة ، لم تذكر المصادر فترتها ، غير أنه لم تحمد سيرته فصـرف عـن القضـاء وسـكن بمراكش حيث توفى (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٣).

(٦) حسن مؤنس: سبع وثائق جديدة ، مجلة المعهد المصري بمدريد مجلد٢ سنة ١٩٥٤ وثيقة ٣ ص ٧٠.

لقد أدت هذه المكانة العلية وهذا الإحترام العظيم الذي حظي به القضاة أن أصبح هؤلاء ذوو جاه عريض ومال جزيل في معظمهم. "فانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم"[١] .

ولقد إختلف مسلك القضاة في استغلالهم للنفوذ الذي أعطتهم إياه وظيفة القضاء: فقد سعى البعض للإستعانة بهذا النفوذ لإقامة الحق وكبت الإجرام وأهله كالقاضي ابن العربي الذي كانت له في الظالمين سورة مرهوبة[٢] والقاضي عياض الذي أزال المظالم والمكوس في البلاد التي حل بها[٣] . والقاضي محمد بن أبي جمرة (ت٥٠٣هـ) الذي استقضى بغرناطة "فنفع الله به أهلها لصرامته ونفوذ أحكامه وجمود يده وقويم طريقته"[٤] .

واستعمله آخرون من أمثال أبي عبد الله محمد بن حمدين[٥] والقاضي محمد بن رشد والقاضي محمد بن اصبغ[٦] ، زيادة على إقامة الحق والعدل ، في البر بالناس ومشاركتهم بالجاه والمال في جميع ما ينزل بهم حتى غدا الواحد منهم أباً لأهل مدينته يحوطهم كما يحوط أهل بيته فلا يدخر عنهم الوسع لذا نرى الناس يهرعون إليهم عند

---

[١] المراكشي: المعجب ص ٢٥٣.

[٢] ابن بشكوال: الصلة ج٣ ص ٨٥٦ ؛ ابن العربي: العواصم من القواصم ص ١٣٨.

[٣] محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١١٥.

[٤] ابن بشكوال: الصلة ج٣ ص ٨٤٥.

[٥] محمد بن علي بن حمدين التغلبي (ت٥٠٨هـ) قاضي الجماعة بقرطبة وصفه ابن القطان بقوله: وكان محبباً لدى الملثمين وحاز من المكانة لديهم ما لم يحزه غيره ممن سلف ، وكان جميل الطريقة ساعياً في كل خير: قطع الضرائب والمعاون عن أهل قرطبة وسن كل طريقة جميلة وسيرة حسنة لأن ابن تاشفين كان لا يخالفه في شيء (نظم الجمان: ص ٧٤) ، (ابن عطية: الفهرس ص ٨٤).

[٦] أبو عبد الله محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي المعرف بابن المناصف (ت٥٣٦هـ): قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة الفريضة بالمسجد الجامع بها و "خاتمة الأعيان بحضرتها كان من أهل الفضل الكامل والدين والتصاون والعفاف. تولى خطة أحكام المظالم بقرطبة مع شيخه قاضي الجماعة ابن رشد وكان يستحضره عنده مع مشيخة الشورى في وقته لمكانه وفضله. ثم تقلد قضاء الجماعة بقرطبة من سنة ٥٢٢هـ إلى سنة ٥٢٨هـ. ثم تفرغ للتدريس إلى أن توفي (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٤ - ٥٥٥ ؛ ابن الأبار: المعجم ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ ابن القطان: نظم الجمان ص ١٥٠ ، ٢٣٤).

الملمات. ففي سنة ٥١٩هـ لما قام رذمير[1] بغزو غرناطة بإستدعاء من النصارى المعاهدين وإمدادهم له بالرجال والأقوات. فزع النـاس إلى ابـن رشـد يطلبـون منـه السـفر إلى أمـير المسـلمين ليبـين لـه مـا أصـابهم مـن ضـرر جـراء التصرفـات الغـادرة لهـؤلاء المعـاهدين "فاحتسب القاضي أبو الوليد بن رشد الأجر وتجشم المجاز ، ولحق بأمير المسلمين علي بن يوسف بحضرة مراكش ، فتلقاه بالمكرمة والمبرة. فبين له الأمر بالأندلس. وما منيت به من النصارى المعاهدين وجنوه عليها من إستدعاء الروم ، وما في ذلك من نقض العهد ، والخروج عن الذمة. وأفتى بتغريبهم وإجلائهم إلى العدوة عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم ، فأخذ بقوله ، وأنفذ بذلك عهده"[2] .

وفي هذه الرحلة اقترح القاضي أبو الوليـد بـن رشـد علـى أمـير المسـلمين تسـوير مراكـش وضرورة ترميم الأسوار والقلاع في الأندلس "فورد كتاب الأمير علـي بـن يوسـف بـالنظر في الأسوار بجميع البلاد"[3] .

لم تكن هذه الفئة من القضاة تسعى إلى الثراء عن طريق المنصب فلم تستخدمه في أغراض شخصية ولا مكاسب مادية بل جر إلى البعض منهم الكثير من العنت فـابتلوا في سبيل إقامة الحق والعدل بشتى الإبتلاءات فقـد قتـل أحـد المجرمـين قـاضي الجماعـة بقرطبة محمد بن أحمد بن الحاج التجيبي سنة ٥٢٩هـ رغم أنه كـان "لينـاً ، صـابراً ، طاهراً ، حليماً ، متواضعاً ، لم يحفظ له جور في قضية"[4] . وكاد القاضي أبو بكـر بـن العربي أن يلقى نفس المصير فقد تألب عليه الفسقة في اشبيليه سنة ٥٢٩هـ فثاروا عليـه ويصف لنا ابن العربي هذه الواقعة بقوله : "ولقـــد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة

---

[1] ألفونس الأول ملك أرغن Aragm المعروف بالمحارب حكم أرغن ونبرة ما بين سنتي ٤٩٩ و ٥٢٩هـ وهـو الذي استولى على سرقسطة سنة ٥١٢هـ من أيدي المسلمين واتخذها عاصمـة لمملكته وقـد قـام في سـنة ٥١٩ بحملة على بلاد المسلمين من سرقسطة حتى وصل إلى السواحل الجنوبية الشرقية.

[2] مجهول: الحلـل الموشـية ص ٩٧ ؛ ابـن عـذارى: البيـان المغـرب ج٤ ص ٧٢ ؛ الونشريسـي: المعيـار ج٢ ص ١٥١.

[3] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٧٣.

[4] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٠.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن يـر في الأرض منكـر ، واشـتد الخطـب على أهل الغصب وعظم على الفسقة الكرب فتألبوا وألبوا وثاروا إلي فاستسلمت لأمر ا لله وأمرت كل من حولي ألا يدافعوا عن داري وخرجـت علـى السـطح بنفسـي فعـاثوا علـي وأمسيت سليب الدار ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار"[١] . وقـد نهبـت في هذه الثورة أموال ابن العربي وكتبه[٢] . وشبيه بهذه الحادثة ما قـامت بـه العامـة في قرطبة من الثورة على القاضي أبـي القاسـم بـن رشـد سـنة ٥٣٤هـ ممـا اضطـره للفـرار والإستعفاء من القضاء[٣] .

لقد أعتبرت هذه الفئة من القضاة ما تقوم به واجباً شرعياً ترجو منه المثوبة عنـد ا لله فارتفعت عن الجور والظلم والإرتشاء و"جمدت أيديهم عـن أمـوال النـاس"[٤] . فلـم يفيدوا مالاً ولا ثراءً بل أن معظمهم على مثل حال القاضي أبو عبد ا لله محمد بن عيسى التميمي (ت٥٠٥هـ) الذي كان من أحسن القضاة سيرة "فمضى فقيراً حميداً"[٥] . وحتى القضاة الذين ورثوا أمـوالاً عـن آبـائهم حرصـوا علـى أن يشـركوا النـاس فيـه ولا يبقـوا لأنفسهم إلا الأقل وقد كان قـاضي الجماعـة محمـد بـن أصبـغ ينفـق في كـل يـوم علـى ثلاثمائة بيت "يعيل ديارهم ويقيل عثراتهم"[٦] وقد كانت تلك الحال من الإيثار والزهـد تؤدي بالبعض إلى أن يموت وهو مدين كما ذكر ذلك مترجمو القاضي عياض[٧] وبـالطبع لو شاء عياض أن يكون من الأثرياء لكانه. ولقد عـبر الفقيـه أبـو اسحاق الألبـيري عـن بعض من الشعور الذي يشكل منهج هذه الفئة بقوله :

---

[١] ابن العربي: العواصم من القواصم ص ١٣٨.

[٢] المقري: نفح الطيب ج٢ ص ٢٣٦.

[٣] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

[٤] ابن بشكوال: الصلة ج٣ ص ٨٣٨ ؛ ج٣ ص ٨٤٥.

[٥] عياض: الغنية ص١٠١.

[٦] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١ ص ١٦٣.

[٧] عياض: الغنية ص ٢٤.

لا شيء أخسر صفقة من عالم | لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرق دينه أيدي سبـــا | ويزيله حرصاً لجمع المـــال[١]

وإلى جانب هذه الفئة من القضاة الأعلام الذين أضحوا قدوة ومثلاً يحتذي كانت هناك فئة من ضعاف النفوس الذين كان كل همهم أن يتخـذوا القضـاء مطيـة لمـآرب دنيويـة محضـة فجمعـوا الأموال من حلها وحرامها فعظمت ثرواتهم واتسعت أملاكهم ، فكان مصـير البعـض منهـم العـزل. كما حدث لإبن ملجوم[٢] قاضي فاس. ومما جاء في كتاب عزله الذي أرسله أمير المسلمين علـي بـن يوسف إلى أهل فاس "..... وقد أنهى إلينا وتحقق لدينا أن ابن ملجوم أجهل بأحكـام القضـاء مـن العلجوم وأنه أظهر فيكم أحكاماً يترحم من مثلها على سـدوم ، فقـد ولينـاه خطـة المـلوم ....."[٣]. وكان القاضي محمد بن أسود الغساني قاضي مرسية من هؤلاء الذين لم "تحمـد سـيرتهم" فصرف منكوباً واحتمل إلى مراكش مغرباً[٤]. وفيه يقول الشاعر اليكي[٥] يخاطب أمير المسلمين علي بن يوسف:

تسمع أمير المسلمين لنبـــأة | تصم لهـــا الآذان في كل مشهد
بمرسية قاض تجاوز حــــده | وأخطأ وجه الرشد في كل مقصد
يطالبه الأيتام في جـــل مالهم. | ويطلبـــه في حقه كل مسجد
فما بيضت كفاك بالعدل لم تزل | تسوده بالـــجور كف ابن أسود [٦]

وقد أدى النفوذ الكبير سواءً المعنوي أو المادي الذي تمتـع بـه القضـاة أن انصرفـت وجـوه الناس إليهم وتعلقت الآمال بهم فعظمتهم العامـة والخاصـة ومدحهـم الشعراء إمـا إعترافـاً بعلمهـم وفضلهم كالمدائح التي قيلت في القاضي عياض مثل قول أبيّ محمد محارب الوادي آنشى فيه:

إمـــام زانـــه عـــلم وحلم | له بالخطة العليا إنتهاض

---

[١] المقري: نفح الطيب ج٦ ص ٥٢.

[٢] لم أهتد في ما عندي من مصادر إلى إسم ابن الملجوم هذا ، فمن المعلوم أن بيت بني الملجوم بفاس بيت علم وقضاء وقد ظهـر منهم في العهد المرابطي كل من يوسف بن عيسى ابن الملجوم (ت٤٩٢هـ) وكان من أهـل الفتوى والشورى وقـد تـولى قضـاء الجماعة بمراكش ليوسف بن تاشفين إلى أن توفي. وقد اشترك مع يوسف بن تاشفين في غزواته بالأندلس. كما برز في هذا العصر المرابطي ابنه عيسى بن يوسف ابن ملجوم (ت٥٤٣هـ) وكان عارفاً بالفقه ذاكراً للمسائل متقدماً في علم الفرائض محدثـاً حافظاً تولى القضاء بفاس وبمكناسة (أحمد بن القاضي: جذوة الإقتباس ج٢ ص ٥٠٠ – ٥٠١ ، ٥٤٩ ؛ مجهول: بيوتات فـاس الكـبرى ص ١٠ – ١٥).

[٣] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٩٢.

[٤] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٣ ؛ ابن الأبار: المعجم ص ١٣٥.

[٥] أبو بكر يحيى بن سهل اليكي (ت٥٦٠هـ): شاعر مشهور بالهجاء يقول عنه ابن سعيد "لا تجيد قريحته إلا في الهجاء ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء" (المغرب في حلى المغرب ج٢ ص ٢٦٦ – ٢٧٠).

[٦] ابن سعيد: المصدر السابق ، ج٢ ص ٢٧٠.

يقارض من أساء بحسن صبر | وأمر الدين والدنيا قــراض[1]

أو طمعاً في نوالهم كما كان الحال بالنسبة لأحمـد بـن حمديـن قـاضي الجماعـة بقرطبـة وأبي أمية إبراهيم بن عصام قاضي قضاة شرق الأندلس[2] .

وقد إشتهرت أسر عدة في العهد المرابطي بتوارثها خطة القضاء فنبلت تلك الأسر وارتفع شأوها وتأثيرها في المجتمع ومن هـذه الأسـر أسـرة بـني حمديـن في قرطبـة وقـد إشتهر منهم في العهد المرابطي القاضي أبو عبد الله محمد بن علـي بـن حمديـن قـاضي الجماعة بقرطبة[3] والقاضي أبو القاسم أحمد بن حمدين (ت٥٢١هـ)[4] وأخـوه القـاضي أبو جعفر بن حمدين (ت٥٤٨هـ)

وإشتهرت أسرة بني عشرة قضاة سلا الذين توافدت عليهم الشعراء من مختلـف جهات الأندلس فأكثروا مدحهم. ومن أشهر أفراد هذه الأسرة القاضي أبو الحسـن علـي بن عشره (ت٥٠٢هـ) وابنه أبو العباس[5] .

على أن هذه المكانة العظيمة التي تسنمها القضاة جعلتهم موضع حسد من بعض فئات المجتمع الأخرى التي أعتبرت أن المكانة التي حظي بها القضاة إنما كانت علـى حسابهم. وقد كان الشعراء أشد هؤلاء الحاسدين الناقمين. وقـد عـبر عـن حـال السـخط تلك والشعور بالخيبة أحسن تعبير الأعمى التطيلي[6] بقوله :

أيا رحمتاً للشعر أقوت ربوعـــه | على أنها للمكرمـــــات مناسك

إلى أن يقول:

فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي | فقد أصحبت تلك العرى والعرائك

---

[1] المقري: أزهار الرياض ج٥ ص ٨٣.

[2] ابن خاقان: قلائد العقيان مج٢ ص ٦٢٩.

[3] عياض: الغنية ص ١١٦.

[4] المرقبة العليا: النباهي ص ١٠٣.

[5] ومن أشهر من مدحهم أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني ، والأعمى التطيلي (محمـد بـن شـريفة: أسرة بـني عشرة ، مجلة تطوان ، العدد ١ ، ١٩٦٥ ص ١٧٧ - ٢١٢).

[6] الأعمى التطيلي: أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة المعـروف بـالأعمى التطيلي (ت٥٢٥هـ) شـاعر أندلسـي مشهور له ديوان شعر مطبوع بتحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان.

وياقام زيــد اعرضي أو تعارضي   فقد حال من دون المــنى قال مالك[١]

فالأعمى التطيلي يرى أن هذه الدولة المرابطية التي تقرب الفقهاء أصحـاب"قـال مـالك" ماهي إلى دولة ضيم انقطعت فيها آمال أمثاله من أصحاب "قام زيد".

ولم يكتف بعض الشعراء بالتشكي من حالهم بل تعـدوا ذلـك إلى هجـاء القضـاة ونشر مثالبهم ومن هؤلاء: ابن البني[٢] الذي يقول:

أهل الرياء لبستمو نامــوسكم   كالذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بــمذهب مالك   وقسمتمو الأمــوال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب   وبأصبغ صبغـت لكم في العالم[٣]

وابن خفاجة[٤] الذي يقول:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم   فيها صــــــدر المجالس

وتزهدوا حتى أصابوا فرصــة   في أخذ مال مساجد وكنائس[٥]

ولم يقتصر إنتقاد القضاة على الشعراء بل تعداه إلى بعض أفراد الصوفية مثل ابن العريف الذي وصفهم بقوله: "كان الكبر والفخر والسرور بجمع الدنيا في وجوههم باديـاً ، وناموا واتكوا بجنوبهم على اللين مـن أنـواع الملبـوس إيثـاراً لراحـة النفـوس ، عمـلاً متمادياً. واعتمدوا بظهورهم على صدور المجالس زهواً علـى الخواطـر ، ظـاهراً باديـاً ، وأي ظهور لم تثقل بأعباء الدين ولا نشطت للقيام بأمور المساكين بل خفت واسـتراحت بطرحها لأثقال الأمانة"[٦]

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي: ص ٩٠.

(٢) أحمد بن محمد المعروف بابن البني شاعر معاصر لإبن خاقان (ت٥٢٩هـ) وترجم له في كتابيه قلائد العقيان (ج٢ ص ٨٦٨) والمطمح (ص ٣٢٩) ووصفه برافع راية القريض وصاحب آية التصريح فيه والتعريض.

(٣) المراكشي: المعجب ص ٢٥٣.

(٤) ابن خفاجة: أبو اسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (ت٥٣٣هـ) شاعر مشهور بوصف الطبيعة له ديوان مطبوع بتحقيق كرم البستاني ، نشر دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٦١.

(٥) ديوان ابن خفاجة: ص ١٥٥

(٦) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص ٦٨.

ولاشك أن نقد ابن العريف هذا وإن كان حقيقة في بعض الأفراد إلا أن تعميمه مجانب للصواب ويدخل في إطار الصراع الذي كان قائماً بين الفقهاء ومتصوفة تلك الفترة ، إذ كان هؤلاء المتصوفة يتوقون إلى إيجاد مكانة لهم في المجتمع تضاهي مكانة القضاة فيها. فاعتمدوا أسلوب النيل من هؤلاء للحط من قيمتهم[١] .

ورغم الأهمية العظمى والمنزلة الكبيرة لوظيفة القضاء فقد زهد عدد كبير من العلماء في العهد المرابطي في هذه الوظيفة ورفضوا قبولها. فهذا الفقيه هشام بن أحمد بن سعيد المعروف بابن العواد (ت٥٠٩هـ) عزم عليه في القضاء فامتنع[٢] . بل أن الفقيه عبد الله بن أحمد بن واشون الهذلي (ت٥٢٩هـ) فضل السجن على تولي القضاء ، إذ أنه أمر بتولى قضاء فاس فامتنع كل الإمتناع ، ولم يقدر عليه فيما طلب منه فأمر بسجنه[٣] .

ولم يكن هذا الإمتناع والرفض لضعف هؤلاء العلماء عن إقامة العدل وإحقاق الحق ولا جهلاً بما في إقامة هذا العدل من أجر عريض ، بل لأنهم كانوا يرون أن ماهم فيه من تدريس العلم لم يكن أقل أجراً. وحتى الذين تولوا القضاء لسبب أو لآخر فإن البعض منهم سرعان ما يستعفي منها وكان القاضي أبو علي الصدفي أشهر ذلك البعض. إذ تولى القضاء بمرسية نزولاً عند رغبة أهلها "فسار فيه سيرة فضحت من كان قبله وأتعبت من جاء بعده"[٤] لكنه ما لبث أن استعفى فلما لم يعف هرب إلى المرية وتوارى فيها شهوراً إلى أن جاءه كتاب الإعفاء فظهر لطلبته[٥] .

وكان القاضي أبو الوليد بن رشد أكثر حظاً من الصدفي فإنه بعد أن تولى قضاء الجماعة ما بين سنتي ٥١١ – ٥١٥هـ استعفى من عمله ليتفرغ لإكمال وإملاء موسوعته الفقهية "البيان والتحصيل" فأسعف بالعزل.

وقد بقي بعض العلماء في وظائفهم مكرهين على ذلك فقاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أحمد ابن الحاج التجيبي (ت٥٢٩هـ) رغم ما كان عليه من حظوة عند أمير

---

[١] بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص ١٢٧.

[٢] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٦١٩.

[٣] ابن القاضي: جذوة الإقتباس ج٢ ص ٤١٩.

[٤] ابن عطية: الفهرس ص ٧٥ ؛ ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤٤.

[٥] عياض: الغنية ص ١٩٤.

المسلمين بحيث "صرف إليه أمور الأندلس الكبار أيام قضائه" فإنه استعفى من القضاء فأعفي غير أنه ما كاد ينعم بإعفائه حتى أجبر على القضاء مرة أخرى[١] . بل أن القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي (٥٠٥هـ) الذي كان "من أحسن القضاة سيرة وأنزههم وأجرأهم على الطريقة القويمة" لما استعفي من قضاء سبتة فأعفي ، ألزم قضاء فاس بعد أن سجن على إبايته من ذلك[٢] . وليس بعيداً صواب هذه الإجراءات التي اتخذها المرابطون لإرغام العلماء على تولي القضاء والبقاء فيه ، إذ كيف يقوم الحق وينتشر العدل إذا كان الحكام لا يجدون من يعينهم عليه من أهل العلم والفضل؟ إن البديل هو علماء السوء من الجهال والضلال.

إن مهام الإستشارة والقضاء التي تولاها العلماء والتي أفادوا منها مجتمعهم إستفادوا منها جاهاً ومنزلة ، إن هذه المهام لم تشغل العلماء عن وظيفتهم الأساسية ومهمتهم الأولى وهي نشر العلم.

إن نشر العلم هو المهمة الأولى للعلماء ولازم صفتهم ، فهم ورثة الأنبياء ، الذي لم يورثوا درهماً ولا ديناراً بل علماً يهدي به الله من شاء إلى صراطه المستقيم.

فبالعلم ونشره يقود العلماء الناس إلى سبل النجاة والفوز في الدارين الدنيا والآخرة.

وفي العصر المرابطي قام العلماء بدورهم هذا كاملاً. فقد إنتشرت حلقات العلم في كل نواحي المغرب والأندلس وأمها الطلبة من كل حدب وصوب. فحرص كثير من العلماء على أن تكون وظيفة التعليم هي شغلهم الشاغل والوحيد "مواظبين على نشره ودرسه"[٣] ، لذا نرى كثيراً منهم يأبى أن يقرن مع التعليم غيره خشية أن يشغله هذا الغير عن إيفاء التعليم حقه. ولعل جواب الفقيه أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري لعامل دكالة لما دعاه هذا إلى ترك التعليم ومصاحبته وعرض عليه مقابل ذلك

---

[١] عياض: الغنية ص ١١٨.

[٢] عياض: الغنية ص ١٠٠.

[٣] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٦١٩.

ألف دينار ذهب مرابطية فرفض ذلك وقال له: "وا لله لو أعطيتني ملأ الأرض على أن أخرج عن طريقتي وأفارق ديدني من خدمة أهل العلم ومداخلة الفقهاء والإنخراط في سلكهم ما رضيت"[١] ، لعل هذا الجواب يمثل أحسن تمثيل نفسية هؤلاء المنقطعين إلى العلم. وكان هؤلاء يقسمون يومهم بين العبادة والتعليم والتأليف وقضاء حوائج الناس[٢] .

ومع حرص الكثير من العلماء على التفرغ للعلم فإن من تولى الوظائف مثل القضاء والشورى ظل على سيرة العلماء الأولى من نشر العلم. فقد كان للقاضي محمد ابن الحاج قاضي الجماعة مجلس في الجامع يسمع الناس فيه. وكذلك كان أبو عبد ا لله بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة والقاضي أبو بكر ابن العربي باشبيليه والقاضي شريح بن محمد بن شريح الرعيني (ت٥٣٩هـ) الذي أقرأ العلم عمره كله وتفاخر الناس بالأخذ عنه وتولى خطبة اشبيليه خمسين سنة والقضاء فيها سنين عدة "فلم يقطع الإقراء والأخذ عنه في تلك المدة"[٣] .

لقد كان العلماء في هذا العهد المرابطي يقدرون مهمتهم التعليمية حق التقدير فكان الواحد منهم صابراً على القعود للناس مواظباً على الأسماع ، يجلس لهم يومه كله ، وبين العشاءين"[٤] . وكان مجلس العلم موقراً مهيباً لا يتحدث فيه بأمر من أمور الدنيا مما لا تدعو إليه حاجة علمية فتلك المجالس كانت مجالس ذكر ورحمة[٥] .

وقد نشر العلماء في العهد المرابطي جميع العلوم من قرآن وفقه وحديث وتفسير وعربية ونحو وعلم كلام. ويكفي الباحث عن العلوم في ذلك العصر والكتب التي كانت تدرس أن يقف على فهرس بعض من علماء تلك الفترة مثل فهرس ابن عطية والغنية للقاضي عياض وفهرس ابن خير الأشبيلي[٦] . فهي تدل على كثرة العلوم وتشعبها مما

---

[١] ابن فرحون: الديباج المذهب ج١ ص ٢١٢ - ٢١٣.

[٢] الضبي: بغية الملتمس ص ١١٠٤.

[٣] عياض: الغنية ص ٢٧٤.

[٤] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٣٣٣

[٥] نفس المصدر: ص ٣٤٦.

[٦] تحقيق زهير فتح ا لله القاهرة ١٩٦٣.

يدل على أن العلماء في ذلك العصر لم يكونوا مجرد فقهاء فروعيين بل علماء في أقصى مدلولات الكلمة.

وقد إشتهر في هذا العهد علماء أجلاء أخذت عنهم أعداد كثيرة من الطلبة وانتفع الناس بهم. ولإستحالة إيراد أسماء هؤلاء فسنكتفي بإيراد نماذج منهم:

فمن هؤلاء الأعلام:

١- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (٤٠٣ - ٤٧٤هـ) سمع من عدد من علماء الأندلس ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٢٦هـ فأخذ عن عدد من علماء الحجاز والعراق والشام. وقد دامت رحلته العلمية ثلاثة عشر عاماً ثم عاد إلى الأندلس حيث اشتهر علمه وعلت مكانته فتفقه عليه خلق كثير[1] . وقد أثنى على الباجي كل من ترجم له واعتبروه إمام المالكية في الأندلس في عصره حتى أن خصمه ابن حزم الظاهري كان يقول عنه: لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب[2] مثل أبي الوليد[3] . وقد ألف الباجي الكثير من الكتب مثل كتاب "المنتقي في شرح الموطأ"[4] وكتاب "فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام"[5] وكتاب "التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح"[6] و"إحكام الفصول في أحكام الأصول"[7] وكتاب "الحدود في أصول

---

[1] عياض: المدارك ج٨ ص ١١٨ ؛ الضبي: بغية الملتمس ج٢ ص ٣٨٦.

[2] عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي (٣٦٢هـ - ٤٢٢هـ) فقيه مالكي مشهور ولد ببغداد وولي القضاء في بعض نواحي العراق ثم رحل إلى مصر حيث علت شهرته وتوفي فيها. له كتاب "التلقين" وكتاب "النصرة لمذهب مالك" و"شرح المدونة" (ابن فرحون: الديباج ج٢ص٢٦).

[3] ابن بسام: الذخيرة ق٢ ج١ ص ٩٦.

[4] طبع هذا الكتاب في سبع مجلدات بتحقيق ابن شقرون - مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩١٣ ثم أعادت طباعته دار الكتاب العربي ببيروت.

[5] طبع بتحقيق الأستاذ أبو الأجفان ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٥.

[6] مطبوع بتحقيق أبو لبانة حسين بدار اللواء للنشر والتوزيع الرياض ١٩٨٦.

[7] طبع بتحقيق د.عبد المجيد تركي بدار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٦.

الفقه"[١] وغيرها. وقد كان العلم تحصيلاً ونشراً الشغل الشاغل والهدف الأسمى لأبي الوليد.

وقد شرح لنا في الوصية التي كتبها لولديه مزايا إختيار طريق العلم فقال: "... والعلم سبيل لا يفضي بصاحبه إلا إلى السعادة ، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة ، قليله ينفع ، وكثيره يعلي ويرفع ، كنز يزكو على كل حال ، ويكثر مع الإنفاق ولا يغصبه غاصب ، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب ، فاجتهدا في طلبه واستعذبا التعب في حفظه ، والسهر في درسه ، والنصب الطويل في جمعه ... والعلم ولاية لا يعزل صاحبها ولا يعرى من جمالها لا بسها...."[٢]

وقد أثر الباجي في جيل العلماء الذين جاءوا من بعده. وإلى جانب التأثير العلمي حاول الباجي أن يؤثر في مسار الأحداث السياسية وأن يصلح ما استطاع من حال أهل الأندلس. وقد تركز مسعاه في محاولة لم الشمل بين أمراء الطوائف بدعوتهم إلى الوحدة لمواجهة الخطر المسيحي. كما سعى إلى إقناع أمراء الطوائف بالتعاون مع المرابطين والإستنجاد بهم لإنقاذ الأندلس من تهديد النصارى الداهم. وقد توفي وهو يسعى في هذا السبيل[٣] .

٢- أما الشخصية الثانية فهو أبو علي الحسين بن محمد وهو يعرف بالجياني الغساني (ت٤٩٨هـ)[٤] الذي كان من جهابذة المحدثين وكبار المسندين وشيخ الأندلس في وقته. رحل الناس إليه وعولوا في الرواية عليه ، وجلس لذلك بالمسجد الجامع بقرطبة فسمع منه علماؤها وفقهاؤها وطلبتها. وكان حفياً بطلبة العلم. فكان يتمثل فيهم قول القائل:

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم وأودهم في ا لله ذي الآلاء

أهلاً بقوم صالحين ذوي تقى غر الوجوه وزين كل ملاء

---

[١] طبع بتحقيق د. نزيه حماد نشر مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٣.

[٢] مجلة المعهد المصري بمدريد ، العدد ٣ ، السنة ١٩٥٥ ص

[٣] عياض: ترتيب المدارك ج٨ ص ١٢٧.

[٤] ترجمته في: ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ١٤١ ؛ عياض: الغنية ص ٢٠١ الضبي: بغية الملتمس ص ٢٩٤ ؛ المقري: أزهار الرياض ج٣ ص ١٤٩.

ياطالبي علم النبي محمـــد ما أنتم وسواكم بســـواء[1]

٣- ومنهم القاضي الشهيد أبو علي حسين بن محمد بن فيره بن سكرة الصدفي (٥١٤هـ) أخذ عن أبي الوليد الباجي ثم رحل إلى المشرق رحلة حج وسماع استغرقت تسع سنين أخذ فيها عن كثير من العلماء ، بلغ ما جمع منهم القاضي عياض مائتي شيخ وذلك في مصنفه "المعجم"[2] الذي كرسه لأخبار أبي علي الصدفي وشيوخه[3] . بعد هذه الرحلة عاد أبو علي الصدفي إلى الأندلس بعلم غزير وخصوصاً في الحديث حيث كان إماماً من أئمته[4] .

استقر الصدفي في مرسية منصرفاً إلى العلم وتدريسه ، فقعد يحدث الناس بجامعها ، فرحل الطلبة إليه من كل أنحاء الأندلس والمغرب وكثر سماعهم عليه. وأعانهم على هذا السماع ماكان يتمتع به هذا الشيخ من حسن خلق وأنه كان براً بطلبته صابراً عليهم. فكثر الإنتفاع به[5] . وقد ألف ابن الأبار (ت٥٩٤هـ) كتاباً جمع فيه أخبار تلاميذ أبي علي الصدفي وسماه "المعجم في أصحاب القاضي الصدفي"[6] فكان عدد من ترجم لهم ثلاثمائة وخمسة عشر.

وقد عظمت مكانة أبو علي الصدفي عند العامة والخاصة. وقد استخدم أبو علي الصدفي تلك المكانة في خدمة الناس والسعي في ما ينفعهم[7] . ولم يؤد إنقطاع أبي علي

---

(١) عياض: الغنية ص ٢٠١.

(٢) يعتبر هذا المصنف مفقوداً إلى الآن.

(٣) عياض: الغنية ص ١٩٤.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص١٤٤ ؛ ابن عطية: الفهرس ص ٧٤.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ١٤٤.

(٦) طبع هذا الكتاب عدة مرات منها طبعة مدريد ١٨٨٥ تحقيق المستشرق فرانسسكو كوديرا ثم طبعة مصر سنة ١٩٦٧ ثم أخرى سنة ١٩٨٩ بتحقيق ابراهيم الأنباري نشر دار الكتاب المصري.

(٧) وممن شفع لهم أبو علي الصدفي القاضي أبي بكر بن العربي إذ شفع له عند الأمير ابراهيم بن يوسف حاكم اشبيلية ليرد عليه أملاك والده التي صادرها المرابطون عند إستيلائهم على اشبيلية وقد استجاب الأمير إبراهيم لهذه الشفاعة (ابن الأبار: المعجم ص ٦٣).

سرقسطة في يد ألفونس المحارب ملك أرغون سنة ٥١٢هـ وانكشفت الجبهة الإسلامية من هذه الناحية وانفتح الطريق أمام قوات أرغون للإستيلاء على بلاد أخرى ، رأى أبو علي الصدفي أن الجهاد أصبح فرض عين بالنسبة إليه ، فقرر الخروج إلى الجهاد رغم أنه كان قد تجاوز الستين من العمر. جمع أبو علي من أراد الخروج من تلاميذه وأهل مرسية واستنهض همم الحامية المرابطية وأميرها. فخرج جيش إسلامي كبير متجهاً إلى الشمال يتقدمه أبو علي الصدفي في عدد جاوز العشرين ألف من المتطوعة. ولاشك أن وجود هذا العدد الكبير من المطوعة راجع إلى تأثير أبي علي الصدفي فيمن حوله. وكان هدف هذا الجيش هو إسترجاع سرقسطة.

ولم يكد ألفونس المحارب يسمع بخروج الجيش المرابطي حتى سار إلى لقائه في عدد كبير من قواده ورجاله. ووقع اللقاء عند مدينة كتندة في ربيع الأول ٥١٤هـ. وانجلى عن هزيمة كبيرة للمرابطين قتل فيها "حوالي عشرون ألف من المطوعة وعدد من الجيش المرابطي"[١] .

وكان على رأس هؤلاء المستشهدين أبو علي الصدفي في نفر من الشيوخ[٢] .

كان إستشهاده تتويجاً لحياة ملؤها الجهاد في سبيل الله عن طريق نشر العلم والصبر عليه لهداية الناس.

٤- ومن هؤلاء العلماء الأعلام: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت٥٢٠هـ)[٣] كان فقيهاً عالماً حافظاً للفقه ، مقدماً فيه على جميع أهل عصره ، نافذاً في علم الفرائض والأصول ، من أهل الرياسة في العلم والبراعة[٤] . وقد تولى ابن رشد قضاء قرطبة ، كما ذكرنا من قبل ، تحت إلحاح أمير المسلمين علي بن يوسف[٥] . وكان ابن رشد كارهاً

---

(١) ابن الأبار: المعجم ص٧.

(٢) ابن عطية: الفهرس ص ٧٤.

(٣) ترجمته في أكثر من مصدر منها: عياض: الغنية ص ١١٨ ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤١ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ٩٨.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤٦.

(٥) محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية ج١ ص ١٢٩.

لهذه التولية لذلك لم تطل مدته في القضاء بل استعفى منه بعد أربع سنوات من ممارسته له تلك الممارسة التي سار فيها بأحسن سيرة وأقوم طريقة ، فلما أعفي رجع إلى سيرته الأولى في نشر العلم. فرحل الطلبة إليه من أقطار الأندلس للتفقه.

وقد أجمع من ترجموا له بأنه كان ناسكاً عفيفاً سهل الحجاب ، وأستاذاً بطبعه يحب التدريس ، ويحسن طرق التبليغ ، تسعفه مادة علمية غزيرة وتفكير منظم وحرص على نفع الطلبة[١] .

وقد أعطاه كل ذلك مكانة مرموقة عند الخاصة والعامة فكان مقدماً عند أمير المسلمين علي بن يوسف عظيم المنزلة عنده معتمداً على فتواه[٢] .

استخدم ابن رشد هذه المنزلة الرفيعة لرعاية أهل بلده وخدمتهم "فكان الناس يلجأون إليه ويعولون في مهماتهم عليه ، وكان كثير النفع لأصحابه جميل العشرة لهم ، كثير البر بهم"[٣] . أي أنه كان ملاذ الناس وموئلهم في تلك السنين العصيبة التي شهدت إشتداد الضغط النصراني على الأندلس وما صحب ذلك من اضطراب وقلق متزايدين[٤] .

وكانت مواقف ابن رشد في هذا السبيل كثيرة ذكرنا جملة منها في الصفحات السابقة فنكتفي هنا بإضافة مثال آخر وهو موقفه وبلاؤه في إخماد ثورة أهل قرطبة أواخر سنة ٥١٤هـ ، وهي ثورة قامت بسبب بغي والي قرطبة أبي بكر يحي بن داود وظلمه. وقد ساند فقهاء قرطبة الثورة عليه. فأخرج من المدينة بعد أن نهب قصره وأحرقت جميع دور المرابطين.

ولما اتصل الخبر بأمير المسلمين علي جاز إلى الأندلس ، في بداية سنة ٥١٥هـ ، وحاصر قرطبة التي كان أهلها مصممين على الدفاع عنها. وقد أفتاهم فقهاؤهم بذلك.

---

[١] عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص ٣٩٠.

[٢] عياض: الغنية ص ١١٨.

[٣] ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤٧.

[٤] حسين مؤنس: شيوخ العصر ص ٩٦.

ولم يشأ علي بن يوسف اقتحام المدينة بل فضل حصارها والتفاوض مع فقهائها وبالأخص القاضي ابن رشد. وانتهت المفاوضات بأن يكتفى أمير المسلمين بقبول تعويض من اهل قرطبة عن ما نهبوه من ديار المرابطين وحاميتهم[1] .

وقد خرج ابن رشد من هذه المحنة زعيماً مطلقاً لأهل قرطبة "معتمداً في العظائم"[2]

وقد أثرى ابن رشد الميدان الفقهي بمؤلفاته فهو كما وصفه تلميذه القاضي عياض "جيد التأليف مطبوعه"[3] . ومن أهم مؤلفاته كتاب "البيان والتحصيل"[4] وهو كتاب جليل يعتبر بحق أحد أمهات كتب المذهب المالكي ، ومن أهميته أن ابن رشد لما أراد الإعفاء من القضاء برر طلبه لدى أمير المسلمين بأنه يريد التفرغ لإملاء كتابه هذا على الطلبة. ومن مؤلفاته الأخرى كتاب "المقدمات"[5] .

٥- أما الشخصية الخامسة التي نقدم فهي شخصية ابو بكر بن العربي (٥٤٢هـ) ، الذي وصفه تلميذه ابن بشكوال با"الإمام العالم الحافظ المستبحر ، ختام علماء الأندلس ، آخر أئمتها وحفاظها"[6] . رحل إلى المشرق شاباً سنة ٤٨٥هـ فلقي كثيراً من علماء الشام والعراق ومصر وصحب عدداً منهم[7] . ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣هـ وإستقر في اشبيليه حيث جلس للدرس والتأليف طيلة بقية أيامه لم يقطع بعمل آخر سوى ما كان من توليه القضاء لمدة عامين (٥٢٨هـ - ٥٢٩هـ) ثم انصرف منه لينقطع للعلم من جديد[8] .

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٢٩٠ ؛ الحلل الموشية: ص ٦٣.

(٢) عياض: الغنية ص ١٢٣.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) طبع في ١٨ مجلداً آخرها بتاريخ ١٩٨٧ وقد حققته مجموعة من الباحثين بإشراف إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر.

(٥) طبع بمصر عن دار السعادة

(٦) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٨.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

(٨) عياض: الغنية ص ١٣٣.

وقد أخذ عن ابن العربي جمع غفير من الطلبة في كل نواحي الأندلس والمغرب.

وكان أبو بكر بن العربي حريصاً على بث العلم ونشره كثير الإحتمال للطلبة ، حسن المعاشرة لين الكنف[١] . وهذه الصفات كثيراً ما تساعد طلبة العلم في الأخذ عن الشيخ والإستفادة منه. وقد بلغ من حرص ابن العربي على إفادة الطلبة في كل أوقاته ، أنهم كانوا في بعض الأحيان يبيتون معه في بيته[٢] .

لقد كان للتأليف نصيب كبير من حياة ابن العربي وجهده فخلف ثروة علمية ضخمة ولكن الكثير منها ضاع[٣] . أما ما وصل إلينا فمنه : كتاب "أحكام القرآن"[٤] و "عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي"[٥] وكتاب "القبس في شرح موطأ مالك بن أنس"[٦] .

وقد ألف في الفقه وأصوله إذ كان إماماً من أئمته المجددين. وهو من الرواد الذين أدخلوا علم الخلافيات إلى المغرب كما يقول ابن خلدون[٧] . وله في علم الكلام كتابه المشهور "العواصم من القواصم"[٨] .

٦- أما مثالنا الأخير فهو أشهر شخصيات هذا العصر وأكثرها تمثيلاً له وهو القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ). فقد كان "فقيه الفقهاء في قطره"[٩] وأحد سلاطين العلم في عصره و"ممن سارت مآثره مسيرة الشمس والقمر".[١٠] أخذ العلم عن شيوخ سبته ثم رحل إلى الأندلس للإستزادة ولقاء أكابر العلماء ، ثم عاد إلى بلده سنة

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٥٨.

(٢) الضبي: بغية الملتمس ص ٨٣.

(٣) سعيد اعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي ص ١٢١.

(٤) طبع بتحقيق علي محمد بجاوي نشر دار المعرفة بيروت.

(٥) مطبوع بعناية عبد الواحد محمد التازي بالقاهرة ١٩٣١.

(٦) طبع بتحقيق د. عبد الله الكريم نشر دار الغرب - بيروت - ١٩٩٤.

(٧) المقدمة: مج٢ ص ١٣١.

(٨) طبع أكثر من مرة منها واحدة بتحقيق د. عمار طالبي نشرة بعنوان "آراء أبي بكر بن العربي الكلامية" الجزائر ، ١٩٧٤ ، وهي التي اعتمدت عليها.

(٩) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص٢٠.

(١٠) ابن مخلوف: شجرة النور الزكية ص ١٤٠.

٥٠٨هـ. وإثر عودته أجلسه أهل سبتة للتدريس إعترافاً منهم بعلمه وتنويهاً بفضله. وفي سنة ٥١٥هـ ولي قضاء سبتة فكان فيه "حسن السيرة ، محمود الطريقة ، مشكور الخلة ، أقام الحدود على ضروبها وإختلاف أنواعها"[١] . ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة سنة ٥٣٠هـ إلا أنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حيث خرج منها مغاضباً لحاكمها لتدخله في شؤون القضاء[٢] . وقد أعيد تعيين عياض لقضاء سبتة سنة ٥٣٩هـ "فابتهج أهلها بذلك ، فسار فيهم السيرة التي عرفوا"[٣].

ورغم أن القاضي عياض مارس القضاء لمدة طويلة فإن ذلك لم يشغله عن التدريس ونشر العلم فكانت له حلقة في جامع سبتة للدرس والإقراء. وقد كان "محباً في طلبة العلم محرضاً لهم على طلبه: مسهلاً لهم الطرائق مبادراً لقضاء حوائجهم"[٤] . فعياض لا يكتفي ببذل ما عنده من علم بل يحرضن الناس على طلب العلم ، وأكثر من ذلك يساعدهم عملياً وبجميع الوسائل المادية والمعنوية المتوفرة لديه للتغلب على الصعوبات التي تواجههم في ذلك السبيل. وكما لم يمنعه القضاء من التدريس فهو لم يمنع من التأليف. وقد جاءت شهرة عياض أساساً عن طريق مؤلفاته العديدة والتي بلغت أكثر من ثلاثين مؤلفاً[٥] والتي لقيت رواجاً كبيراً وقبولاً حسناً لدى أهل العلم. لقد شكلت مؤلفاته بداية مساهمة أهل المغرب الأقصى في الميدان الفكري وأصبحوا رافداً من روافد نهر الثقافة الإسلامية.

ومن أشهر مؤلفات عياض كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"[٦] . وكتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" وكتاب "مشارق الأنوار على

---

(١) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص ١٠.

(٢) المقري: أزهار الرياض ج٣ ص ١٠.

(٣) نفس المصدر الصفحة ١١.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) الوراكلي: أبو الفضل القاضي عياض السبتي (ثبت ببليوجرافي) ط الأولى ١٩٩٤ ، دار الغرب الإسلامي بيروت ص ١٩.

(٦) طبع عدة مرات منها واحدة بتحقيق على البجاوي صدرت بالقاهرة عن مطبعة عيسى الحلبي

صحاح الآثار"[١] .

وقد بوأه هذا العلم الجم وهذا الإخلاص والثبوت على الحق ، مكانة كبرى في بلده وعظم قدره وجاهه فحاز من الرياسة في "سبتة مالم يصل إليه أحد قط من أهل بلده" ومازاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله[٢] .

لم يكن هؤلاء الأعلام إلا نموذجاً لفئة من العلماء أعلت مكانة العلم بتسخير أنفسها له وتفانت في خدمته لإصلاح المجتمع عن طريقه فرفعها الله بذلك.

وكان لتأثير هؤلاء العلماء أن إزدهرت العلوم وكثر النبهاء[٣] من كل فئات المجتمع بمن فيهم الأسرة الحاكمة فهذا أبو الحسين سراج بن عبد الملك (ت٥٠٧هـ)[٤] كان يجلس إليه للسماع منه أربعون إلى خمسين من رؤساء الملثمين. وقد أخذ عدد من أمراء المرابطين عن العلماء وإستجازوا منهم[٥] بل أن بعضهم إشتهر بالعلم مثل الأمير عمر بن ذمام بن المعتز أمير المرية الذي كان يدعى بالفقيه القائد[٦] . ومنهم زاوي بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوط (ت٥٣٩هـ)[٧] الذي كان

---

[١] طبع مرتين آخرهما بتحقيق أحمد يكن في أجزاء ثلاثة ضمن منشورات وزارة الأوقاف بالرباط ما بين سنة ١٩٨٢ - ١٩٨٨.

[٢] د. حسن الوراكلي: أبو الفضل عياض ص ١٣.

[٣] ابن الأبار: المعجم ص ٦٣.

[٤] أبو الحسين سراج بن عبد الملك (ت٥٠٧هـ) لغوي أديب راوية قال عنه عياض:"الوزير ، اللغوي ، الحافظ ، زعيم وقته وإمام أهل طريقته والمقدم في مصره بذاته وسليقته". (الغنية ص ٢٦١) وقال عنه ابن الأبار "وإليه كانت الرحلة في وقته بعد أبيه في تقييد كتب الأدب والغريب والشروح ، ودرس كتاب سيبويه ، وقل مشهور بالأندلس إلا وقد أخذ عنه (المعجم ص ٣١٥).

[٥] ابن الأبار: المعجم ص ٦٢.

[٦] ابن الأبار: التكملة ج١ ص ١٦٣ ؛ محمد بن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر ٨ ق١ تحقيق محمد بن شريفة ص ٢٢٠.

[٧] زاوي بن مناد بن عطية الله الصنهاجي المعروف بابن نقسوط (ت٥٣٩هـ): أحد أمراء المرابطين ، كان ديناً فاضلاً معنياً بالعلم وسماعه. سمع من أبي علي الصدفي كثيراً فمما أخذ عنه السنن لأبي داود وجامع الترمذي وتاريخ البخاري والمؤتلف والمختلف للدارقطني. كما أخذ بقرطبة عن أبي محمد بن عتاب وأجاز له أبو علي الغساني (ابن الأبار: المعجم ص ٩٧ - ٩٨).

من أعلام مدرسة دانية وشيوخها[1] . وخلوف بن خلف ا الله الصنهاجي[2] الذي سمع بقرطبة ثم ولي قضاء غرناطة[3] . ومنهم الفقيه الأمير أبو يعقوب ينتان بن تويت اللمتوني[4] وقد أخذ عن ابن عتاب وأبي الوليد بن رشد بقرطبة وغيرهما[5] . بل أن أمير المسلمين علي بن يوسف أكب على أخذ العلم حتى غدا عالماً ، مشهوراً بصدق الرواية[6] وكان من مشائخه العالم الفقيه المحدث أبو مراون عبد الملك بن ملحان[7] .

لقد شكل العلماء في هذا العصر تياراً فكرياً أثر أفراده في المجتمع المغربي والأندلسي تأثيراً بليغاً من خلال النفوذ الذي كان لهم. فقد أثروا في هذا المجتمع بالرأي السديد والمشورة الخالصة ، وبإقامة العدل والقسط ومساعدة الفقير والمحتاج والمظلوم حتى أن بعضاً منهم كان "موقوفاً على حوائج المظلومين والمضطهدين"[8] . ثم ببث العلم ونشره فقد كان لسان حالهم ينشد قول أبي محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ):

مناي في الدنيا علوم أبثها ... وانشرها في كل باد وحاضر

دعاء إلى القرآن والسنن التي ... تناسى رجال ذكرها في المحاضر

---

(١) ابن الأبار: المعجم ص ٩٧.

(٢) خلوف بن خلف ا الله الصنهاجي (ت٥١٥هـ): كان من أهل العلم والعمل والفضل صادعاً بالحق ساعياً في أعمال البر ، لا تأخذه في ا الله لومة لائم. تولى قضاء غرناطة ثم قضاء فاس كما تولى قضاء الجماعة بمراكش (أحمد بن القاضي: جذوة الإقتباس ج١ ص ١٩٣ ؛ العباس بن إبراهيم: الأعلام ج٣ ص ٢٢٠).

(٣) ابن القاضي: جذوة الإقتباس ص ١٩٣.

(٤) أبو يعقوب ينتان بن تويت (محمد) بن الوران اللمتوني: أمير مرابطي ، فقيه أخذ العلم عن ابن عتاب وابن رشد وآخرين بقرطبة وعلي ابن أبي جعفر بمرسية. وتوفي بزبيد باليمن. ولم يذكر السلفي تاريخ وفاته (السلفي: المعجم ص ٥٩ - ٦٠).

(٥) السلفي: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم للسلفي أعدها احسان عباس ص ٦٠.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١١٥.

(٧) ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٧٨.

(٨) ابن عطية: الفهرس ص ٩٦.

وقد كان منهجهم في التأثير قائم في المقام الأول على القدوة الصالحة والمثل الحي فكان أغلبهم "من أفراد الرجال جلالة وعلماً ومعرفة وصلابة في الحق ونفوذاً في منافع المسلمين"[١] .

ومع ذلك فالعلماء بشر خطاؤون تستهويهم المناصب ويغريهم المال فوجدت فئة منهم ، وإن كانوا قلة ، أستخدمت نفوذها في أغراض شخصية ومنافع آنية فأخلدوا إلى الأرض وقد تنبه إلى هؤلاء ومسلكهم السيء في إستخدام العلم ، بعض من العلماء مما حدا بالفقيه عبد العزيز التونسي (ت٤٨٦هـ) إلى ترك تدريس الفقه ، وكان يدرسه بأغمات ، لما رأى الطلبة نالوا بذلك الخطط والعمالات وقال: "صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص"[٢] . لاشك أن هذا الموقف موقف متطرف نابع من زهد عميق لكنه يكشف عن نظرة سائدة في تلك الفترة تجل العلم وتجعله خالصاً لله مبرءاً من الأغراض الدنيوية.

لقد أدى النفوذ الكبير الذي تمتع به العلماء في الدولة المرابطية وتأثيرهم الواضح على الأحداث فيها أن تعرضت هذه الدولة وعلمائها إلى حملة شعواء وإفتراءات شتى وتحمل كبر ذلك عدد من المستشرقين الحاقدين. ويدعى هؤلاء المستشرقون أن المرابطين لم يكونوا إلا "بدو أجلاف لا يعرفون لرغد الحضارة معنى ، فحاربوا أهل الفكر ، ... وتلاشت كل الأصوات التي تتغنى بالشعر والأدب وفنون العلم الأخرى أمام صليل السيوف وأصوات الفقهاء"[٣] هذا ما يقوله دوزي ، والذي يقول في تقويمه لحكم علي بن يوسف" "ففي ظل هذا الرجل التافه حلت النساء والفقهاء محل كبار السن وأشرافهم. وكان الشعر صورة صادقة للعصر فانتقل من القوة وخلو البال والخفة واللهو إلى الجفاف والحزن والتدين. وكانت هذه الأزمان من السوء بحيث أخذت العيون ترتفع عن الأرض إلى السماء..."[٤] .

---

[١] نفس المصدر ص ٨٤.

[٢] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٣٥٨.

[٣] نقلاً عن انجل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠.

[٤] نفس المرجع والصفحة.

أما المستشـرق أشباخ فبأقسـى مـن هـذه اللهجـة يتحـدث ويذهـب في تاريخـه للأندلس إلى أن المرابطين "اضطهدوا كل ما عنيـت الدولـة بتشجيعه مـن قبـل وطـاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم المرابطية .."[١] .

وقد حذا عدد من الدارسين العرب حـذو هـؤلاء المستشـرقين وحملـوا عنهـم عبأ التهجم على المرابطين ومن هؤلاء محمد عبد الله عنان الذي يقول عن المرابطين: " وكـان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً يؤثرون مهـاد الجندية والخشـونة وتغلـب عليهـم الأفكار الرجعية"[٢] . ويرى جودت الركابي أن النهضة الفكرية والأدبيـة توقفـت عقب سقوط دول الطوائف في الأندلس لشدة تعصب المرابطين وتزمتهم ، فهم قوم لا يعرفون إلا الحرب وخشونتها ولذلك لم تجد دولة الفكر والأدب في ظلمهم مرتعاً خصبا[٣] .

لقد بنى هؤلاء المؤرخون أحكامهم تلك على بعـض النصـوص الـتي أوردهـا عبد الواحد المراكشي مثل قوله: "فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علـم علم الفروع أعـني فـروع مذهـب مـالك ، فنفقـت في ذلـك الزمـان كتـب المذهـب وعمـل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر حتـى نسـي النظـر في كتـاب الله وحديـث رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشـاهير أهـل ذلـك الزمـان يعتـني بهمـا كـل الإعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهـر منـه الخـوض في شـيء مـن علـوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره إلى إختلال في العقائد"[٤]

لقد تعمدنا نقل هذا النص بطوله لأنـه هـو القـاعدة الـتي بنـى عليهـا المؤرخـون أحكامهم التي أصدروها ضد المرابطين والعلماء في دولتهـم. لقد تعرضنـا لهـذا النـص في فصل سابق وبينا هناك ما فيه من مجانبة للحقيقة وبينا الدوافع وراءه. والدعـوى التي

---

[١] يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٤٨٣.

[٢] عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع ص ٤٣٦.

[٣] جودت الركابي: في الأدب الأندلسي ص ٥٥.

[٤] المعجب: ص ٢٥٤

نريد التعرض لها هنا ومحاولة استكناه حقيقتها هي هل كانت الدولة المرابطية خلية من الآداب؟ وما مدى تأثير نفوذ العلماء على الأدب في تلك الفترة؟

لقد كانت الدولة المرابطية منذ قامت دولة جهاد تسعى إلى نشر الإسلام في افريقيا الغربية ثم تنقية الدين من الشوائب في المغرب وخلق مجتمع يهتدي بالإسلام ثم أخيراً لإنقاذ دار الإسلام في الأندلس من أن يكتسحها طوفان الإسترداد المسيحي.

هذا الجهاد المتواصل وماكان يحتمه من جهد دائم وتعبئة متواصلة لم يعط الدولة المرابطية وقتاً للإسترخاء والترف وهي البيئة التي يزدهر فيها الأدب وتورف فيها ظلاله.

لقد كان عهد يوسف بن تاشفين عهد جهاد خالص بإعتباره الغاية الأولى للدولة ، فكان من الطبيعي والحال تلك أن لا يلقى هذا الأمير ، المجاهد المتقشف ، للشعر وأهله بالاً بإعتبار أكثره ضرب من ضروب النفاق ، التي لا تقدم أو تؤخر في المجال الذي نذر نفسه له.

لقد كانت نظرة يوسف بن تاشفين إلى الشعراء نظرة تقيمية خلقية تعتمد مبدأ الخيرية السرية ومن هنا كان حكمه على شعراء الأندلس الذين مدحوه فقد قال فيهم كلمته المشهورة: "إنهم يريدون خبزاً"[١] . ويدل هذا التعبير على أن أمير المسلمين ماكان يرى في هؤلاء الشعراء أكثر من "مرتزقة" يؤجرون ألسنتهم وقوافيهم لكل باذل "خبز" مهما كانت تصرفات هذا الباذل وسلوكه. ولم تكن الشواهد على ذلك بعيدة. فقد مدح الشعراء بالأمس القريب المعتمد بن عباد وأثنوا على عمله "المشرف" "ومفخرته الخالدة" بإعطائه الجزية للملوك المسيحيين: فهو في نظر الشاعر حسان المصيصي ذلك الجواد الكريم الذى لا يشح بمال فهو يعطيه للنصارى[٢] . وطبعاً لا يهم الشاعر إن كان ذلك الكرم ، بلغة أخرى غير لغته المنافقة ، هو ذل الجزية التي يعطيها صاحبها وهو صاغر.

---

[١] المقري: نفح الطيب ج٤ ص ١٨٤.

[٢] ابن بسام: الذخيرة ق٢ ص ٨٧ ؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص ٣٨٥.

ويبلغ النفاق منتهاه وقلب الحقائق "غايته مع الشاعر ابن اللبانة الداني الذي يجعل هذا العمل المشين نصرة للإسلام ! ! فيقول:

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته   تأتي النصارى بما تأتي فتنخدع

تنيلهم نعماً في طيها نقم   سيستضر بها من كان ينتفع[١]

ومع ذلك فقد اجتمع ليوسف " من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق إجتماعه في عصر من الأعصار"[٢] إن هذا الحكم ليس صادراً عن مناصر من مناصري المرابطين بل صادر عن عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب الذي أعتمد أعداء المرابطين على مقولته التي ذكرنا قبل. ومن مشاهير من التحق بديوان الأمير يوسف من الأدباء عبد الرحمن بن اسباط[٣] وأبو محمد بن عبد الغفور[٤] وعبد المجيد بن عبدون[٥].

---

[١] ابن بسام: الذخيرة.ق٢ ج١ ص ٢٤٩

[٢] المراكشي: المعجب ص ٢٨٣.

[٣] عبد الرحمن بن أسباط (ت٤٨٧هـ) كاتب أندلسي من أهل المرية ، كان من أوائل من التحق من الكتاب الأندلسيين بالبلاط المرابطي ، فكتب لزينب النفزاوية زوجة أمير المسلمين يوسف ثم بعد موتها صار كاتباً ليوسف ومستشاراً وقد ظهرت حكمته عندما إستشاره أمير المسلمين يوسف في مسألة إعانة أهل الأندلس ومكاتبتهم له فأشار عليه بقبول ذلك ولكن بشرط أن يسلمه المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء "فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت" (مجهول: الحلل الموشية ص ٤٩ - ٥٠ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٣ ص ٥٢٣).

[٤] أبو محمد عبد الغفور بن محمد بن عبد الغفور: شاعر ، أديب وكاتب. كان أحد كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف وممن اتصل ببلاطه وهو من أسرة مشهورة بالأدب والعلم. و لم نقف على ذكر تاريخ وفاته. إلا أنه كان في ديوان أمير المسلمين سنة ٥٣١هـ (ابن بسام: الذخيرة ق٢ مج١ ص ٣٢٥ - ٣٦٨ × ابن سعيد: المغرب ج١ ص ٢٤١ ؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٨٤).

[٥] أبو محمد عبد المجيد بن عبدون (ت٥٢٥هـ) أحد أعيان الكتاب كان فقيهاً شاعراً. وكان قبل أن يتصل بالبلاط المرابطي منقطعاً إلى المتوكل صاحب بطليوس فلما زالت دولتهم على يد المرابطين سنة ٤٨٥هـ رثاهم بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

(ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص ٤١٧ ؛ المراكشي: المعجب ص ١١٣ ؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص ٣٧٤).

ولأن كان ذلك هو موقف أمير المسلمين يوسف فإن خلفاءه وإن ظل الجهاد هو ديدنهم فإنه كان للشعر والأدب في أيامهم حضور ملموس. يقول عبد الواحد المراكشي عن علي بن يوسف أنه لم يزل "من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك[١] " وقد كان كتاب أمير المسلمين علي من أعيان أهل الأدب ومشاهيرهم مثل محمد بن أبي الخصال[٢] وأبو القاسم بن الجد[٣] وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة[٤] .

وكان علي بن يوسف ممدحاً من الشعراء وكان جوازه إلى الأندلس موسماً من مواسم الشعر "فيجزل للشعراء العطاء ، ويقضي لمن كان ذا أرب أربه ويسنى لكل ذي مطلب مطلبه"[٥] .

وكان لبقية أمراء الدولة وولاتها كبير إهتمام بالكتاب والشعراء يقربونهم في عناية وتشجيع.

---

[١] عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٥٥.

[٢] أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال (ت٥٣٩هـ) الوزير الكاتب قال عنه ابن خاقان "حامل لواء النباهة الباهر بالرواية والبداهة له تفنن في العلوم والآداب وزر لعلي بن يوسف وكتب عنه رسائل كثيرة (ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص ٥١٨ ؛ المراكشي: المعجب ٢٥٦ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٦٦).

[٣] أبو القاسم محمد بن الجد الفهري المعروف بالأحدب (ت٥١٥هـ) قال عنهابن بشكوال: "كان من أهل التفنن في المعارف والتقدم في الأدب والبلاغة وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث" (الصلة ج٢ ص ٥٤٤ ؛ ابن خاقان: قلائد العقيان مج١ ص ٣١٣ ؛ المراكشي: المعجب ص ٢٥٥).

[٤] أبو بكر عبد العزيز المعروف بابن القبطرنة (ت٥٢٠هـ) أحد رؤساء العصر في صنعة النثر والنظم (ابن خاقان: قلائد العقيان مج ١ ص ٤٣٥ ؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص ٣٦٨).

[٥] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٤٧.

فقد كان الأمير ابراهيم بن يوسف[١] والأمير أبو بكر بن تيفلويت[٢] والأمير عبد ا لله بن مزدلي[٣] من رعاة الأدب ومشجعيه.

فقد قرب الأمير ابراهيم الفتح بن خاقان[٤] الذي ألف باسمه كتابه "قلائد العقيان" وذكر في مقدمته فضله على الأدب حيث قال: "ولم يزل شخص الأدب وهو متوار وزنده غير وار وجده عاثر ومنهجه داثر إلى أن أراد ا لله إعتلاء إسمه وإحياء رسمه وإنارة أفقه وإعادة رونقه ، فبعث من الأمير الأجل أبي اسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكاً عالياً للبة المجد حلياً..."[٥]

---

[١] إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (ت٥٢٨هـ) أخو الأمير علي بن يوسف ويعرف بابت تعيشت وهو إسم أمه ولي إمارة سبتة ثم مرسية ثم بلنسية ثم اشبيلية قبل أن يعزل سنة ٥١٥. وكان ابراهيم هذا من أعاظم قواد المرابطين وله على نصارى الأندلس وقائع كثيرة (ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص ٣ ، ابن الأبار: المعجم ص ٦٢).

[٢] الأمير أبو يحي أبو بكر بن ابراهيم المسوفي المعروف بابن تيفلويت (ت٥١٠هـ): أحد أمراء المرابطين ، صهر أمير المسلمين علي بن يوسف على أخته. ولاه علي بن يوسف حاكماً لغرناطة ثم مرسية ثم عينه سنة ٥٠٨هـ حاكماً على شرق الأندلس وقاعدته يومذاك سرقسطة. غير أنه لم يكن في حزم وبسالة سلفه القائد محمد بن الحاج الذي استشهد في قتال النصارى سنة ٥٠٨هـ وقد اشتهر ابن تيفلويت بجانب آخر غير ميدان الحرب هو أنه كان من رعاة الأدب فقرب الشاعر ابن خفاجة والفيلسوف ابن باجة السرقسطي (ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ٤٠٤ - ٤٠٩ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦١).

[٣] الأمير عبد ا لله بن مزدلي (ت٥١٢هـ): ابن القائد المرابطي الكبير أبي محمد مزدلي بن تيولتكان ؛ شارك مع أبيه مزدلي في إسترداد بلنسية سنة ٤٩٥هـ ثم ولي إمارة غرناطة إثر وفاة والده سنة ٥٠٨هـ. وعقب وفاة أمير سرقسطة ابن تيفلويت سنة ٥١٠ وإشتداد الضغط على هذا الثغر ولي عبد ا لله على سرقسطة سنة ٥١١هـ إلا أنه لم يلبث إلا عاماً واحداً أمضاه في مدافعة النصارى عنها فتوفي سنة ٥١٢هـ (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٦١ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٢).

[٤] أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد ا لله القيسي الأشبيلي الشهير بابن خاقان (ت٥٢٩هـ): أحد الأدباء الكتاب المصنفين المشهورين قال عنه المقري:"كان آية من آيات البلاغة ، لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ... لا يمل من المعاقرة والقصف حتى هان قدره ... ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا ودخله مسترفداً أميره" (نفح الطيب ج٩ ص ٢٦٣) من أهم مؤلفاته كتاب "قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" وكتاب "مطمح الأنفس". توفي مقتولاً بفندق بمراكش سنة ٥٢٩هـ (ابن الأبار: المعجم ص ٣٠٨ ؛ ابن سعيد: المغرب ج١ ص ٢٥٩ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٢٤٨ - ٢٥٣).

[٥] ابن خاقان: قلائد العقيان ص ٤٥.

وقد إشتهر في هذا العهد شعراء وأدباء كثيرون كانت لهم مكانة بارزة في الأدب الأندلسي فمن هؤلاء: ابن خفاجة الذي قال عنه ابن خاقان "ملك أعنة المحاسن وناهج طريقها العارف بترصيعها وتنميقها الناظم لعقودها الراقم لبرودها"[(١)] . وكان شاعر الطبيعة في الأندلس ، فطار صيته في وصف الجنان والحدائق حتى لقب بالجنان وظل أثر ابن خفاجة أو الطريقة الخفاجية كما يسميها جارسيا جومس قدوة ومثلاً يحتذي به في وصف الطبيعة[(٢)] .

وممن أشتهر في هذا العصر الشاعر الأعمى التطيلي الذي تفوق في فن التوشيح فكان "سابق فرسان حلبته"[(٣)] وصار توشيحه مثلاً سائراً بين الناس ومن موشحه المشهور موشحته التي مطلعها:

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان   وحواه صدري[(٤)]

وغير هذين كثير من أمثال ابن صارة وأبو بكر بن رحيم ممن نجد شعرهم في الذخيرة لإبن بسام وقلائد العقيان لإبن خاقان وغيرهما.

لقد تميز العهد المرابطي بنبوغ عدد من أهل الأدب الموسوعيين الذين أغنوا المكتبة الأدبية بمؤلفاتهم عن الأدب الأندلسي وفي مقدمة هؤلاء أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤١هـ) الذي ألف كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"[(٥)] والذي يعتبر من أشهر وأحسن كتب الأدب والتاريخ الأندلسي ويوضح ابن بسام في مقدمته الدافع النفسي الذي دفعه إلى تصنيف كتاب الذخيرة فلقد رأى إنصراف أهل بلده إلى المشرق للتزود من حضارته والإرتواء من علومه والإعجاب به وإهمال آداب بلدهم فأراد بوضعه لهذا الكتاب أن يجمع به من رائق الشعر ما يبصر أهل الأندلس بتفوق آدابهم

---

(١) نفس المصدر: مج٢ ص ٧٣٩.

(٢) انخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٢٤

(٣) ابن خلدون: المقدمة مج٢ ص ٢٩١.

(٤) ديوان الأعمى التطيلي: ص ٢٥٣.

(٥) مطبوع بتحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٧٨.

وروعة إنتاجهم[١] . ومن هـؤلاء الموسوعيين الفتح بن خاقان صاحب كتابي "قلائد العقيان"[٢] و "المطمح"[٣] .

وليس هذا العرض مقام إستيفاء للموضوع فنكتفي بإيراد آراء بعض دارسي أدب هذا العصر. يقول د. إحسان عباس: "ولما قامت دولة المرابطين ، لم يبلغ لديهم تشجيع الأدب ، والشعر خاصة ما بلغه الحال في بلاط بني عباد ، غير أن الوضع في عهدهم لم يكن أسوأ حالاً مما كان لدى بقية دول الطوائف"[٤] . ويقول د. عباس الجراري: "وعلى العكس من كل ما يقال عن جمود المرابطين فقد عرف المغرب على عهدهم بداية نهوض وتفتح بعد أن تعثر فترة من الزمن طويلة"[٥] .

أما عن مدى تأثير الأدب وأهله بتنفذ العلماء في الدولة المرابطية فنرى أن هذا التأثر حصل على مستويات عدة منها:

أ – مضمون الأدب: فقد نتج عن إنصباغ الدولة المرابطية بالصبغة الدينية لتحكم العلماء فيها ، أن أصبح الأدب والشعر بالخصوص أكثر تأثراً بالمفاهيم الدينية فكثر شعر الجهاد والزهد[٦] وحتى المدح أصبح ذو نفس ديني مثل قول أبي الحسن بن الجد يمدح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين:

أنظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك ... في ا لله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ ... كما رعاها بطرف ساهر عمر[٧]

وقول ابن رحيم فيه:

ليوسف مفخر يروي ويتلى ... كما يتلى الحديث عن النبي

---

[١] الذخيرة: ق١ مج١ ص ١٢.

[٢] طبع أكثر من مرة ومنها طبعة بتحقيق د. حسين خربوش مكتبة المنار الأردن سنة ١٩٨٩.

[٣] المطمح: طبع أكثر من مرة منها طبعة بتحقيق محمد شوابكة نشر دار الرسالة بيروت ١٩٨٣.

[٤] احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلس ص ٧٧ – ٧٨.

[٥] عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ج١ ص ١٠٤.

[٦] منجد مصطفى بهجت: الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين ص ٢٦٤.

[٧] ابن الخطيب" أعمال الأعلام ص ٢٤٢.

ركبت مناهج التقوى ففاقت ... أمـــورك كل أمـــر معتلي
وسرت بسيرة العمرين عدلاً ... ولم تقعـــد مضاء عـــن علي[1]

ب- أثر العلماء في المظاهر الرسمية التي كانت تقام للأدب والشعر في أحضان اللهو والمجون على عهد الطوائف فألغوا هذه المظاهر.

لقد ساهم عدد من العلماء في تشجيع الأدب وأهله. فأنتجعهم الشعراء ووجدوا في ظلهم بعضاً مما كانوا يألفون من عطايا في زمن بني عباد. ومن هؤلاء العلماء قاضي قضاة الشرق أبو أمية إبراهيم بن عصام (ت٥١٦هـ) الذي كان فصيحاً أديباً كريماً محباً للأدب وأهله فقصده عدد كبير منهم فمدحوه ومن هؤلاء ابن خفاجة وابن صارة[2] .

ومنهم قاضي الجماعة بقرطبة أبو عبد الله بن حمدين فقد كان "للشعر والنثر من عنايته أوفر نصيب ولأهله من إستقلاله وكفايته حمى غير مقروب ، وقد رفعت له على علمه نار ، فضربت عليه في حرمه أرواق وأستار"[3] . وقد قصده عدد كبير من الشعراء ومدحوه فأجزل صلتهم. ومن أمثلة مدحهم له قول ابن صارة:

الله أكبر قد وافيت قرطبـــة ... دار العلـــوم وكرسي السلاطين
وقد تهلل لي وجـه النجاح بها ... طلق الأسرة من وجه ابن حمدين
تزهى العلا بمساعيه إذا ذكرت ... زهـــو الأنوف بأنفاس الرياحين
لم يرضه عرض الدنيا فجاد به ... وضن بالأكرمين العرض والـدين[4]

إن النظرة المتأنية للعهد المرابطي تكشـف للبـاحث وجـود الأدب وإنتشار أهله بدليل الأسماء الكثيرة من شعـــراء وكتاب التي حفلت بهـــا تلك الحقبة. كما يكشف

---

[1] ابن خاقان: قلائد العقيان مج ١ ص ٣٦٠

[2] المصدر السابق مج ٢ ص ٦٢٩.

[3] ابن بسام: الذخيرة ق٢ مج٢ ص ٦٢٩.

[4] حسَن الوراكلي: ابن صارة الشنتريني ص ٣٤

الباحث أن أصحاب "قال مالك" لم يحولوا دون مني أصحاب "قام زيد" بـل بـالعكس أفادوهم مما أفادوا وأولوهم مما نالوا.

إن المكانة العلية والنفوذ الواسع الذي تمتع به العلماء في العهد المرابطي جعلـت منهـم فئـة مؤثـرة في المجتمـع ذات نصيـب كبـير في توجيهـه ، مشـاركة في القـرارات والتوجهات. بل في بعض الأحيان طامحة إلى ماهو أكثر من ذلك وهو أن تكـون صاحبـة القرار. وهو ما سنراه في الفصول التالية.

الفصل الثاني

العلماء في مواجهة السلطة

إستعرضنا في الفصل السابق المكانة الكبيرة والنفوذ العظيم الذي أصبح للعلمـاء في الدولة المرابطية ، والإجلال والإحترام الذي كان لهم في نفوس الخاصـة والعامـة. ورأينـا كيف إستخدم العلماء هذه المكانة ومارسوا هذا النفوذ.

ويبدو أن هذا النفوذ المادي والمعنوي وهذا القبول قد أغـرى بعـض العلمـاء بعـدم الإكتفاء بأن يكونوا شركاء في الحكـم ، حتـى ولـو كـانوا شـركاء نـافذين ، بـل صبت أنفسهم لأن يكونوا هم أصحاب الحكم الوحيدين.

لقد كانت إغراءات السلطة وحب النفوذ طاغية لدى مجموعة من العلماء ، وكان السبيل إلى تحقيق هذا الحلم المنشود وهذا الأمل البراق يصطدم بواقع تملؤه دولة وسـلطة قائمة. فكان طبيعياً والحـال هـذه أن يصطـدم هـؤلاء العلمـاء الطموحـون بـأهل السـلطة القائمة. لقد كان أول هؤلاء الطامحين إلى المجـد المؤثـل والسـاعين إلى الإطاحـة بالدولـة المرابطية هو الفقيه محمد بن عبد ا لله المعروف بابن تومرت[١] . ولما سيكون لحركة هـذا الفقيه وثورته من نتائج كبيرة علـى منطقـة المغـرب الأقصـى كلـه فإننـا سـندرس ثورتـه بتفصيل مبينين دوافعها ووسائلها.

---

[١] ترجمته في أكثر من مصدر منها: أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بـالبيدق: أخبـار المهـدي بـن تومـرت وبداية دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ١٩٧١ ، ومؤلف الكتاب هو أحـد أتبـاع ابـن تومرت ومرافقيه منذ رجوعه من رحلتـه العلميـة. عبـد الواحـد المراكشـي: المعجـب ص ٢٦٢ - ٢٨٧ ؛ ابـن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٢٥ - ٢٢٩ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٢ ؛ مجهول: الحلل الموشـية ص ١٠٣ ؛ عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت.

١- التكوين العلمي لابن تومرت:

بدأ دراسته في المغرب[١] ثم رحل إلى الأندلس ومنها إلى المشرق. وقد إختلف المؤرخون في تحديد زمن قيامه بهذه الرحلة فيذكر المراكشي: أن ابن تومرت إرتحل في سبيل العلم في سنة ٥٠١هـ[٢]. في حين يقول أشباخ أنه ذهب إلى المشرق لطلب العلم بعد بضعة أعوام من تولي علي بن يوسف الحكم[٣] . وفي هذه الرحلة أخذ ابن تومرت عن عدد من العلماء من بينهم أبي بكر الطرطوشي وأبي بكر الشاشي[٤] الذي درس عليه الفقه والأصول ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار[٥] وغيرهم[٦] .

وتذكر بعض الروايات أن ابن تومرت لقي الإمام أبا حامد الغزالي ودرس عليه في بغداد وقيل بل لقيه بالشام أيام تزهده[٧] . ويجعل ابن أبي زرع هذا اللقاء ملازمة طوال ثلاث سنين وأن هذا كان يبشره بأنه سيكون له شأن[٨] .

وسنقف قليلاً عند هذا اللقاء الذي جعله عدد من المؤرخين مسلمة من مسلمات التاريخ فبنوا عليها أحكاماً ورتبوا عليها إستنتاجات. فنتساءل متى كان هذا اللقاء. وأين؟.

---

[١] لا يذكر المؤرخون شيئاً ذا بال عن دراسة ابن تومرت في المغرب بل تكاد تكون حياته الأولى قبل سنة ٥٠٠ هـ مجهولة ؛ وقد إكتفى ابن خلدون بأنه ولد في بيت صلاح وأنه شب قارئاً محباً للعلم (العبر ج٦ ص ٢٢٥).

[٢] المراكشي: المعجب ص ٢٦٢.

[٣] يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١٨٦.

[٤] أبو بكر محمد بن أحمد فخر الإسلام الشاشي (ت٥٠٨) فقيه شافعي ، إنتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره. تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وإستمر إلى أن مات. من تصانيفه "حلية العلماء في مذاهب الفقهاء" (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص ٥٨٨).

[٥] ابو الحسين المبارك بن عبد الجبار الطيوري البغدادي (ت٥٠٠) محدث ، صدوق صحيح الأصول ، كثير الكتب (الحنبلي: شذرات الذهب ج٣ ص ٤١٢) وتاريخ وفاة المبارك يجعلنا نشك في رواية لقاء ابن تومرت له وهو لم يغادر المغرب إلا سنة ٥٠١هـ. والذي يبدو هو أن أتباع ابن تومرت جمعوا لائحة من الأسماء البارزة وجعلوا منها أشياخاً له لإصباغ صبغة علمية كبرى عليه.

[٦] المراكشي: مصدر سابق ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

[٧] المصدر السابق: نفس الصفحة.

[٨] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٢.

لقد خرج ابن تومرت كما ذكرنا قبل ، من وطنه في طلب العلم سنة ٥٠١هـ أو بعدها وقضى فترة في الأندلس ثم في المهدية والأسكندرية ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥هـ. وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي ٤٨٤ و٤٨٨هـ[1] وفي هذه السنة الأخيرة غادر بغداد في رحلة تأملية وسياحة نفسية إمتدت إلى سنة ٤٩٩[2] وقد زار في هذه الرحلة دمشق وبيت المقدس والأسكندرية ومكة المكرمة والمدينة المنورة. إذن فيكون من المستحيل زمنياً أن يكون ابن تومرت الذي غادر وطنه في التاريخ الذي ذكرنا ، قد إستطاع أن يلتقي بالغزالي خلال هذه الرحلة. وبعد هذه الرحلة إنتدب الإمام الغزالي من طرف الوزير فخر الدين بن نظام الملك[3] بالتدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور وذلك في أواخر سنة ٤٩٩هـ[4] . وقد ظل الغزالي بنيسابور إلى أن غادرها إلى مسقط رأسه "طوس" حيث إنقطع للعبادة والتأليف إلى أن توفي سنة ٥٠٥هـ فيتضح من هذا جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية.

والظاهر أن هذه القصة من إختراع بعض أنصار الدعوة الموحدية الذين عرفوا منزلة الإمام الغزالي في العالم الإسلامي وقرءوا الكثير عن جلاله ومكانته فاخترعوا هذه القصة ليضفوا بذلك قوة على الدعوة الموحدية وصاحبها ولاسيما أن ابن تومرت قد إبتدأ

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص ٢١٧.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤ ص ١٢.

(٣) علي بن الحسن ، أبو المظفر فخر الملك بن نظام الملك (٤٣٤ - ٥٠٠هـ) وزير ، أصل أبيه من طوس ، تولى الوزارة للسلطان بركيارق سنة ٤٨٨هـ ، ثم فارقه قاصداً نيسابور ، فاستوزره صاحبها الملك سنجر ، فاغتاله فيها أحد الباطنية. (الزركلي: الأعلام ج٥ ص ٨٢).

(٤) الموسوعة الإسلامية الميسرة أشرف على تحريرها هـ.أ.جب و ج.هـ.كـالمرز ترجمة راشد البراوي ط الأولى ١٩٨٥ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ج٢ ص ٧٢٢.

دراسته بالمشرق والغزالي مازال على قيد الحياة ، لكن واضعي القصة لم يحكموا أطرافها[1] . ويبدو أن المؤرخ الكبير ابن خلدون كان متأكداً من زيف هذا اللقاء غير أنه لأسباب موضوعية[2] لم يصرح برأيه فاكتفى بإبداء ريبه فيها بحمل الأمر محمل الزعم[3].

وقد تمكن ابن تومرت خلال إقامته بالمشرق من تحصيل علوم كثيرة حتى أصبح كما يقول ابن خلدون: "بحراً متفجراً من العلم"[4] وصار على درجة عالية في علم الكلام والعلوم الشرعية وحتى في خط الرمل[5] .

وقد خلقت هذه العلوم التي درسها ابن تومرت والبيئة التي عايشها طوال فترته المشرقية[6] . خلقت كلها منه شخصية متفردة بما تحمله من متناقضات فكرية وسلوكية. مما سنتعرضّ له لاحقاً.

٢- **مرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

بدأ ابن تومرث رحلة العودة إلى وطنه بعد قضاء وطره من المشرق. وبدأت هذه الرحلة من سنة ٥١١هـ. وقد مر ابن تومرت في طريق العودة بمصر حيث بالغ في الإنكار

---

[1] إمعاناً في التزوير حاول الموحدون جعل ابن تومرت رفيقاً للقاضي ابن العربي في حضرة الإمام الغزالي (مجهول: الحلل الموشية ص ١٤٨) والمعروف تاريخياً أن ابن العربي أنهى رحلته العلمية ، التي قادته إلى بغداد ، سنة ٤٩٣هـ وعاد إلى الأندلس أي أنه عاد قبل خروج ابن تومرت من المغرب بسبع سنوات.

[2] لقد ألف ابن خلدون تاريخه في ظل الدولة الحفصية في افريقية فلم يكن معقولاً أن ينفي جملة وتفصيلاً كل المسلمات التي كان يعتقدها هؤلاء في إمامهم.

[3] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٢٦ يقول ابن خلدون: "ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي".

[4] نفس المصدر والصفحة.

[5] يقول المراكشي في وصفه له "وكان أوحد أهل عصره في علم خط الرمل" (المعجب ص ٢٦٥) وخط الرمل صناعة يزعم أصحابها أنهم يستنبطون منها أخبار الغيب ومستقبل الأحداث (ابن خلدون: المقدمة ص ١٢٠).

[6] ترى الدكتورة عصمت دندش أن ابن تومرت تأثر خلال رحلته المشرقية بجماعات الشيعة وبالخصوص بالشيعة النزارية في الأسكندرية وأنه أعد أثناء هذه الرحلة ليكون داعياً لهذه الفرقة بالمغرب وأنه حول الدعوة لنفسه. وتستدل عى قولها هذا بما كانت تعيشه المدن المشرقية الكبرى التي زارها ابن تومرت من إنتشار النحل. وتأثر ابن تومرت بأقوالهم وأفعالهم (د. عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص ١١).

على الناس لمخالفتهم للشرع[1] . فكان طبيعياً أن يثير حنق الفاطميين عليه ، مما "أفضى إلى أن نفاه متولي الأسكندرية عن البلاد"[2]

إزداد ابن تومرت في الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقب خروجه من الديار المصرية ، فكان كل ما نزل مصراً من الأمصار سعى بيده ولسانه إلى تغيير مايراه مخالفاً للشرع. ومن بين المدن التي نزل بها مدينة المهدية[3] وبجاية[4] . وعلى القرب من هذه المدينة وفي قرية تدعى ملالة التقى[5] ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي[6] الذي صار من أقرب أعوانه وأخص أتباعه.

وقد تابع[7] ابن تومرت طريقه إلى المغرب الأقصى مطروداً من كل البلاد التي نزلها.

ووصلت به الرحلة إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وهي تعيش في ظل الجيل الثاني من حكامها. كانت مراكش لذلك العهد أي سنة ٥١٤هـ[8] قد بدأت تتأثر بالقيم

---

[1] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٤٦.

[2] ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٢٦ ؛ المراكشي: المعجب ص ٢٦٢.

[3] ابن خلكان: مصدر سابق نفس الصفحة.

[4] ابن الأثير: الكامل مج١٠ ص ٥٦٩ ؛ المراكشي: المعجب ص ٢٦٢.

[5] يبالغ المؤرخون الأقدمون ولاسيما الموحدون منهم – مبالغة شديدة – في وصف لقاء المهدي بن تومرت لتلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي وتصوير ما ثبت لهذا الشاب من علامات وصفات مميزة أخبره بها المهدي قبل وقوعها وعرف بعبد المؤمن قبل أن يلتقي به ، بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم والجفور (ابن القطان: نظم الجمان ص ٧٧ ؛ ابن ابي زرع: روض القرطاس ص ١٧٢ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٢٧).

[6] عبد المؤمن بن علي الكتامي: (٥٥٨هـ) صاحب المهدي بن تومرت ورفيقه وخليفته على الموحدين وأول ملوك الدولة الموحدية (٥٤١ – ٥٥٨هـ) وقد توارث ملكها أبناؤه. ترجمته في معظم المصادر والمراجع ومنها: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٦٥ – ١٦٠ ؛ ابن القطان: نظم الجمان ص ١٧٠ – ٢٦٨ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص ١٤٢ – ١٥٧ ؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٨٣ – ٢٠٥

[7] ترى د. عصمت دندش أنه كان يتحرك في تنقلاته حسب أوامر محددة سابقاً وتنسيق مع دعاة من النزارية في المنطقة يشيرون عليه بتحركاته (أضواء جديدة على المرابطين ص ٢٤).

[8] الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٥.

الأندلسية من دعة ولهو وهو ما نتجت عنه جملة من المناكر مثل إنتشار الخمر وسفور النساء وغير ذلك[1] .

كان طبيعياً أن تكون تلك الممارسات هدفاً لكل آمر بالمعروف وناه عن المنكر. لم يكن ابن تومرت يحتاج إلى أكثر من هذا ليشن حملته على الفساد ويجاهر بالنكير على المرابطين في عاصمتهم.

صعد ابن تومرت من درجة أمره بالمعروف عندما بدأ يتعرض لأفراد البيت الحاكم ، ففي أحد الأيام تعرض لموكب أخت أمير المسلمين ووبخها على سفورها وسفور جواريها وأمرهن بستر وجوههن مع أن عادة نساء المرابطين هي السفور وعدم تغطية الوجه وهي عادة ربما تصدم شعور من عاش في المشرق الإسلامي ، وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت الأميرة عن دابتها[2] .

ولم يكتف ابن تومرت بذلك بل صار يؤلب الناس ، ويقول لهم أن السنة قد ذهبت ، واصبح يندد بعهد أمير المسلمين علي بن يوسف الذي فسدت فيه الأخلاق[3] .

ومع الأيام طور ابن تومرت نقده وعدل من طرحه فبدأ يركز هجومه على المرابطين وبدأ يتحدث عن وجوب تغيير حكم البلاد[4] .

وصلت أخبار كل هذه التصرفات إلى علم أمير المسلمين علي بن يوسف فتشاور في أمره مع كبيرمستشاريه الفقيه مالك بن وهيب[5] فأشار عليه بضرورة إحضاره إلى مجلس أمير المسلمين ليسمع كلامه بمحضر من العلماء[6] .

حضر ابن تومرت إلى مجلس أمير المسلمين الذي سأله عن تصرفاته فكان جوابه : "أنا رجل فقير طالب آخرة ولست بطالب دنيا ، ولا حاجة لي بها غير أني آمر

---

[1] المراكشي: المعجب ص ٢٧٣.

[2] ابن الأثير: الكامل مج١٠ ص ٥٧٠.

[3] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٤٩.

[4] نفس المصدر والصفحة.

[5] مالك بن يحيى بن وهيب الأزدي (ت ٥٢٥هـ) من أهل اشبيلية ، فقيه ، حافظ مشهور ، كان أحد رجال الكمال بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية كان من أهل الفلسفة بل وصف بأنه فيلسوف المغرب. وكان ظاهر الزهد والورع ، إستدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف إلى حضرة مراكش وصيره جليسه وأنيسه ومستشاره المقرب (الضبي: بغية الملتمس ج٢ ص ٦١٨ ، العباس بن إبراهيم: الأعلام ج٣ ص ٢٧٦ - ٢٧٧).

[6] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٤.

بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أولى الناس بفعل ذلك ، فإنك المسؤول عنه وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة ، وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدعة ، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها ، إذ لك القدرة على ذلك ، وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه..." وقد أثر كلام ابن تومرت في نفس أمير المسلمين إلى الدرجة التي جعلت عيناه تذرفان[١] .

طلب أمير المسلمين عندئذ من العلماء أن يناظروه ، وقد تمكن ابن تومرت من التفوق على الحضور بفضل فصاحته وتفوقه وبروزه في علم الجدال[٢] هذا بالإضافة إلى أنه تمكن من جعل المناظرة تدور حول مواضيع كلامية مثل طرق العلم وأصول الحق والباطل. ومعلوم أن بضاعة أكثرية علماء المرابطين في هذا العلم مزجاة ، بل هم أعداء علم الكلام ولا يعتبروه بالتالي من العلوم النافعة. وقد تجنب ابن تومرت مناظرة العلماء في صميم علوم السلف مثل القرآن والحديث والفقه[٣] . وإلى جانب المسائل الكلامية التي أثارها ركز ابن تومرت كلامه على مهاجمة العلماء ومحاولة تعريتهم أمام أمير المسلمين "ليعلم أنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به[٤] .

لقد حاول ابن تومرت خلال هذا اللقاء أن يترك إنطباعاً لدى أمير المسلمين بأنه ليس إلا مسلم غيور على دينه وداعية إلى المعروف ، مبعداً عن نفسه كل تهمة سياسية تجعله عدواً للأمير أو خطر على دولته.

ومع ذلك فقد تبين الفقيه مالك بن وهيب مرامي كلام ابن تومرت ومآلات خطابه وما يمكن أن يترتب عليه ،وقد تحقق لديه أنه رجل طامح إلى السلطة "طامع في المملكة لنفسه"[٥] ، فقال لأمير المسلمين: "أيها الملك إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، وإن تركتها لم تأمن غائلتها. إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف

---

[١] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٥٠.

[٢] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٤.

[٣] عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص٢٥.

[٤] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٤٩.

[٥] نفس المصدر والصفحة.

والنهي عن المنكر ، إنما يريد إثارة الفتنة ، والغلبة على بعض النواحي فاقتلـه وقلدنـي دمه"[١] .

ويذكر المراكشي في روايته لهذا الإجتماع مايدل على أن مالك بن وهيب قد أدرك مكمن الخطر في شخصية ابن تومرت وهو قدرته على الإقناع وبالتالي فإنه إن دخل بـلاد الأعداء "المحتملين" مثل مصمودة[٢] "ثار علينا منه شر كثير"[٣].

لم تفلح نصائح ابن وهيب في إقناع علي بـن يوسـف بضـرورة قتـل ابـن تومـرت "وأبى ذلك عليه دينه" على حد عبارة المراكشي[٤].

ويبدو أن أمر ابن تومرت وأهدافه وأطماعه كانت واضحة لدى مالك بن وهيـب لـذا نـراه يعيد الكرة فيلح على أمير المسلمين بأن يسجن ابن تومرت وأصحابـه ، فذلـك أقـل مـا يمكـن أن يعاملوا به "سد للذريعة وخوفاً من الغائلة"[٥] . لكن علياً بن يوسف أبى النصيحة مـن جديـد[٦] . واكتفى بأن أمر ابن تومرت بالخروج من مراكش والكف عن ماهو عليه من الشغب[٧] .

ينم هذا التصرف الذي سلكه أمير المسلمين علي بن يوسف تجاه ابن تومرت عن طيبة زائدة عن الحد وتسامح مخل بالدولة ، وعدم إنتفاع بالمستشارين الأفذاذ من أمثـال مالك بن وهيب.

مكث ابن تومرت بعد هذا اللقاء ، أياماً في مراكش منزوياً مع أصحابه في ناحيـة من نواحيها[٨] ، يبث دعوته المعارضة والمعادية للمرابطين بين الناس الذين جذبهم فيـه

---

[١] ابن الأثير: الكامل مج١٠ ص ٥٧١.

[٢] كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببصيرته وحنكته السياسية يخشى على ورثته مـن المصـامدة ~~بين~~ لوفـرة هذه القبائل ووجود العاصمة مراكش في ديارهم ، وللعداء القديم بين صنهاجة ومصمودة لذلك كـان مـن بـين وصاياه لإبنه علي ألا يهيج المصامدة. (الحلل الموشية ص ٨٢ - ٨٣)

[٣] المراكشي: المعجب ص ٢٦٢.

[٤] نفس المصدر والصفحة.

[٥] ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤ ص ٧١.

[٦] ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٤٩ ، المراكشي: المعجب ص ٢٦٢.

[٧] المراكشي: نفس المصدر والصفحة.

[٨] لجأ ابن تومرت مع أتباعه إلى جهة المقابر ليتواروا عـن الأنظـار وبنـوا هنـاك خيمـة. (ابـن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٥.

قوة عارضته وقدرته على الإقناع. ويبدو أنه بدأ في هذه المرحلة يكشف لبعض خواصه عن حقيقة أهدافه[١] .

كثر أتباع ابن تومرت وبدأت شهرته ومكانته تتسع ، فرفع أمره من جديد إلى أمير المسلمين الذي أرسل إليه يعاتبه ويقول له "أيها الرجل اتق الله في نفسك ألم أنهك عن عقد الجموع وأمرتك بالخروج عن المدينة"[٢] ، وهو رد فعل ، كما نرى ، يتسم بتلك المسالمة المعهودة من علي بن يوسف والتي أدت في بعض الأحيان إلى إضاعة الحزم في مواضعه.

ورغم أن هذا العتاب لا يحمل التهديد المتوقع ، فقد خشي ابن تومرت على نفسه في حال بقائه بمراكش خصوصاً مع وجود مالك بن وهيب[٣] ، فإنتقل إلى اغمات حيث إستمر على طريقته من إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي نفس الوقت التحريض على المرابطين. وكانت نتيجة ذلك الحتمية أن طرده والي إغمات[٤] .

بعد إغمات لجأ ابن تومرت إلى جبل ايجليز[٥] من بلاد هرغة[٦] موطن أهله وعشيرته.

وفي بلاد هرغة ستبدأ مرحلة أخرى من مراحل تطور ثورة ابن تومرت.

ولكننا قبل أن ننتقل إلى تلك المرحلة لنا أن نتساءل هل كانت رحلة عودة ابن تومرت هذه رحلة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؟.

إن تتبع مختلف روايات هذه الرحلة وأحداثها تجعل الباحث يقتنع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن إلا شعاراً تستر وراءه ابن تومرت للفت النظر إليه

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٧٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٥٠.

(٤) مجهول: الحلل الموشية ص ١٠١.

(٥) ويسمى أحياناً ايجليز هرغة.

(٦) هرغة: قبيلة مصمودية بربرية وإسمها أصلاً: أرغن ينتمي إليها المهدي بن تومرت وتحتل المنطقة الممتدة جنوب مدينة مراكش (عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب ج١ ، المطبعة الملكية بالرباط ١٩٦٨ ، ص ٣٢٦).

والظهور بمظهر مصلح ديني وثائر على ما يقع في المجتمع من مخالفات شرعية ملقياً المسؤولية في ذلك كله على الدولة المرابطية وهي بالفعل مسؤولة عن ذلك الخلل الذي بدأ يظهر. ثم هو يسعى عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى خلق تيار جديد في المجتمع ينشد التغيير ويتشجع على النقد والإعتراض.

فيمكننا أن نعتبر هذه المرحلة مرحلة الدعاية الشخصية لإبن تومرت وإبراز صفاته المميزة من علم وتقشف وجراءة ، لهذا كان يتعرض لإثارة غضب رجال الدولة ليتعرضوا له بالحبس والأذى والإخراج من المدن فيزداد صيته ويكثر جمعه ، فبعض الناس في تلك العصور – وحتى في العصر الحالي – يستهويهم مثل هذا الشخص ، ويسرهم أن يجدوا إنساناً يتحدى الحكام ورجالهم سواءً أكان على حق أم على باطل.

والحقيقة أن ابن تومرت كان رجلاً ذكياً إلى أقصى الحدود يعرف إستغلال الفرص للفت الأنظار إليه وإستمالة الأنفس جريئاً لا يخاف ، مغامراً يطلب الكثير ويهون عليه الكثير في سبيل ذلك.

٣- مرحلة إعلان المبادىء:

نزل ابن تومرت ، كما ذكرنا سابقاً ، في ديار قومه بايجليز ، بالسوس الأدنى ، وكان إختيار هذا الموقع موفقاً لأكثر من سبب فهو بين قبيلته حيث الحماية التامة وهو كذلك قريب من مراكش يتسقط أخبارها وتحركات إدراتها في شأنه ، والمكان نفسه موضع حصين فهو في منطقة جبلية وعرة.

وفي ايجليز انهال على ابن تومرت الأتباع من قبيلة المصامدة. وبدأ يلقنهم مذهبه الجديد في التوحيد المبني على مزيج من أقوال الأشاعرة وآراء المعتزلة التي اطلع عليها في رحلته المشرقية وذلك في مقابل ما كان عليه أهل المغرب من التمسك بمذهب السلف الصالح في التوحيد القائم على إثبات ما أثبت الله لنفسه جل وعلا وأثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تأويل مع التنزيه عن الشبه[1] . يقول المراكشي "وكان (أي ابن تومرت) على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات

---

[1] ابن تيمية: الفتاوى مج١١ ص ٤٧٨.

الصفات فإنه وافق المعتزله في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها"[١] . ثم يضيف "وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه ، شديد أمرهم في ذلك"[٢] . ويغفل ابن خلدون الإشارة إلى موافقة ابن تومرت للمعتزلة بل يجعله أشعرياً صرفاً فيقول: "وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم وإستحسن طريقتهم في الإنتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية... وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والحديث ، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه ، إقتداء بالسلف في ترك التأويل[٣] .

وبناء على نظرته التوحيدية هذه وصم المرابطين بأنهم مجسمين يشبهون ا لله تعالى بالصفات البشرية – تعالى ا لله عن ذلك علواً كبيراً – وبالتالي فهم كفار يجب قتالهم على المسلمين جميعاً بل أن قتالهم في نظره أكبر وأوجب من قتال النصارى[٤] .

إلا أن أهم ما عني ابن تومرت بتلقينه لأتباعه ضمن المذهب الجديد الذي جاء به هو نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم. وهذه النظرية هي لب مذهب ابن تومرت كله.

فهو يرى أن الإمامة أمر يجب الإيمان به لدى الكافة وأنها ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة. وأن هذا الإمام لا يمكن إلا أن يكون معصوماً من الباطل ومعصوماً من الضلال والجور والبدع والجهل. ويلخص لنا ابن تومرت أهمية الإيمان بالإمامة بقوله: " والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان ، وهي دين السلف الصالح والأمم السالفة إلى إبراهيم عليه السلام ومن قبله. فإعتقادها دين والعمل بها دين وإلتزامها دين ومعناها الإتباع والإقتداء ، والسمع والطاعة والتسليم وإمتثال الأمر وإجتناب النهي والأخذ به في القليل والكثير"[٥] . ثم أن هذه الإمامة

---

[١] المعجب: ص ٢٧٥.

[٢] المعجب: ص ٢٧٠.

[٣] العبر: ج٦ ص ٢٢٦.

[٤] ابن القطان: نظم الجمان ٩٧ – ٩٩ ؛ ابن ابي زرع: روض القرطاس ص ١٧٥.

[٥] ابن تومرت: أعز ما يطلب ص٢٤٦.

المطلقة الواجبة الطاعة في كل زمان ومكان لابد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد شرعيتها ، وتزيد في قدسيتها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة وتلك هي صفة المهدي المنتظر.

وقد شدد ابن تومرت على وجوب طاعة المهدي واعتبر الخروج عن تلك الطاعة خروجاً عن الإسلام وكفراً به. بل أن "الهجرة إليه واجبة لا يحول بينها وبين أحد من المسلمين أهل ولا ولد ولا مال... ويكفر من لم يصل إليه ولم يطعه"[1] .

جمع ابن تومرت لأتباعه الأحاديث المتعلقة بالمهدي وجعل يشوقهم إليه ويصفه لهم ويرسخ في أذهانهم أن زمانه قد أظل ، وأن هذا الظلم والفساد والجور المنتشر لا يزول إلا بظهور المهدي الذي سيفتح مشرق الأرض ومغربها ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا[2] . وقد تمكن ابن تومرت من إيصال مذهبه الجديد إلى عقول المصامدة إما مباشرة ، أو عن طريق دعاته الذين بثهم في القبائل. وإستعمل ابن تومرت لضمان إنتشار أفكاره اللغة البربرية فألف بها كتبه وذلك إلى جانب اللغة العربية[3] .

ولما أحس ابن تومرت أن أفكاره قد تمكنت في العقول وأن جماهير غفيرة من المصموديين أشربت حبه وتعظيمه إلى حد أنه "لو أمر أحدهم بقتل أخيه أو إبنه لما تردد"[4] ، خطا الخطوة الحاسمة إلى الهدف المنشود.

ففي الخامس عشر من رمضان ٥١٥هـ قام ابن تومرت خطيباً في أصحابه قائلاً:

"الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضي بما يشاؤه ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور ، مكانه المغرب الأقصى منبته ، وزمانه آخر الزمان وإسمه إسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم. وقد

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٧٥.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان ص ٨١ ؛ مجهول: الحلل الموشية: ص ١١.

(٤) المراكشي: مصدر سابق ص ٢٧٥.

ظهر جور الأمراء وإمتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والإسم الإسم والنسب النسب[1] والفعل الفعل"[2] .

فما أن أتم ابن تومرت خطبته حتى قام عشرة[3] من أخص أتباعه فبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وقد سمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة[4] . ثم بايعه بقيه مريديه وأتباعه.

ولما كملت البيعة سمى المهدي أصحابه وأهل دعوته بالموحدين "تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم" على حد قول ابن خلدون[5] .

وضع ابن تومرت أو المهدي لأتباعه جملة من الكتب منها في التوحيد كتاب "المرشدة" كتبه باللغة البربرية ، يحتوي على معرفة الله ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقسمه لهم إلى سبعة أحزاب ، عدد أيام الأسبوع ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد ، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ، ولا تؤكل ذبيحته وأخذهم بقراءة حزب واحد منه كل يوم إثر صلاة الصبح[6] . "فصار هذا التوحيد عدد قبائل

---

[1] اختلف المؤرخون إختلافاً كبيراً في نسب ابن تومرت فيذهب عدد منهم وعلى رأسهم مؤرخو الدولة الموحدية إلى أنه ذو نسب علوي فهو كما عند ابن القطان: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وممن حقق هذه النسبة صاحب الحلل الموشية ص ١٠٣ والزركشي في تاريخ الدولتين ص ٣ وابن خلكان في وفيات الأعيان ج٥ ص ٤٥ - ٤٦ بل أن ابن خلدون لا يكتفي بنسبته إلى أهل البيت وإنما يشنع على منكري هذه النسبة ويعتبر أن هذا الإنكار "لا تعضده حجة" (المقدمة ج١ ص ٢٩٩) ويشك ابن ابي زرع في هذه النسبة فيذكرها مع التنبيه على أنها من ذكر مؤرخي الموحدين ثم يتبع ذلك بقوله "وقيل هو دعي في هذا النسب الشريف وإنما هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة: (روض القرطاس ص ١٧٢) وممن شك في نسبة العلوي ، الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١٩ ص ٥٣٩.

[2] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٢٥

[3] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٢٥ ؛ مجهول: الحلل الموشية: ص ١٠٨.

[4] ابن القطان: المصدر السابق ص ١٢٨.

[5] العبر: ج٦ ص ٢٢٦.

[6] ابن القطان: مصدر سابق ص ٨١ ؛ مجهول: الحلل الموشية ١٠٩.

المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا"[١] .

ووضع لهم بالبربرية أيضاً كتباً في العقيدة[٢] . وفي هذا المجتمع صار المهدي يقيم الشعائر بل والحدود بنفسه "فيضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخيل متشبهاً في ذلك بالصحابة"[٣] .

لبث المهدي بن تومرت يبث دعوته ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره بفصاحته ورقيق وعظه ولطيف معشره[٤] ، يعينه في ذلك أعوانه المخلصين الذين يجوبون جبال المصامدة يدعون إلى المهدي ويبشرون بعهده. وقد أثمرت تلك الجهود فجاءه الناس من كل حدب وصوب من جبال المصامدة يبايعونه بالإمامة وأنه المهدي المنتظر ويتبركون برؤيته[٥] ، فاستفحل أمره بينهم وعلا صيته عندهم.

أضحى ابن تومرت في ايجليز يمثل خطراً حقيقياً على المرابطين ، لما تنطوي عليه حركته من القوة المعنوية والمادية الضخمة. وقد تحقق أمير المسلمين علي بن يوسف من حقيقة الوضع الجديد ، وكونه ثورة تعتمل في جبال المصامدة تؤذن بالإنفجار. وتبين ، متأخراً ، صحة تحليل مستشاره الفقيه مالك بن وهيب ، وقوة حدسه السياسي في أن ابن تومرت "أن وقع في بلاد مصمودة ثار علينا منه شر كبير"[٦] .

---

[١] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٧٧.

[٢] مجهول: الحلل الموشية ص ١١٠.

[٣] المراكشي: مصدر سابق ص ٢٨٣.

[٤] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ ص ٥٣٩.

[٥] ابن خلكان: مصدر سابق ج٥ ص ٥١.

[٦] المراكشي: مصدر سابق ص٢٦٢.

بدأ أمير المسلمين يتلمس الطرق المجدية للقضاء على هذا الخطر فبادر إلى تكليف عامل السوس بالقضاء على ابن تومرت. لكن جهود هذا العامل لم تنجح بل مني المرابطون بالهزيمة[١] مما رفع من معنويات الموحدين ، وزادهم تصديقاً بوعود المهدي بأن النصر حليفهم والعاقبة لهم[٢] .

تتابعت محاولات المرابطين لإستئصال دعوة ابن تومرت. ومع تصاعد المحاولات شعر ابن تومرت أن قرب ايجليز من مراكش جعل منها هدفاً دائماً وبالتالي فإن عليه البحث عن مكان آخر أكثر أمناً وأبعد منالاً. ووقع إختياره على تينملل[٣] فرحل إليها سنة ٥١٨هـ.

٤- <u>مرحلة تينملل</u>:

لقد كان إختيار تينملل إختياراً موفقاً فهي في عمق جبال مصمودة ذات مسالك وعرة "لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو من غربها ، أما غربها وهو الطريق إليها من مراكش ، فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفرس وحده وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه وكذلك شرقها لأن الطريق مصنوعة من نفس الجبل ، تحت سالكها حافات وفوقه حافات. وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد"[٤] . فهي حصن طبيعي يصعب إقتحامه من طرف الأعداء.

ويبدو من مختلف روايات إنتقال المهدي إلى تينملل أن هذا الإنتقال كان بمبادرة منه وليس إستدعاءاً من أهلها كما يذكر ابن القطان[٥] . وأكبر دليل على هذا هو حال

---

[١] ابن القطان: م.س.ص. ١٣٠.

[٢] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٣١.

[٣] تينملل أو تينمال: موضع غائر في قلب جبال الأطلس قريب من منابع وادي نفيس (الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦٤ ؛ تيراس وباسي: المشاهد والقلاع الموحدية منشور بالفرنسية في H.Terrasse: Sanctuaire & Forteresse Almohade Annee 1924 T.iv Hesperis

[٤] الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦٤ ؛ الحلل الموشية ص ١١٣.

[٥] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٣٩.

الريبة والتوجس التي كانت بين المهدي وأهل تينملل منذ نزوله بديارهم ، والتي أفضت إلى أن يغدر المهدي بأهل تينملل ويبيد منهم خلقاً كثيراً في يوم واحد[1] وقسم أموالهم وأراضيهم على أصحابه وسبى حريمهم وقد وقع هذا في نفس السنة التي نزل فيها تينملل أي سنة ٥١٨هـ. وبعد هذه المذبحة أعتبر المهدي أنه أصبح في مدينته فأدار عليها سوراً وبنى على رأس الجبل حصناً سكنه هو وبعض خاصته[2] .

أثارت مذبحة أهل تينملل نفوس الموحدين بل وبعض خاصة المهدي مثل الفقيه الإفريقي[3] الذي قال للمهدي" "كيف تقتل أقواماً بايعوك ودخلوا في طاعتك وتقسم أموالهم؟" فأمر المهدي بقتله وصلبه "لأنه شك في عصمته"[4] .

لما أحكم المهدي قبضته على تينملل بدأ بتنظيم أتباعه فقسمهم إلى طبقات حسب ولائهم وإخلاصهم للمهدي ودعوته وجعل لكل طبقة وظيفة خاصة بها ورتبة لا تتعداها سواء في السفر أو الحضر[5] . وأهم هذه الطبقات هي طبقة العشرة وهي مجموعة الخلصاء أو خاصة الخاصة وأهمهم: تلميذه وألصق الناس به عبد المؤمن بن علي وأبو محمد عبد ا لله الونشريسي[6] وأبو حفص عمر بن يحى الهنتاتي[7]

---

[1] يقول ابن القطان أن عدد القتلى كان ١٥ ألف (نظم الجمان ص ١٣٩).

[2] تذكر د. عصمت دندش للإستدلال على أن ابن تومرت كان أحد رجال النزارية الباطنية ، مسألة إختياره لتينملل فهي ترى أن الأمر لم يكن عفوياً بل تم لحصانتها ولأن موقعها يشبه تمام الشبه المنطقة التي بها قلعة ألموت بقزوين وحتى الطريق المؤدي إليها ، بل وحتى الطريقة التي اتبعها ابن تومرت في الإستيلاء عليها وبناء الحصن فوق قمتها هو نفس الأسلوب الذي اتبعه الحسن بن الصباح في الإستيلاء على قلعة ألموت من صاحبها (أضواء جديدة على المرابطين ص ٢٦ - ٢٧).

[3] كان هذا الفقيه الذي لم تذكر المصادر إسمه أحد العشرة أي أنه كان من خاصة الخاصة (ابن القطان: نظم الجمان ص ١٤٢).

[4] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٤٢

[5] مجهول: الحلل الموشية ص ١٠٩.

[6] أبو محمد عبد ا لله بن محسن الونشريشي المشهور بالبشير من أوائل أتباع المهدي فقد إلتحق به عند مروره بونشريس في طريق عودته إلى المغرب الأقصى وقد لعب أدوار حاسمة في تاريخ الموحدين في فترة المهدي (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٦ ؛ الحلل الموشية ص ١٠٦ - ١٠٧).

[7] أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني وإسمه الأصلي فصكة فعربه بعمر. وكان من أقرب أعوان ابن تومرت ، ثم كان ممن عقدوا الأمر من بعده لعبد المؤمن وقد توفي سنة ٥٧١هـ وهو جد الحفصيين الذين توطدت دولتهم بعد ذلك في افريقية.

كان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلية.

ويبدو أن السحر البلاغي للمهدي وقسوته البالغة في الإستيلاء على تينملل لم تستطع أن تضم كل أهالي جبال المصامدة إلى جانب المهدي. فلإن كان قد "إستمال الأحداث وذوي الغرة" فإن ذوو العقل والعلم والحلم" لم يتحمسوا لهذه الدعوة الجديدة بل أنهم صاروا ينهون الداخلين فيها ويحذرونهم من إتباع المهدي[١] . ورأى المهدي أن إستمرار الحال مع وجود هؤلاء "المنافقين" من المستحيل. وكان الحل الوحيد هو أن يتخلص منهم. لكن كيف؟

هنا تفتق ذهنه عن حيلة ، ما نظن أنها خطرت ببال رجل غيره في تاريخ الإسلام ، فقد أراد الفتك بمن يشك فيهم عن طريق ما سماه با"التمييز" أي تمييز المؤمنين الصادقين في إيمانهم عن غيرهم.

وكان المهدي قد إختار الونشريسي وجعله ضمن طبقة العشرة فكان أقرب الأقربين إليه ، وكان الونشريسي قبل إنضمامه إلى جماعة ابن تومرت قد حفظ القرآن الكريم وقرأ بعضاً من العلم. ولكنه منذ أن إنضم إلى المهدي إبتعد عن ذلك المسلك وأظهر الجهل التام[٢] . فلما خطرت فكرة التمييز على بال المهدي جعله وسيلته في مراده. فأمره بأن يظهر علمه على الملاً وأن يدعي أن ذلك وهب له دفعة واحدة على سبيل المعجزة. فلما فعل ذلك بهت الموحدون وآمنوا أن هذه كرامة من كرامات ابن تومرت ، فقال لهم المهدي "قد جعله الله مبشراً لكم مطلعاً على أسراركم وهو آية من آيات الله تعالى في هذا الأمر" وأنه سيقوم بتمييز المؤمن من غير المؤمن وتلا عليهم قول الله تعالى "لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ"[٣] ثم عرض الناس عليه فجعل يخرج من يعتقد فيه

---

[١] ابن خلكان: مصدر سابق ج٥ ص ٥١.

[٢] يذكر ابن خلكان: أن المهدي أمر الونشريسي من قبل بكتم علمه ليظهره عند الحاجة على سبيل الكرامة (وفيات الأعيان ج٥ ص ٥٢).

[٣] سورة الأنفال: الآية ٣٧.

الإخلاص للمهدي على يمينه ويقول هؤلاء أهل الجنة وأخرج أقواماً ممن يشك في ولائهم للمهدي عن يساره وقال إنهم أصحاب النار. وهنا طلب المهدي من أهل اليمين من كل قبيلة أن يقتلوا أهل اليسار وهو مافعلوه فأباد ألوفاً في أيام قليلة وذلك في سنة ٥١٩هـ[١].

أخذ ابن تومرت بعد هذه العمليات التطهيرية في توجيه أتباعه للإغارة على القبائل المجاورة التي لم تدخل في طاعته وسلب أموالهم. وهو ما سلي الموحدين ورفع معنوياتهم لما جنوه من غنائم وعتاد.

ويبدو أن المرابطين في الفترة من ٥١٨ - ٥٢٢هـ اكتفوا بإقامة حصون حول مراكش وأغمات[٢] لتلافي أي هجوم مباغت. وهو إجراء يشير إلى بداية الإنهزام النفسي وإنحطاط الروح المعنوية لدى المرابطين وأنهم أصبحوا في دور الدفاع بدلاً من الهجوم.

ويبدو أن وعورة جبال المصامدة وخطورة مسالكها جعلت المرابطين يتهيبون من إرسال جيوش لمحاربة المهدي. هذا بالإضافة إلى الكل الدائم والثغر المستنزف لكل الطاقات والمتمثل في الأندلس. إذ ابتلى المرابطون فيها بعدو نصراني لا يهدأ ولا يستسلم يريد إجتياح كل الأندلس ، ثم فوق ذلك شعب أندلسي مشاكس ملول يثور على القضاة والحكام لأدنى سبب[٣] بل وأكثر من ذلك يتحالف مع النصارى ضد المرابطين[٤].

لكننا نعتقد أن السبب الرئيسي لهذا الضعف المبكر يكمن في شخص أمير المسلمين على بن يوسف إذ هو كما يصف المراكشي "إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين"[٥] فهو رغم التقوى وحب العلم وأهله والزهد والعدل لم يكن يتصف بالصرامة والحزم الضروريين لإستقامة وإستمرار كل دولة.

---

[١] ذكر حادثة التمييز هذه ابن القطان: نظم الجمان ص ١٤٦ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٢٨ ؛ ابن الأثير: الكامل ج١٠ ص ٥٧٤ وقد ذكر أن القتلى كانوا ٧٠ ألف شخص وهو لاشك عدد مبالغ فيه لكنه يدل على أن الضحايا كانوا بالآلاف.

[٢] مجهول: الحلل الموشية ص ٩٨.

[٣] من هذه الثورات ثورة أهل قرطبة على واليهم سنة ٥١٥هـ وثورة أهل اشبيلية على القاضي ابي بكر بن العربي سنة ٥٢٤هـ وقد ذكرناهما في الفصل السابق.

[٤] كما حدث عندما إختار سيف الدولة بن هود تسليم قلاعة للقشتاليين ورضي بأن يكون أحد أتباعهم يغزو في جيشهم ديار المسلمين (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٥).

[٥] المعجب: ص ٢٥٢

وفي مقابل هذا العجز الظاهر عن إتخاذ القرارات الصعبة كان المهدي بن تومرت يضطرم طموحاً يركب كل صعب وذلول لتحقيق أهدافه بإسقاط دولة المرابطين.

وبالفعل بدأ المهدي يحس أن تنظيمه أصبح من القوة والكثرة بحيث أصبح قادراً على إتخاذ موقف الهجوم إزاء المرابطين.

وبدأ المهدي في أواخر سنة ٥٢٣هـ في تكوين جيش كبير فندب أتباعه من كل قبائل مصمودة إلى الحضور إليه ، فوفدت إليه القبائل بكثرة. وتمكن في صفر ٥٢٤هـ من حشد أربعين ألف مقاتل[١] ووجههم إلى مراكش قائلاً: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم فإن أجابوكم فهم إخوانكم لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يجيبوكم فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم"[٢] . ثم أمر على هذا الجيش أبا محمد الونشريسي[٣] .

خرج جيش الموحدين إلى مراكش وفي طريقه إليها إشتبك مع بعض قوات المرابطين وتمكن من هزيمتها[٤] ، وواصل زحفه إلى أن وصل إلى مشارف مراكش ، التي كان أهلها قد انهزموا نفسياً قبل أن يهزموا عسكرياً. فبعد إشتباكات خفيفة ولوا الأدبار وأكتفوا بإغلاق أبواب مدينتهم عليهم في حين حاصرها الموحدون. ودام الحصار حوالي أربعين يوماً وصلت خلالها الإمدادات المرابطية التي أرسل أمير المسلمين في طلبها ، خصوصاً قوات سجلماسة بقيادة وانودين بن سير[٥]. وفي الرابع والعشرين من جمادي الأولى سنة ٥٢٤هـ دارت معركة حاسمة قاتل فيها الطرفان بشجاعة فائقة أسفرت عن هزيمة مروعة للموحدين إذ قتلت منهم جموع غفيرة يقدرها صاحب الحلل الموشية

---

[١] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٥٦.

[٢] المراكشي: مصدر سابق ص ٢٨٢.

[٣] مجهول: الحلل الموشية ص ١١٤.

[٤] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٥٦ – ١٥٧.

[٥] وانودين بن سير: والي سجلماسة وأحد قادة المرابطين ، كان قبل ولاية سجلماسة والياً على جزيرة ميورقة بعد إستنقاذها من أيدي القراصنة البيزيين والجنوبيين سنة ٥٠٩.(محمود مكي: وثائق تاريخية عن عصر المرابطين ص ١٦١).

بأربعين ألف ويقول أنه لم يسلم مـن الموحديـن إلا أربعمائـة فـارس وراجـل. وسقط في الميدان عدد من أصحاب المهدي المقربين ، من أهل العشرة ، على رأسهم قـائد الجيـش الموحدي أبو محمد الونشريسي الملقب بالبشير وهو أحد أركان الدعوة الموحديـة ، ومعـه أربعة آخرون من أصحاب المهدي العشرة.

وقد تمكن عبد المؤمن بن علي من الفرار في نفر من أصحابه ، وقد أصيب بجـرح عميق في فخذه الأيمن ، ولم ينقذه من الموت سوى الظلام وهطول الأمطار[١] .

ووصـل عبـد المؤمـن ومـن بقـي معـه إلى تينملـل بعـد مطـاردة شـاقة مـن طـرف المرابطين. وكان خبر الهزيمة قد سبقهم إلى المهدي الذي كان مريضاً.

وتسمى هذه الواقعة موقعة البحيرة نسبة إلى الموضع الذي وقعت فيه[٢] .

كان المهدي بن تومرت ، كما أسلفنا ، مريضاً ويبـدو أن هـذه الهزيمـة هـاضت جناحه وزادت مرضه ، ومع ذلك فقد أظهر التجلـد لهـذا الحـدث وطمـأن أصحابـه أن عاقبة الأمر لهم.

ولكن المهدي كان يحس أن هذه الهزيمة إنتكاسـة لمخططـه ونسـف لبنائـه بـل وأكثر من ذلك تزرع الشك في صدق دعواه بأنه المهدي المعصوم المؤيد من الله. فكـان مـن الضروري بالنسبة له أن يجد وسيلة يعيد بها ثقة أتباعه فيه وفي دعوته ومهديته.

وكما هي عادته لم يتردد المهدي ، عند عجز منطق دعوته ، في اللجوء إلى حيل الشعوذة والتدجيل على حد تعبير أحد الباحثين[٣] .

إتفق المهدي مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحيـاء ويـترك لكـل واحـد منهم متنفساً وقال لهم: "إذا سئلتم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفـــات

---

[١] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٦٠ ؛ ابن عذارى: مصدر سـابق ج٤ ص ٨٣ ؛ مجهـول: الحلـل الموشـيةص ١١٦.

[٢] ابن القطان: المصدر السابق نفس الصفحة.

[٣] عباس الجراري: الموحدون: ثورة سياسية ومذهبية ، المناهل ، العدد الأول ، السنة الأولى ١٩٧٤ ص ٩١.

الثواب على جهاد لمتونة ، وعلـو الدرجـات الـتي نلنـا بالشـهادة ، فجـدوا في جهـاد عدوكم ، فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق"[١] .

ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أخرجهم وأنالهم حظـوة ورفعـة. وفي إحـدى الليـالي دفن هؤلاء النفر في ساحة إحدى المعارك السابقة مع المرابطين ثم دعى شـيوخ الموحديـن إلى تلك الساحة فوعظهم وحثهم على جهاد المرابطين وبشرهم بالنصر وتأكيداً لقوله طلب منهم أن يسألوا شهداءهم عن مـا لقـوا مـن الله عـز وجـل ، فلمـا فعلـوا ذلـك أجـابهم المدفونون بما لقنهم المهدي. فلما سمع الموحدون ذلك أفتتنوا به[٢] .

ولما كان الهدف يـبرر الوسـيلة في نظـر المهـدي فإنـه قـام فـور إنصـراف شـيوخ الموحدين بإغلاق المنافذ الـتي كـان يتنفـس مـن خلالهـا أصحابـه المدفونـون فمـاتوا مـن ساعتهم وذلك حتى لا يزل لسان أحدهم فيفشي سر تلك الكرامة المعجزة[٣] .

لم يمهـل المـرض المهـدي كثـيراً فتـوفي في رمضـان مـن نفس السـنة أي سـنة ٥٢٤هـ[٤] .

ولأن مات المهدي بن تومرت دون أن يحقق حلمه بإسقاط الدولة المرابطية ، بـل مهزوماً فإنه إستطاع وبشكل رائـع أن يكـون أتباعـاً يؤمنـون بـه إيمانـاً مطلقـاً ويؤمنـون بدعوته ، ملأ عقولهم أملاً بمستقبل هذه الدعوة وقد إستغل ببراعـة العـداء أو "التضـاد" الطبيعي القائم بين المصـامدة وصنهاجـة. فـأعطى قومـه المصـامدة إطـاراً منظمـاً ومذهبـاً يحققون من خلالهما أملهم في إزالـة الدولـة المرابطيـة وأهلهـا "الكـافرون" ، "المـارقون" بدولة المصامدة المؤمنة الموحدة. وقد تمكن هـؤلاء الأتبـاع الذيـن خلـف أن يحققـوا ذلـك الأمل المنشود والإستخلاف الموعود فأسقطوا دولة المرابطين سنة ٥٤١هـ[٥] وأقـاموا دولـة كبرى هي دولة الموحدين.

---

[١] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٨٢.

[٢] ابن أبي زرع: مصدر سابق ص ١٨٢ ؛ ابن خلدون: مصدر سابق ج٦ ص ٣٨٨.

[٣] ابن أبي زرع: المصدر السابق نفس الصفحة ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ ص ٥٥١.

[٤] ابن القطان: مصدر سابق ص ١٦٧ ؛ المراكشي: مصدر سابق ص ٢٨٤.

[٥] ابن عذارى: مصدر سابق ج٤ ص ١٠٨ ؛ الحلل الموشية: ص ١٣٧.

لقد كان ابن تومرت شخصية فذة يتمتع بصفات فريدة قلما اجتمعت في شخص واحد فهو ذكي شديد الذكاء ، قوي الشخصية ، طموح ، ذو عقل مرتب ، ذو ثقافة عالية أختلط فيها تأثير أهل السنة بتأثير الشيعة[١] . يقول عنه الحافظ الذهبي: "حصل فنوناً من العلم والأصول والكلام ، وكان رجلاً ورعاً ساكناً ناسكاً في الجملة ، زاهداً متقشفاً شجاعاً جلداً عاقلاً عميق الفكر بعيد الغور فصيحاً مهيباً"[٢] . بل أن حلاه بـ"الشيخ الإمام الفقيه الأصولي الزاهد"[٣].

ومع ذلك فقد دفعه حب الرئاسة والظهور إلى الكذب والخداع وإدعاء العصمة والمهدية وكان سفاكاً للدماء غير متورع فيها ولا متوقف عنها يهون عليه سفك دم عالم من الناس في هوى نفسه وبلوغ غرضه[٤].

ويمكن توجيه هذا التناقض البين بأن ابن تومرت رجل سياسي قبل كل شيء حدد لنفسه أهدافاً طموحة جداً تتمثل في الإستيلاء على السلطة في المغرب. وقد طغى هذا الهدف على كيانه ، فسخر له علمه وعمله وجعله ينسى كل المباديء والتعاليم الإسلامية التي لا تخدم غرضه ولا تقرب طلبته. ولعل أجل ما نسي من ذلك خشية الله والصدق في القول والعمل.

يقول الإمام ابن تيمية عنه: "وقد إستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحديث: كالصحيحين والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة ولا يعرف عن أحد

---

[١] يقول عنه المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي: "وكان - أي ابن تومرت - يبطن شيئاً من التشيع" (المعجب ص ٢٧٥).

[٢] الذهبي: العبر في خبر من غبر ج٢ تحقيق أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول ط. دار الكتب العلمية ص ٤٢١.

[٣] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ تحقيق شعيب الأرناؤوط ؛ مؤسسة الرسالة ١٩٩٠ ط٧ ص ٥٣٩.

[٤] ابن ابي زرع: مصدر سابق ص ١٨١.

من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم. واستحل أيضاً أموالهم وغير ذلك من المحرمات[١] .

ويقول أيضاً عن كتاب "المرشدة" في التوحيد الذي ألفه ابن تومرت لأتباعه.

"..... لم يذكر في "مرشدته" الإعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من إتباع الأئمة الأربعة .... بل إقتصر فيها عل ما يوافق أصله وهو القول بأن ا لله وجود مطلق وهو قول المتفلسفة والجهمية ، والشيعة ، ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على ابطال قوله ، وتضليله"[٢] .

لقد كانت ثورة ابن تومرت سابقة تحتذي لكل شاق لعصى الطاعة للمرابطين. فقد احتذى حذوه وانتحل نحلته أحد الأندلسيين يدعى أحمد بن قسي[٣] دعى لنفسه بإعتباره المهدي والإمام ، كما فعل ابن تومرت ، وقد تستر ابن قسي بثوب التصوف لكي يجذب الناس إليه. وقد قاد ابن قسي ثورة أشعلت نار الفتنة في معظم مدن غرب الأندلس في سنة ٥٣٩هـ وعرفت هذه الثورة بثورة المريدين[٤] .

---

[١] ابن تيمية: الفتاوى مج ١١ ص ٤٧٨.

[٢] نفس المصدر ص ٤٨٦ - ٤٨٧.

[٣] أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي (ت٥٤٦هـ): مولد يرجع إلى أصل نصراني. وقد نشأ في أحواز شلب واشتغل في بداية حياته مشرفاً مالياً ثم انخرط في سلك الصوفية فباع جميع ممتلكاته وتصدق بأثمانها ، وتجول في الأندلس فلقي بالمرية قطب الصوفية يومئذ أبا العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف فدرس عليه ثم عاد إلى وطنه وابتنى رابطة بقرية جلة من قرى شلب وانكب على قراءة كتب الغزالي فالتف حوله كثير من الصحب والأنصار ، فتسمى المهدى وادعى الولاية وألف مجموعة من الكتب في طريق الصوفية منها كتاب "خلع النعلين" وكان ابن قسي في حقيقة أمره يتخذ من الصوفية قناعاً لمشاريع وطموحات سياسية فلما كثر أتباعه وأحس بضعف المرابطين دعى إلى الثورة بإعتباره الإمام المنتظر (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١٩٧ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٤٨ - ٢٥٢ ؛ محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثالث ص ٣٠٧ - ٣١١).

[٤] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٤٨ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١٩٧ .

لن نتوقف عند هذه الثورة لأن صاحبها لم يكن من أهل العلم ، وإنما كان من طالبي الجاه بإنتحال الزهد والتصوف وإختلاق الكرامات[١] . وقد جاءت هذه الثورة لتزيد من حرج موقف المرابطين في الأندلس ، في الوقت الذي كانت فيه دولتهم في المغرب قد آذنت بالزوال تحت ضربات الموحدين.

في هذا الجو بدأت الأطماع والطموحات تختمر في أذهان عدد من أهل الأندلس لإهتبال الفرصة والثورة على المرابطين والإستقلال عن نفوذهم المنحسر.

وبالفعل استسلم عدد من رجالات الأندلس لإغراءات الرئاسة وبريق الزعامة. وكان في مقدمة هؤلاء مجموعة من العلماء القضاة.

- <u>ثورات القضاة في الأندلس</u>:

تكاتب قضاة الأندلس ، سنة ٥٣٩هـ في شأن الوضع الحالي لبلادهم. ويبدو أن بعضاً منهم تواصوا بإنتهاز الفرصة وتقلد الحكم في مدنهم.

كان أول الخارجين على الحكم المرابطي هو القاضي أبو جعفر حمدين بن حمدين وكانت أسباب خروجه ذاتية أكثر منها موضوعية فقد كان طموحاً إلى السلطة والنفوذ ، فبايعه أهل قرطبة في الخامس من رمضان ٥٣٩هـ بعدما طردوا عامل المرابطين الرئيس أبا عمر المسوفي[٢] وتلقب ابن حمدين بأمير المسلمين وناصر الدين[٣] المنصور با لله وسكن فصر الإمارة.

ولن نستفيض في ذكر أخبار ابن حمدين وتطورات أمره لأننا سنذكر بتفصيل في الفصل التالي. ونكتفي بالقول بأن ثورته دامت أحد عشر شهراً إنتهت بإستعادة المرابطين لقرطبة[٤] بقيادة الأمير أبو زكريا يحي بن غانية[٥] .

---

[١] ابن الخطيب: المصدر السابق ص ٢٤٩.

[٢] ابن الخطيب: المصدر السابق ص ٢٥٣.

[٣] ابن الخطيب: نفس المصدر والصفحة ؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٣.

[٤] الضبي: بغية الملتمس ص ٣٤ - ٣٥ ؛ ابن الخطيب: المصدر السابق ص ٢٥٤.

[٥] أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحراوي (ت٥٤٣هـ)غانية إسم أمه ، أحد كبار قواد المرابطين في الأندلس ، كان له دور كبير في الجهاد ومن أشهر مواقعه يوم أفراغة سنة ٥٢٨هـ والتي هزم فيها ابن رذمير (ألفونس المحارب) كما كان له بلاء كبير في مدافعة النصارى عن مدينة الأشبونة في غرب الأندلس ولاه تاشفين بن علي على قرطبة سنة ٥٣٨هـ (ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٣٤٤ - ٣٤٧).

كان من أصداء ثورة ابن حمدين في قرطبة أن قامت في نفس الوقت في غرناطة ثورة مماثلة تزعمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى (٤٩٢ - ٥٤٠هـ) الذي كان يتولى قضاءها :وكان أبي النفس عالي الهمة"[١] . وقد ساند أهل غرناطة ابن أضحى في ثورته فأخرج المرابطين من المدينة ، وقد تحصن المرابطون بالقصبة ونشب القتال بين الفريقين ، وكان أمير غرناطة المرابطي يومئذ هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنو[٢] . واتصل القتال مدة فشعر ابن أضحى بأنه لا يمكن أن ينتصر على المرابطين بما عنده من القوات فأعلن بيعته لإبن حمدين صاحب قرطبة وإتباعه له. واستصرخ به وبابن جزي قاضي جيان[٣] . وجه إليه ابن حمدين بعض قواته بقيادة ابن أخيه علي بن أحمد المعروف بابن أم العماد. ويبدو أن تبعية ابن أضحى لإبن حمدين واستنجاده به لم تكن عن إجماع من أهل غرناطة بل كان يمثل بالخصوص رأي الفقهاء في المدينة وجماعة من أهلها. أما الفريق الثاني فكان يرى أنه من الأفضل إعلان التبعية لسيف الدولة بن هود[٤] لقدم بيته وتغلبه في تلك الفترة على جيان وبعض القواعد الأخرى.

وبالفعل استدعى هذا الفريق ابن هود ليأتي لرئاسة مدينتهم. وقد لبى ابن هود على الفور وأسرع في دخول غرناطة في عسكر من أوباش النصارى وسقاط الجند[٥] .

---

[١] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٤.

[٢] علي بن أبي بكر بن إبراهيم المسوفي: ابن أحد كبار أمراء المرابطين وهو أبو بكر بن إبراهيم المسوفي المعروف بابن تيفلويت (ت ٥١٠) أما أمه فهي أخت أمير المسلمين علي بن يوسف وهي التي ينتسب إليها فقد كانت تدعى فنو (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٢).

[٣] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٢.

[٤] سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود ويلقب بالمستعين با لله من سلالةبني هود ملوك الثغر الأعلى. وكان صاحب قلعة روطة من عمل تطيلة بالثغر الأعلى وحينما ضيق عليه المرابطون أثناء إحتلالهم للأندلس ، تنازل عن قلاعه لصالح ألفونس ملك قشتالة نظير أن يقطعه إقطاعاً بجوار طليطلة. وأصبح ابن هود تابعاً لألفونس يخرج معه في غزواته ضد المسلمين. وأشترك ابن هود في الفتن التي أثيرت في آخر عهد المرابطين وقتل فيها سنة ٥٤٠هـ (ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٤٣٨ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٥).

[٥] ابن عبد الملك: الذيل والتكملة السفر الخامس قسم ١ ص ٢٢٣.

ولما رأى ابن أم العماد هذا التطور رجع بقواتـه إلى قرطبـة. ووجـد القـاضي ابـن أضحى أنه لم يعد أمامه إلا التعامل مع ابن هـود ، فتعـاون معـه علـى قتـال المرابطـين الذين شددوا من هجماتهم على القـوات المتحالفـة. وفي تلـك الأثنـاء توفـى القـاضي أبـو الحسن ابن أضحى[١] .

توفى القاضي ابن أضحى ولم يدرك مما أمل شيئاً ، وخلـف غرناطـة وأهلهـا في صعاب متكاتفة ومآزق مشتدة ، وانتهى أمر الفتنة التي أثارها بـأن رجعـت غرناطـة إلى حكم المرابطين من جديد[٢] .

أصابت عدوى الثورة مالقة فانقلب قاضيها على المرابطين. فقد أعلن القاضي أبـو الحكم بن حسون[٣] الثورة في ١٣ رمضان ٥٣٩هـ ودعـا لنفسـه وإستبد بـالأمر وحـاصر المرابطين بالقصبة وشدد عليهم الحصار لمدة ستة أشهر حتـى أضطرهـم للخـروج وتسـليم القصبة له ، فدخلها واتخذ منها مقراً لإقامته ، وتلقب بالأمـير وجمـع في يـده منصـب الإمارة والقضاء. وقلد أخاه أبا الحسن قيادة الجيـش وعهـد إليـه بولايـة قرطمـة[٤] ومـا إليها[٥] .

تمكن القاضي ابن حسون من تحقيق ماعجز عنه أقرانه من القضاة الثائرين وهـو البقاء في الحكم لسنوات عدة رغم الظروف المضطربة التي كانت تعيشها المنطقة. فقد ظل حاكماً لمالقة إلى سنة ٥٤٧هـ[٦] .

---

[١] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٢.

[٢] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٥.

[٣] الحسين بن الحسين بن عبد الله بن حسون قال عنه ابن الخطيب: "نشأ على مهيع سلفه من الوجاهة والنباهة وعلو المكانة وشرف الذات وبعد الصيت وطلب العلم" (أعمال الأعلام ص ٢٥٥) وقد وصـف ابـن بشكوال جده القاضي حسون (ت٤٥٣هـ) بأنه "فقيه مالقة وكبيرها" (الصلة ج١ ص ١٤١).

[٤] قرطمة: من أعمال رية وهي مدينة حصينة تقع غربي مالقة (ياقوت: معجم البلدان ص٣٢٤).

[٥] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٥.

[٦] نفس المصدر والصفحة.

يجد الباحث شحاً كبيراً في المعلومات حول فترة حكم ابن حسون وأعماله في الفترة التي حكمها. ومع ذلك فيبدو أنه خلف آثاراً وأعمالاً كبيرة إذ يذكر ابن الخطيب أن "له بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره"[١] .

لم يترك المرابطون ابن حسون يهنأ بإمارته فبدأوا يهاجمونه من حصن انتقيرة[٢] والحصون المجاورة وضايقوه حتى اضطر إلى الإستعانة بالمرتزقة النصارى وأن يستدعي جيوش قشتالة. واضطر القاضي ابن حسون من أجل دفع أجور المرتزقة أن يرهق كاهل أهل مالقة بالضرائب والمغارم المختلفة. وأدى ذلك إلى أن كرهته الرعية ، فتآمرت عليه. وتمكن المتآمرون بممالأة من رئيس حرس ابن حسون أن يستولوا على القصبة ويقبضوا على أخيه أبي الحسن ويقتلوه. وامتنع ابن حسون داخل القصر ودافع عن نفسه بأشد ما يمكن فلما أيقن بالهلاك دخل داره وأحرق مكتبته ثم حاول قتل نسائه وبناته ، صوناً لهن ، إلا أنهن اعتصمن منه بالغرف والبيوتات الداخلية ثم أقدم على الإنتحار بأن طعن نفسه برمح نفذ إلى ظهره وذلك في الحادي عشر من ربيع الأول عام ٥٤٧هـ. وقد صلب الثائرون جثته واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى مراكش[٣] .

كانت هذه نهاية مخزية لرجل حرم ثمرة العلم التي هي التقوى فأخلد إلى الأرض وتشبث بها إلى آخر رمق وبكل وسيلة. فلما أيأسته الحيلة وأعجزه التدبير قرر الإنسحاب من هذه الدنيا ، التي لا تطاوعه في هواه ، غير عابيء بعاقبة ذلك في الدنيا والآخرة.

هزت هذه الثورات العقول وأطارت الحلوم فخاض البعض غمار هذه الفتن مرغماً عليها ، في البداية على الأقل ، مظهراً حسن النية. ومن هؤلاء المدفوعين إلى الفتنة الصالين جحيمها بغير رغبة كبيرة قاضي بلنسية أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز[٤] .

---

[١] نفس المصدر والصفحة.

[٢] أنتقيرة: حصن بين مالقة وغرناطة شمال غربي مالقة (ياقوت: معجم البلدان ص ٨٠).

[٣] ابن الخطيب: مصدر سابق نفس الصفحة.

[٤] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٨ ؛ المعجم: ص ١٩٦ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٦.

إذ ما كادت أنباء ثورات القضاة تصل أهل بلنسية حتى اضطرب أهلها ، فبادر القاضي ابن عبد العزيز بالإجتماع بوالي المرابطين ببلنسية عبد الله بن غانية واتفقا على الإئتلاف ونبذ الخلاف في هذه الفترة العصيبة. وتأكيداً لذلك جمعا الناس في المسجد الجامع وخطب كل منهما مذكراً بجهاد المرابطين واستنقاذهم بلنسية[1] . وزاد القاضي ابن عبد العزيز في حض الناس على الوفاء للمرابطين والتمسك بدعوتهم[2] .

ويبدو أن نفوس المرابطين كانت مليئة بالتوجس والريبة من كل تصرفات الأندلسيين ، فلم تفلح هذه التطمينات في إزالة الخوف والحذر. لذلك فر الوالي عبد الله بن غانية إثر خلاف بينه وبين بعض الجند[3] . وقد فر معه عدد كبير من المرابطين. واستقروا بشاطبة. وبدأ عبد الله بن غانية يغير على نواحي بلنسية ويجتاحها. وفي بلنسية رغب الجند ووجوه أهل البلد إلى ابن عبد العزيز في التأمر عليهم فرفض طلبهم. فأتفقوا على تقديم أحد المرابطين الباقين في بلنسية.

وأحس الوالي الجديد أن الأمور لا يمكن أن تصفوا له مع وجود شخصية ذات نفوذ كبير مثل القاضي ابن عبد العزيز ، لذلك حاول إعتقاله إلا أنه لم يفلح. فلما لم ينجح في محاولته تلك زاد خوفه من أهل بلنسية ففر إلى شاطبة ومعه بقية المرابطين[4] .

بعد فرار المرابطين وقع الإجماع في بلنسية على القاضي ابن عبد العزيز فبايعه أهلها في ٣ شوال ٥٣٩هـ. وكانت أولى مهماته هي رد هجمات المرابطين الذين تجمعوا في شاطبة وصاروا يهاجمون منها بلنسية وأحوازها ، فاستنفر لذلك كل قواته واستنجد بصديقه أمير مرسية القاضي أبو جعفر بن أبي جعفر. فتعاون القاضيان على محاصرة

---

[1] استنقذ المرابطون بلنسية من يد القشتاليين سنة ٤٩٥هـ بعد أن احتلها القائد المغامر المعروف "السيد" سنة ٤٨٧هـ وظلت إلى ذلك التاريخ تحت حكم القشتاليين (ابن بسام: الذخيرة القسم الثالث ، مجلد ١ ص ٩٢ - ١٠٢ ؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثاني ٢٣٢ - ٢٤٨).

[2] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٨.

[3] نفس المصدر والصفحة.

[4] نفس المصدر : ص ٢١٩.

شاطبة وكلاهما يضمر في نفسه الفوز بها ، ويرى أنه أحق بها[١] . وهو ما يعكس أخلاق الطمع وإنتهاز الفرص التي أصبحت توجه أعمال هؤلاء القضاة المتأمرين.

أدرك عبد الله بن غانية عدم جدوى مقاومة المحاصرين ، فخرج منها[٢] . وبخروجه تملك ابن عبد العزيز شاطبة وانضمت إليه مدينة لقنت[٣] وما إليها "فضخمت جملته واتسعت طاعته"[٤] .

ويبدو أن متطلبات التأمر كانت تفوق قدرات ابن عبد العزيز فتكاثرت عليه المشاكل: فقد كانت الرعية ساخطة ، شأنها شأن الرعية في كل مدن الأندلس آنذاك ، من كثرة مطالبه ، كما تمرد الجند لعجزه عن دفع مرتباتهم ، فحاصروه في قصره. وكان قصارى ما استطاع فعله أن تنكر وهرب لسبيله في ٢٦ جمادي الأول ٥٤٠هـ[٥] . فوصل إلى المرية حيث اتصل بقائد الأسطول المرابطي محمد بن ميمون لتسهيل خروجه من الأندلس غير ان ابن ميمون قبض عليه وسلمه إلى عبد الله بن غانية عدو ابن عبد العزيز وطريده من بلنسية وشاطبة فأكتفى هذا الأخير بسجنه في ميورقة نحو من عشر سنوات إلى أن خلصه الوزير أبو جعفر بن عطية[٦] من السجن. فـ"تلاعبت به الأيام إلى أن توفي بمراكش ٥٧٨هـ"[٧] .

---

[١] نفس المصدر: ص ٢٢٠.

[٢] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٦ ؛ ابن الأبار: المعجم ص ١٩٦.

[٣] لقنت: مدينة من أعمال لاردة جنوبي بلنسية وشرقي مرسية وهي من أكبر موانيء البحر المتوسط آنذاك (ياقوت: معجم البلدان ص ٣٥٥).

[٤] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٦.

[٥] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٦.

[٦] أبو جعفر أحمد بن عطية (ت٥٥٣هـ) كاتب بليغ كتب لعلي بن يوسف في آخر أيامه ثم لإبنه تاشفين فلما انقضت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأخفى نفسه إلى أن استكتبه الخليفة عبد المؤمن بن علي ثم استوزره. وبعد أن أدرك مكانة مرموقة عند عبد المؤمن جرت له محنة فقتل هو وأخوه أبو عقيل (المراكشي: المعجب ص ٢٩٠ - ٢٩٣ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص ٢٦٣ - ٢٧١).

[٧] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٦.

لم تتخلف مرسية عن ركب الثورة على المرابطين فرأس أهلها القاضي أبا محمد بن الحاج اللورقي[1] الذي دعا لابن حمدين. غير أنه ما لبث أن "أظهر التبرم بما حمل والإنخلاع مما قلد[2] " فأختار أهل مرسية القاضي أبا جعفر بن أبي جعفر الخشني ، فسار على ما سار عليه سلفه من الدعوة لابن حمدين و" خاطبه مشايعاً له ومتبعاً[3] ، فوجه إليه بالقائد عبد الله الثغري والياً وقائداً على مرسية وأوصاه بالتعاون مع أبي جعفر وبالإنقياد إلى أوامره.

كان ابن أبي جعفر ، رغم إشراكه في إدارة مدينته ، وجعل رأيه ملزماً ، يحس أنه ليس دون بقية القضاة الذي استقلوا بمدنهم ، وأن من حقه التفرد بمرسية يدعو فيها لنفسه.

وفكر ابن أبي جعفر في أنه يحتاج إلى عمل مايزيد من نفوذه ويبسط هيبته. وكان أقرب تلك الأعمال هو مطاردة المرابطين. لذلك بادر فحشد أهل مرسية لقتال المرابطين بأوريولية[4] فتحصن هؤلاء بقصبتها ، وحاولوا الدفاع عنها ثم أيقنوا إستحالة ذلك فطلبوا الأمان مقابل التسليم لهم فتعهد لهم القاضي ابن أبي جعفر بذلك.

لكن هؤلاء القضاة المتأمرون ، فيما يبدو ، نسوا كل مقتضيات علمهم بل وكل القيم الإسلامية.فلم يعودوا يفون بعهد ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، أشربت قلوبهم الفتن فلم يعودوا يستبينون رشداً فاستوت عندهم الظلمات والنور فكلهم يصبح ويمسي في ظلام هواه.

---

[1] عبد الرحمن بن جعفر المعافري المعروف بأبي محمد بن الحاج (ت ٥٥٠هـ) من أهل لورقة وسكن مرسية برع في الأدب فاستدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف للكتابة بحضرته سنة ٥٢٨هـ فنهض بما حمل ثم استعفى من ذلك وانصرف إلى مرسية هاجراً خدمة الأمراء مواصلاً صحبة الفقراء ، زهد في الدنيا ورغبة في الآخرة. ولما قلد أمر مرسية سنة ٥٣٩ استعفى منه. وعاد لما كان عليه من عبادة وزهد (ابن الآبار: المعجم ص ٢٣٨).

[2] ابن الأبار: المعجم ص ٢٣٩.

[3] نفس المصدر والصفحة.

[4] أوريولة: مدينة ساحلية تقع إلى الشمال الشرقي من مرسية وإلى جنوب لقنت وهي حصن منيع (ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٢٨٦).

فغدر ابن أبي جعفر بهؤلاء المرابطين و"استؤصلوا قتلاً وتحريقاً بالنار ومثل بهم ، وإنتهبت أموالهم وعيل الصبر لما لقي عيالهم" كما يقول ابن الأبار[١] .

رأى ابن أبي جعفر أنه بعد هذا "النصر" قد أصبح في مركز قوة يمكنه من إظهار دفين أطماعه فخلع دعوة ابن حمدين ودعا لنفسه وتسمى بالأمير الناصر لدين ا لله وهو لقب يذكرنا بألقاب أمراء عهد الطوائف[٢] .

أمر ابن أبي جعفر بالقبض على عبد ا لله الثغري وأودعه السجن. ومن أغرب ما اتخذه أن اتخذ الطلبةالذين كانوا يأخذون عليه العلم حشماً وخدماً[٣] .

وفي إطار السباق المحتدم بين القضاة الثائرين لتوسيع مناطق نفوذهم شارك ابن أبي جعفر في حصار شاطبة طمعاً في الإستيلاء عليها ، ولكنها كانت من نصيب القاضي ابن عبد العزيز كما ذكرنا سابقاً. وقد إنتهز أهل مرسية هذه الغزوة ليخلعوا ابن أبي جعفر ويطلقوا سراح الثغري. لكن ابن أبي جعفر تمكن من سحق المتمردين عليه وأن يسترجع حكمه[٤] .

خرج ابن أبي جعفر من جديد تلبية لإستدعاء ابن أضحى من غرناطة مستنصراً به ، لما أعياه أمر المرابطين بقصبة غرناطة ، ووعده بما أطمعه. لكن المرابطين تمكنوا من هزيمة هذا التحالف وقتل ابن أبي جعفر وأفنوا معظم جنده في ٣ ربيع الأول ٥٤٠هـ[٥] والعجب أنه كان في هذا الجيش الفازع طمعاً "أعلام فقهاء الشرق وكتابهم وشعرائهم"[٦] . مما يدل على أن الفتنة قد استفزت الجميع.

---

[١] المعجم: ص ٢٣٩.

[٢] لقد تلقب بهذا اللقب من أمراء الطوائف علي بن حمود (ت٤٠٨هـ) أول أمراء بني حمود العلويين بقرطبة (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٢٨ – ١٢٩).

[٣] ابن عبد الملك: الذيل والتكملة سفر الخامس قسم ١ ص ٩٩.

[٤] ابن الأبار: المعجم ص ٢٤٠.

[٥] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٨.

[٦] نفس المصدر والصفحة.

لم تقتصر الثورة وإثارة الفتنة على هؤلاء النفر من القضاة بل اشترك فيها قضاة آخرون وإن كانوا أقل تأثيراً وشأناً فمن هؤلاء: القاضي ابو أمية أحمد بن عاصم[١] المتغلب بأريولية. والقاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي المتأمر بجيان[٢] .

كان الأندلس منذ سنة ٥٣٩هـ إلى دخول الموحدين له إبتداء من سنة ٥٤١هـ ، يعيش فتنة حقيقية تركت الحليم حيراناً. ومع ذلك فقد بقيت أغلبية العلماء بمنأى عن تأجيج هذه الفتنة وظلوا يبثون العلم ويوطنون الأنفس. وليس مسلك القاضي أبو محمد عاشر بن عاشر عندما رفض التعاون مع القاضي الثائر ابن أبي جعفر ، وانكب على العلم يفيد ويستفيد ، إلا نموذجاً لمسلك أغلبية العلماء التي لم تكن تريد علواً في الأرض ولا فساداً.

وقد عبر عدد من العلماء عن رفضهم سلوك الطريق الذي سلكه زملاؤهم الثائرون واعتبروا عمل هؤلاء نكثاً لبيعة صحيحة يجب الوفاء بها للمرابطين. فهذا القاضي أبو جعفر ابن الحسين بن الحسن الأزدي رفض بيعة القاضي ابن عبد العزيز قائلاً: "وا لله لا أفعل وبيعة تاشفين في عنقي"[٣] .

وأصر القاضي جعفر بن الحسين بن أبي البقاء ، على بيعة المرابطين[٤] . وحتى الذين اضطروا إلى التعاون مع هؤلاء الثائرين ، ولو في أضيق الحدود ، فإنهم كانوا يحسون بمرارة هذا العمل وتؤنبهم ضمائرهم على ذلك ، وخير مثال على ذلك هو الفقيه القاضي أبو عبد ا لله بن غلام الفرس الذي أرغمه ابن عبد العزيز على تقلد الخطابة

---

[١] قال عنه ابن الخطيب "أحد الرؤساء أولى السلف والنباهة قام برياسة بلده للعهد المذكور وقصده الناس وامتدحوه حسبما يظهر من شعر ابي بكر بن حبيس فيه ومنه قصيدته المشهورة التي أولها:

يعز بك الإسلام والدين والفخر   وتخدمك الأقلام والبيض والسمر

وإتصلت الرياسة في عقبه" أعمال الأعلام ص ٢٥٩

[٢] لا تتوفر عنه معلومات مفصلة وقد أشار إليه ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٩ إشارة عابرة.

[٣] النباهي: مصدر سابق ص ١٦.

[٤] ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٢٤١.

بجامع دانية فكان إذا سئل عن حاله يقول: "حال ابن سبعين سنة يطلع على هذه الأعواد فيكذب"[١] .

ولنا أن نتساءل هل كان عند هؤلاء القضاة برنامج يسعون إلى تحقيقه أو واقع يريدون تغييره؟

لا يجد الباحث أي مباديء وراء هذه الثورات بل إننا لا نجدها تحمل أي شعارات مناهضة للمرابطين أو تسوق إتهامات ضدهم كما رأينا مع المهدي بن تومرت وثورته في المغرب. إذاً لماذا ثار هؤلاء الفقهاء؟ وهم مظنة معرفة أضرار الفتن وما تجره من ويلات ، وأكثر من ذلك يعرفون حرمة الخروج على الإمام وشق عصى الطاعة وتفريق كلمة المسلمين. أو ليس إمامهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس هو القائل "سلطان جائر سبعين سنة ، خير من أمة سائبة ساعة من نهار"[٢] .

والذي يبدو لي هو أن هذه الثورات كانت ثورات من أجل الثورة حاديها الطموح الأعمى والجشع وقلة الإيمان وقصر النظر. وقد ساعد هؤلاء النفر من القضاة على ترأس هذه الثورات ما تمتعوا به من نفوذ وثراء على عهد الدولة المرابطية جعلهم أعيان مدنهم وزعماؤها. إن النظرة التحليلية إلى هذه الثورات تظهر أن العلماء الذين قادوها لم يعرضوا عملهم هذا على ميزان الشرع الذي يقدم درء المفاسد على جلب المنافع هذا إن تحقق وجود هذه المنافع فبأحرى إن كانت منافع متوهمة وشخصية في مقابل مفاسد محققة من سفك للدماء وترويع للآمنين وإضعاف لكلمة المسلمين وهو ما حدث بالضبط في الأندلس فإزدادت أوضاعها سوءاً وقوي طمع عدوها وإزداد كلبة.

---

[١] ابن عبد الملك: الذيل والتكملة السفر ٦ الترجمة رقم ٤٤٠ ص ١٦٦.

[٢] ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ ص ١٥٤.

الفصل الثالث

العلمــــاء حكاماً

لقد رأينا في الفصل الماضي ، مرحلة من مراحل الطمـوح لـدى العلمـاء في العهـد المرابطي والتي تمثلت في الثورة على الدولة القائمة. وقد رأينا كيف إنتهت تلك الثورات في معظمها إلى الفشل. وفي هذا الفصل سنحاول التعرف على تجربة بعض العلماء في الحكم ، وكيف تعاملوا مع معضلة التسيير اليومي لشؤون مناطقهم.

ومن خلال ذلك سنتبين مدى صدق الحكم الذي أصدره ابن خلدون على العلمـاء واصفاً إياهم بأنهم من بين البشر أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها ، وقد علل هذا الحكم بقوله أنهم "معتادون النظر الفكري والغواص عن المعاني وإنتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة وشخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبقون بعد ذلك الكلي على الخارجيات وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي. فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها.

والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة مافي الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية ، ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها .... فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم"[1] .

وسنتحدث في هذا الفصل عن تجربة عالمين هما: القاضي أبو أحمد بن الجحاف البلنسي وأبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين القرطبي.

---

[1] ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص ٢٤٢.

١- القاضي ابن جحاف: حاكم بلنسية:

هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري البلنسي ، وأسرة بني جحاف أسرة عريقة في بلنسية فـ"لها فيها الأصالة الماجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة"[١] وقد تكرر في أفرادها ولاية القضاء فقد ولي جده جحاف بن يمن القضاء للخليفة عبد الرحمن الناصر ، واستشهد في غزاة "الخندق" عام ٣٢٧هـ[٢] . وتولى القضاء ابنه جعفر بن جحاف المتوفي سنة ٣٧٦هـ[٣] . وممن تولى القضاء منهم القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن عبد الله بن جحاف المتوفي سنة ٤٧٢هـ[٤] .

أخذ أبو أحمد العلم عن كثير من العلماء من أبرزهم حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر وأبو العباس العذري[٥] .

أ - الحالة السياسية في بلنسية قبل حكم ابن جحاف:

كانت بلنسية قاعدة الحكم في شرق الأندلس أيام بني أمية. فلما كانت الفتنة وسقطت هذه الدولة إستقل بها صقلبيان من موالي المنصور بن أبي عامر[٦] هما مبارك ومظفر فتقاسما سلطنتها ، مات أولهما سنة ٤٠٨هـ وقد ثارت العامة على مظفر وقتلوه في نفس السنة[٧] .

ثم آل الأمر فيها إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن أحد أحفاد المنصور بن أبي عامر وذلك سنة ٤١١هـ وظل يحكمها إلى سنة ٤٥٢هـ وخلفه فيها إبنه عبد الملك غير

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٣.

(٢) الضبي: بغية الملتمس ج١ ص ٣٢٢ ؛ الحميدي: جذوة المقتبس ج١ ص٢٩٤.

(٣) ابن الفرضي: علماء الأندلس ج١ ص ١٨٩.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٣٢٥.

(٥) أبو العباس أحمد بن عمر بن قطبة العذري (ت٤٧٨هـ): محدث مشهور له رحلة إلى المشرق في طلب العلم دامت سنوات عدة. ولما عاد إلى الأندلس أخذ الناس عنه كثيراً وحدث عنه من كبار العلماء أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم وأبو علي الغساني وغيرهم من كبار الشيوخ (الحميدي: جذوة الإقتباس ج١ ص ٢١٣ ؛ ابن بشكوال ج١ ص ٦٩).

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٢٥ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ١٥٨

(٧) ابن عذارى: المصدر السابق ص ١٦٣.

أن مدته لم تطل فقد خلعه صهره المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة سنة ٤٥٧هـ[١] . وقد نوب المأمون أبا بكر بن عبد العزيز[٢] في إدارة بلنسية ، وظل يديرها بالنيابة إلى أن توفى المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٧هـ "فصفت له مشاربه وخلاله جانبه وضعف عنه مطالبه"[٣] فاستقل بها. وخلف عليها عند وفاته سنة ٤٧٨هـ إبنه أبو عمر وعثمان.

وفي هذا الوقت كانت الأندلس تعيش أوقاتاً مصيرية في حياتها فقد سقطت طليطلة في يد القشتاليين في صفر ٤٧٨هـ. وكان لهذا الحدث الجلل الذي هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها أثر كبير وخطير في شرق الأندلس عموماً وفي مملكة بلنسية بالخصوص.

كان ألفونس السادس عندما استولى على طليطلة تعهد لمليكها المخلوع القادر بن ذي النون أن يعينه على الإستيلاء على بلنسية ، التي كانت قد خرجت عن طاعته[٤] .

وكان ألفونس السادس يسعى من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين هما: تعويض القادر عن طليطلة ولكن الأهم من ذلك أنه كان يريد بسط نفوذه على بلنسية من خلال القادر الذي لا يعدو أن يكون تابعاً ذليلاً.

وإنجازاً لهذا الوعد سار القادر بن ذي النون إلى بلنسية ومعه سرية قوية من الجند النصارى أمده بها ألفونس السادس تحت قيادة البرهانس[٥] .

---

[١] ابن بسام: الذخيرة ق٣ مج١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ؛ ابن عذارى: المصدر السابق ص ١٦٤ - ١٦٦.

[٢] أبو بكر بن عبد العزيز (ت ٤٧٨هـ): قال عنه ابن بسام "كان أحد ممن سبق وادعاً وتجاوز ذروة الشرف متواضعاً ، وكان من أراجح كبار الكتاب ، الطالعين في دمس هذه الفتنة المدلهمة كتب أبو بكر لعبد الملك بن عبد العزيز لما خلف أباه في حكم بلنسية ، فأظهر كفاية وأضطلع بما حمل. غير أنه مالأ ابن ذي النون عندما أراد إحتلال بلنسية ومهد له السبيل إلى أن خلع عبد الملك. وقد كافأه ابن ذي النون بأن جعله نائباً عنه على بلنسية (ابن بسام: الذخيرة ق ٣ مج ١ ص ٤٠ - ٤٤ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٢).

[٣] ابن بسام: الذخيرة ق ٣ مج١ ص ٤٢.

[٤] ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٣٠٤ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٢.

[٥] البرهانس هو الإسم العربي للفارس القشتالي **ALVARHANES** ابن عم المغامر المشهور "السيد الكمبيطور" الذي سنتحدث عنه في الصفحات التالية ، وأحد قواد ألفونس السادس صاحب قشتالة وقد اشترك في جميع المواقع التي جرت بين ألفونس والمرابطين. وقد كان من كبار فرسان قشتالة في معركة "أقليش" في ٥٠١هـ وانهزم مع من انهزم. وقدخسر اقطاعيته في قرية توريتا حينما استولى المرابطون على قونقة بعد إنتصارهم في أقليش. توفى سنة ٥٠٧هـ (١١١٤م) (ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٥٩ ؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى في عصر المرابطين ص ٣٩).

لم تجد هذه القوة مقاومة من أهل بلنسية ، فقد رأى هؤلاء أنه لا مقدرة لهم على صد هجوم القشتاليين وبالتالي فقد سلموا مدينتهم طوعاً للقادر وخلعوا عثمان بن أبي بكر ، فدخل القادر بلنسية في شوال ٤٧٨هـ[١] .

وبدخول القادر بلنسية قامت دولة بني ذي النون في شرق الأندلس بعد أن درست في طليطلة لكنها كانت دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها وبقائها لحراب الجند النصارى الذين دخلوا مع القادر المدينة.

سلك القادر في حكمه لبلنسية سياسة إتسمت بالجور والظلم "فأحدث فيها أحداثاً وغير أحكاماً وأظهر منكراً كثيراً"[٢] . كما أرهق الرعية بالإتاوات ليسدد مطالب حماته القشتاليين. وزاد من سوء الوضع بالنسبة للبلنسيين أن العسف لم يأت فقط من طرف حاكمهم الجديد بل أن الجنود القشتاليين أرهقوهم بمؤنهم ومغارمهم. وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس[٣] . وغدت السيادة الحقيقية في المدينة لألبرهانس وجنده ، فغادر كثير من الأعيان والأكابر بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق[٤] .

وفي أثناء ذلك كانت تجري في جنوب الأندلس أحداث مصيرية في تاريخ البلاد فقد عبر المرابطون إلى البلاد الأندلسية في ربيع الآخر ٤٧٩هـ ، إستجابة لنداء الإسلام وأهله في هذه البلاد ، كما ذكرنا في الفصول الماضية.

ولمواجهة هذا الخطر بدأ ألفونس في جمع قواته فاستدعى ألبرهانس وقواته من بلنسية. وحدثت بين الطرفين الإسلامي بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين والمسيحي بقيادة ألفونس السادس معركة الزلاقة والتي إنتهت ، كما ذكرنا من قبل ، بإنتصار باهر للمرابطين وحلفائهم. وقد أحيى هذا النصر الأمل في نفوس الأندلسيين قاطبة ، وفرح به البلنسيون لأكثر من سبب: فقد أبعد المرابطون بدخولهم الأندلس عن

---

[١] ابن عذاري: البيان المغرب ج٣ ص ٣٠٤.

[٢] ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٣٠٥.

[٣] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثاني ص ٢٢٨.

[٤] نفس المرجع والصفحة.

بلنسية ضغط القشتاليين ، ولو إلى حين ، كما أضعف هذا الإبتعاد موقف ومكانة القادر بن ذي النون.

بادر القادر عقب نصر الزلاقة بمراسلة يوسف بن تاشفين ومحاولة التقرب إليه أسوة بباقي أمراء الأندلس[1] ، ولكن يوسف كان في ذلك الوقت مشغولاً عن شؤون شرق الأندلس. شعر البلنسيون بأن الظرف أصبح مناسباً للتخلص من القادر وظلمه وجوره ، فأصبحوا يتحينون به الفرص ويأتمرون عليه. كما بدأ حكام الحصون التابعة لبلنسية في التحرك والعصيان. وإلى جانب هذا الخطر الداخلي كان القادر يتعرض لأخطار خارجية تتمثل في المنذر ابن هود[2] صاحب لاردة[3] وطرطوشة[4] الذي كان يرقب الأوضاع في بلنسية ويتحين الفرص للإستيلاء عليها. ورأى في هذا الظرف الزمني الوقت المناسب لتحقيق هدفه ، فإتجه بقواته صوب بلنسية وضرب عليها الحصار.

أحس القادر بجسامة الأخطار المحدقة به ، وكان يدرك أن لا طاقة له بالتصدي لها ، فبدأ يبحث حوله عن معين ، فإستغاث بألفونس ملك قشتالة ، كما

---

[1] ابن بسام: الذخيرة ق ٣ ج١ ، ص ٩٣ - ٩٤.

[2] المنذر بن أحمد المقتدر بن هود (ت٤٨٣هـ): أحد أمراء إمارة سرقسطة لما توفى أبوه أحمد المقتدر سنة ٤٧٤ انقسمت إمارة سرقسطة التي كان يحكمها بين أبنيه يوسف المؤتمن واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الإمارة ، والمنذر هذا الذي انفرد بطرطوشة ولاردة ودانية، وتلقب بالحاجب عماد الدولة وقد نشبت الحرب بين الأخوين. و لم يخمد أوارها وفاة يوسف سنة ٤٧٦هـ بل نهض بأوزارها من بعده إبنه أحمد بن يوسف المتلقب بالمستعين. وقد جعل كلاهما يستعين على خصمه بمن إستطاع الإستعانة به من ملوك النصارى. وقد أنقضت حياة المنذر على هذا المنوال في الحرب مع ابن أخيه إلى أن توفي سنة ٤٨٣هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٩٩).

[3] لاردة: مدينة مشهورة بالأندلس ، تقع شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طركونة ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ينسب إليها جماعة من أهل العلم.

[4] طرطوشة: من مدن الأندلس ، وهي في سفح جبل ، ولها سور حصين وبها أسواق وعمارات ومن أهلها الفقيه الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن رندقة الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) نزيل الأسكندرية صاحب كتاب "سراج الملوك" وكانت طرطوشة تابعة لكورة بلنسية وهي تقع إلى الشرق منها. (الحميري: الروض المعطار ص ٣٩١ ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج٤ ص ٣٠).

استنجد بالمستعين بن هود[١] صاحب سرقسطة وخصم المنذر. لكن هؤلاء كانوا "يسرون حسوا تحت رغو"[٢] فقد كان المستعين يطمح إلى تملك بلنسية فرأى في هذه الدعوة فرصته في تحقيق هذا الأمل ، فبادر إلى الإستجابة. وعقد من أجل ذلك عقداً مع مغامر قشتالي مشهور هو السيد إلكمبيطور وبموجب هذا العقد تؤول إلى السيد الأسلاب والغنائم التي تظفر بها الحملة. ويحوز المستعين البلد.

وهنا نرى من المفيد أن نتوقف قليلاً لإلقاء الضوء والتعرف عن قرب على شخصية السيد إلكمبيطور وذلك لأهمية الأدوار التي لعبتها هذه الشخصية في تاريخ الأندلس وبالخصوص في شرق الأندلس وفي تاريخ بلنسية بالذات في هذا العهد.

لقد جعل الشعراء الشعبيون الأسبان من هذا المغامرأعظم رجال عصره[٣] ، ولم يقتصر التنويه به وإضفاء هالة العظمة عليه على شعراء العصور الوسطى بل شاركهم في ذلك بعض الأكاديميين الأسبان من أمثال مننذذ بيدال الذي جعله أعظم أبطال التاريخ الأسباني إطلاقاً وذلك في كتاب ألفه عنه بعنوان: "أسبانيا السيد"[٤] .

وسنتبين من خلال تعرفنا على أدوار هذا المغامر القشتالي كم هي بعيدة عن الحقيقة تلك الأحكام السالفة الذكر.

---

[١] أحمد بن يوسف بن هود المتلقب بالمستعين (ت ٥٠٣هـ): تولى إمارة سرقسطة بعد وفاة إبيه يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦هـ وقد إستطاع أن يحافظ على مملكته رغم أطماع النصارى المجاورين وذلك في أغلب الأحيان بتحالفه مع بعضهم ضد البعض الآخر. وعندما ظهر المرابطون وأزالوا ملوك الطوائف أبقوه في ملكه ربما ليظل حائلاً بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين في شرق الأندلس وذلك على رغم مداخلته للنصارى ومحالفته لهم. وقد استشهد المستعين في معركة بينه وبين ملك أرغون في رجب ٥٠٣هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٩٩ - ٢٠٢ ؛ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٤٢٧ ، مجهول: الحلل الموشية ٧٣ - ٧٦).

[٢] مثل يضرب في من يظهر أمراً في حين يعمل لتحصيل غيره.

[٣] أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١٠٦.

[٤] PIDAL: LA ESPANA del CID, MADRID, 1929

إن الإسم الحقيقي للسيد الكمبيطور هو رود ريجو دياذ دي بيفار (٤٣٦ - ٤٩٥هـ/١٠٤٥ - ١١٠٢م) Rodri Go Diaz de Bivar وتسميه المصادر العربية بإسم "لذريق" و "رذريق" أو "الطاغية روذريق" كما عرف بإسم "الكمبيطور"[١] . عاش السيد حياته الأولى في خدمة ملكه فرناندو الأول (ت١٠٦٥م) ملك قشتالة وليون واشترك في حملاته العسكرية.

وبعد وفاة فرناندو خدم أبناءه[٢] ، شانجة إلى أن قتل عام ١٠٧٢م ثم أخوه ألفونس السادس وفي ظل هذا الأخير بدأت مكانة "السيد" ترتفع فأصبح سفيره إلى أمراء الطوائف[٣] . غير أن العلاقة بين "السيد" وملكه لم تستمر كثيراً إذ طرد ألفونس "السيد" من بلاطه. فلجأ إلى بلاط بني هود في سرقسطة "الذين أخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسعيهم المذموم المخذول ، وسلطوه على أقطار الجزيرة ، يضع قدمه على صفحات انجادها ، ويركز علمه في أفلاذ كبدها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها ودانيها شره"[٤] . وخدم "السيد" جماعة من ملوك بني هود المقتدر[٥] ثم إبنه المؤتمن الذي كان يبالغ في إكرام "السيد" ويعتز بصداقته ومحالفته

---

[١] يعرف ابن عذارى القمبيطور بأنه صاحب الفحص (البيان المغرب ج٣ ص ٣٠٥) ويقول حسين مونس أن مقابل اللفظ في اللاتينية Campidoctus وأن معناها بناء على تفسير ابن عذارى: قائد الغارات في بلاد الأعداء (حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الأول مايو ١٩٥٠ ص ٤٤).

[٢] لما توفي فرناندو الأول سنة ١٠٦٥م ، وكان قد قسم بين أبنائه الثلاثة: سانشو (شانجة) وألفونس السادس وغرسية ، نشبت بين هؤلاء حرب طاحنة وقد خدم السيد خلال هذه الحرب سانشو. ولما قتل هذا خدم مكرهاً ألفونس السادس (ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ١٧٧ - ١٧٨).

[٣] أشباخ: المصدر السابق ص ١٠٧ ؛ ليفي بروفنسال: المصدر السابق ص ١٨٠.

[٤] ابن بسام: الذخيرة ق ٣ ج١ ص ٩٥.

[٥] أبو جعفر أحمد بن سليمان بن هود (ت٤٧٤هـ) المتلقب بالمقتدر با لله: ثاني أمراء بني هود بسرقسطة وأقوى أمراء هذه الأسرة وأوسعهم في تاريخ فترة الطوائف ذكراً. وقد كانت سرقسطة في أيامه من (٤٤١ - ٤٧٤هـ) درة الأندلس الإسلامي إلى جانب أشبيلية وقد ابتنى فيها "قصر الجعفرية". (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٢٢٤ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٩٨ ؛ ابن سعيد: المغرب ص ٤٣٦).

ويأخذ بنصحه في معظم الأمور[١] . ولما توفي المؤتمن سنة ٤٧٨هـ خلفه ولده المستعين فاستمر "السيد" في خدمته. وقد قدم "السيد" لبني هود ، في البداية خدمات جليلة فحارب لحسابهم أرغون وبرشلونة. كما أفاد هو من ذلك فوائد كبيرة فقد تحرر من التبعية وأصبح فارساً حراً يعمل لحساب نفسه وأصبح مطلق العنان في شرق الأندلس كله ، فاتسعت ثروته وكثر أتباعه[٢] . ويبدو أنه حمل اللقب الذي عرف به وهو "السيد" ELCID في هذه الفترة. وهي تحريف لكلمة السيد بالعربية وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم ويحارب معهم. وفي هذه الفترة بدأ "السيد" يتطلع إلى بلنسية ويهتم بشؤونها. وكانت الفرصة الأولى عندما استنجد القادر بن ذي النون بالمستعين بن هود لصد هجوم المنذر بن هود ، كما ذكرنا ذلك سالفاً ، فقد سار "السيد" إلى بلنسية صحبة المستعين وكان كلاهما يضطرم بنيات ومشاريع خاصة. ولما اقترب الجيش المتحالف من بلنسية أضطر المنذر أن يرفع عنها الحصار وانسحب عائداً لبلاده. عندئذ بدأت المفاوضات والتحالفات السرية بين الأطراف الثلاثة المتبقية أي القادر والمستعين و"السيد".

بادر القادر بعقد إتفاق سري مع السيد وبعث إليه بجملة من الأموال والتحف ، فغدى "السيد" ينصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد وأنه سوف يعينه على تحقيق بغيته في كف طمع المستعين عنه ، ثم هو يعد حليفه المستعين أنه على إستعداد لمساعدته على أخذ بلنسية. ثم يبعث سراً إلى المنذر بن هود يعقد معه إتفاقاً بالصداقة والتحالف. ثم هو أخيراً يرسل إلى ألفونس ملك قشتالة يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه إنما هو تابع له[٣] .

وهنا ظهر "السيد" على حقيقته كمغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معاً وينتهز الفرصة بأي ثمن. وأدرك المستعين خلال ذلك ، مدى خداع "السيد" وغدره ، فإتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة وكان من ألد أعداء السيد و قدم إليه أموالاً جزيلة ودعاه إلى مساعدته في حصار بلنسية فاستجاب برنجير لذلك[٤] .

---

[١] بروفينسال: مرجع سابق ص ١٨٤.

[٢] حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص ٥١.

[٣] بروفينسال: المرجع السابق ص ١٨٦ - ١٨٧.

[٤] نفس المرجع والصفحة.

وأمام هذا التحالف الجديد إستغاث القادر بحليفه الجديد "السيد" ، الذي كان قد سافر إلى قشتالة لإسترضاء ملكه ألفونس وهو ما حصل عليه. فبادر "السيد" بالرجوع إلى بلنسية يقود جيشاً كبيراً من المرتزقة. وحين اقترب من بلنسية دارت بينه وبين برنجير معركة هزم فيها هذا الأخير وحصل في الأسر ولم يطلق "السيد" سراحه إلا لقاء فدية كبيرة. وقد فتحت هذه المعركة الطريق أمام "السيد" ليحتل بلنسية فدخلها وتلقاه القادر بالأموال والتحف وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته[١] .

ويبدو أن السيد فضل أن يبقي القادر نائباً عنه ويكتفي هو بإستنزافه إذ فرض عليه مائة ألف دينار في العام كجزية وهو مبلغ طائل في ذلك العصر[٢] . ولم تقف طموحات الكمبيطور عند هذا الحد بل كان يسعى لأن يكون سيد شرق الأندلس كله فعاث فساداً في البلاد فخشيت صولته مما دفع أمراء بني رزين[٣] أصحاب شنتمرية الشرق[٤] وابن لبون[٥] صاحب مربيطر[٦] وصاحب

---

[١] محمد عبد الله عنان: دولةالإسلام في الأندلس، العصر الثاني ص ٢٣٧.

[٢] حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٥٦.

[٣] بنو رزين: أسرة بربرية قديمة في شرق الأندلس أسست لها دولة صغيرة بأرض السهلة الواقعة بين مملكة بلنسية وجهة ثغر سرقسطة وحضرتها مدينة شنتمرية وقد قامت هذه الدولة عند إنتثار عقد الأندلس بسقوط الدولة الأموية ودامت دولتهم نيفاً وتسعين سنة (٤٠٣ - ٤٩٧هـ). وإنتهت هذه الدولة بإحتلال المرابطين لها. ومن أبرز أمراء بني رزين هذيل بن خلف بن رزين المعروف بإبن الأصلع حكم ما بين ٤٠٣ - ٤٣٦هـ ثم إبنه عبد الملك وقد حكم شنتمرية زهاء ستين سنة (٤٣٦ - ٤٩٦هـ) وفي عهده كان نشاط "السيد" في شرق الأندلس. (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١١٠ - ١١٥ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٣٠٥ - ٣١١.

[٤] شنتمرية الشرق: تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب وهي الواقعة في جنوب غربي ولاية الغرب الأندلسي ، وكانت شنتمرية الغرب في عهد الطوائف تحت نفوذ رجل إسمه محمد بن سعيد بن هارون بويع له فيها سنة ٤٣٣هـ ثم غلبه عليها المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣هـ وأضافها إلى مملكته (ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٢٩٨).

[٥] أبو عيسى لبون بن عبد العزيز بن لبون: كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون ثم إستقل بحصن مربيطر إلا أن أيامه بها لم تطل فتخلى عنها لأبي مروان عبد الملك بن رزين وكان أبو عيسى معدوداً من الأجواد موصوفاً بجودة الشعر (ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص٢٨٩ ؛ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٣٧٦).

[٦] مربيطر: مدينة بالأندلس قريبة من طرطوشة بينها وبين بلنسية أربعة فراسخ وهي مشهورة بآثارها القديمة (الحميري: الروض المعطار ص ٥٤٠).

البونت[1] أن يدفعوا له الجزية التي كانوا يدفعونها لألفونس السادس ملك قشتالة.

لم تكن محاولات السيد الكمبيطور لتشييد مجد خاص وخلق منطقة نفوذ خاضعة لسلطانه ، محل ترحيب ولا رضى من طرف ملكه ألفونس السادس. ولهذا كانت العلاقة بين الطرفين مشوبة بالحذر والتوتر. لكن كان يحكمها في النهاية الحرص على الهدف المشترك في حرب "الكفرة" وإنزال الضربات بهم[2] .

ب- **ثورة القاضي ابن الجحاف:**

في هذه الفترة الممتدة من ٤٨١ - ٤٨٤هـ كانت الأندلس تشهد أحداثاً مهمة فقد أقدم المرابطون على إستنزال أمراء الطوائف عن عروشهم لما وجدوا فيهم من ضعف عن تحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام والحفاظ عليه. ووصل المرابطون إلى شرق الأندلس بإحتلالهم لمرسية في شوال ٤٨٤هـ[3] . وبدأ أهل شرق الأندلس يتوقون إلى الخلاص مما هم فيه من مكابدة النصارى وتعلقت أنظارهم وآمالهم بالجيوش المرابطية الزاحفة. وكان أهل بلنسية ، كما رأينا ، أشد المعانين من النصارى والكمبيطور على الخصوص الذي "أخذ بمخنق بلنسية وألقى زوره عليها يجبي رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية[4] " على حد قول ابن عذارى.

وبدأ أهل بلنسية يفكرون في كيفية التخلص من لذريق وصنيعته ابن ذي النون وجرأهم على ذلك ما كان يحققه المرابطون من إنتصارات باهرة.

وأتت البلنسيين الفرصة فقد إنتقل الكمبيطور إلى سرقطسة في شعبان ٤٨٤هـ إثر إستدعاء ابن هود وكان الغرض من هذا الإستدعاء هو التحالف على دفع خطر المرابطين الداهم وهذا ما يشير إليه ابن بسام بقوله" ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزي

---

[1] صاحبها آنذاك هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن قاسم من بني قاسم أمراء إقليم البونت فترة الطوائف وكانوا يخضعون لملك قشتالة إلى أن استولى عليهاالمرابطون (ابن خاقان: قلائد العيان ج١ ص ٣٧٧ ؛ ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٣٩٦).

[2] ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ١٨٧ - ١٨٨.

[3] ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٥.

[4] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣١.

إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أكلب الجلالقة يسمى لذريق ويدعى بالكمبيطور ، وكان عقالاً ، وداءً عضالاً له في الجزيرة وقائع وعلى طوائفها بضروب المكروه إطلاعات ومطالع"[١] وأراد ابن هود بذلك " أن يضعه بينه وبين سرعان عساكر أمير المسلمين"[٢] .

وكان يتزعم البلنسيين لتحقيق طموحاتهم في الإنعتاق من خطة الخسف ، القاضي أبو أحمد جعفر بن جحاف الذي ذهب إلى دانية[٣] لمقابلة محمد بن عائشة قائد جيوش المرابطين في المنطقة ودعاه إلى المسير إلى بلنسية لإنقاذها. وكان طبيعياً أن يستجيب ابن عائشة لطلب ابن جحاف فقد كان الهدف الذي يسعى إليه الطرفان واحداً وهو محاربة النصارى وإستنقاذ البلاد الإسلامية التي يحتلونها ، فوجه إليه جمعاً من المرابطين بقيادة ابن نصر المرابطي[٤] .

وأمام هذه التطورات حاول عملاء الكمبيطور في بلنسية وعلى رأسهم ابن الفرج ، الذي كان ممثل الكمبيطور في المدينة ، أن يتصدوا لإبن جحاف ويحبطوا إجراءاته. فقد أرسل ابن الفرج جماعة من أتباعه لإعتقال القاضي ولكنهم فشلوا في ذلك. ومع وصول القوات المرابطية قبض القاضي ابن جحاف على ابن الفرج ، في حين تمكن النصارى الذين كانوا في المدينة من أتباع الكمبيطور من الفرار[٥] . أما القادر بن ذي النون ، حاكم بلنسية الإسمي ، فقد بادر بإرسال بعض عياله إلى نفر من أصحاب الحصون المجاورة ثم بدأ يخطط للفرار لكن الثائرين بقيادة ابن جحاف اقتحموا القصر وفتشوا عن القادر حتى عثروا عليه ، وكان قد اختفى في بعض حمامات القصر ، فأمر القاضي ابن

---

[١] الذخيرة: ق ٣ ج١ ص ٩٥.

[٢] نفس المصدر والصفحة.

[٣] دانية: مدينة بالأندلس ، من أعمال بلنسية ، على ضفة البحر شرقاً وأهلها أقرأ أهل الأندلس (معجم البلدان ج٢ ص ٤٣٤).

[٤] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٣ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣١.

[٥] محمد عبد الله عنان: مرجع سابق ص ٢٤١.

جحاف بقتله وأسند أمر قتله إلى رجل من بني الحديدي "طلباً بذحل[1] عما كان هو قد قتل من سلفه وهدم من بيوت شرفه"[2] ، وحملت رأسه على رمح وطيف بها في شوارع بلنسية. وذلك في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥هـ[3] . وفي مقتل ابن ذي النون يقول أبو عبد الرحمن بن طاهر[4] مخاطباً ابن جحاف:

أيها الأخيف[5] مهلاً فلقد جئت عويصاً

إذ قتلت الملك يحيى وتقمصت القميصا

رب يوم فيه تجزى لم تجد عنه محيصا[6]

وفي اليوم التالي لمقتل القادر إختارت "الجماعة" ببلنسية القاضي ابن جحاف رئيساً للجماعة وغدت بلنسية دولة يتولى ابن جحاف رئاستها[7] . واستولى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التي كان يحتفظ بها القادر.

---

(١) الذحل: الثأر والوتر (محمد بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب ، المجلد الحادي عشر ، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م ، دار صادر بيروت ، ص ٢٥٦)

(٢) ابن بسام: الذخيرة ق ٣ ج١ ص ٩٦ ؛ وفي النص إشارة إلى قتل القادر بن ذي النون للقاضي أبي بكر بن الحديدي وزير جده المأمون وذلك في سنة ٤٦٨هـ عندما تولى القادر الحكم في طليطلة (ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص ١٥١).

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص٣١ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٣.

(٤) أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر القيسي (ت٥٠٧): ينتمي إلى أسرة بني طاهر الشهيرة بمرسية. وقد كان أبو عبد الرحمن كما يقول ابن الخطيب "صدر زمانه والمثل السائر في بلاغته وبيانه". وقد تغلب أبو عبد الرحمن على مرسية وحكمها من سنة ٤٥٥ - ٤٧١هـ إلى أن وجه إليه المعتمد بن عباد جيشاً بقيادة وزيره ابن عمار وقائده ابن رشيق سنة ٤٧١هـ ففر ابن طاهر إلى بلنسية ونزل في كنف صاحبها ابن عبد العزيز. ولما استولى ابن جحاف على السلطة حصل بينهما جفاء. وقد شمله الأسر عند إحتلال "السيد" لبلنسية. وتوفي سنة ٥٠٧هـ وقد نيف على التسعين سنة. وقد خصه ابن بسام بتأليف أسماه: "سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر" (ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص٢٤ ؛ ابن خاقان: قلائد العقيان ج١ ص ١٧٠ - ٢٠٦ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١١٦ - ١٢٧ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ٢٠١ - ٢٠٢).

(٥) الأخيف: من كانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى سوداء.

(٦) ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص ٩٦ ؛ ابن خاقان: القلائد ج١ ص ٢٠٦ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٣.

وكان الوضع الأمني والتهديد الخارجي المتوقع من طرف السيد أولى الأولويات التي كان على القاضي ابن جحاف أن يتعامل معها. وبالفعل فقد أخذ في تحصين أطراف المدينة وحشد الجند وأوكل ضمن إستعداداته إلى جند المرابطين مهمة حراسة المدينة.

وبدأ ابن جحاف في ممارسة السلطة فرتب أرزاق الجند والخدمة. ويبدو أن تغلب القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد على اشبيلية وحكمه لها من سنة (٤١٤ – ٤٣٣هـ) وتوريثها لأبنائه كان هو المثال الذي كان ابن جحاف يسعى إلى تحقيقه في بلنسية[١] . لكننا نلاحظ أن المثال أي القاضي ابن عباد ، والمحتذي أي ابن جحاف وإن إشتركا في بعض الخصائص من كون كليهما قاض طموح يسعى إلى تكوين ملك معتمداً في ذلك على ماضيه ومكانة اسرته في بلده ، فإنهما يختلفان في سبل تحقيق هدفيهما ففي حين كان ابن عباد يبدي في أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق وكان يعمل في هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه[٢] كان ابن جحاف مستعجلاً في أموره متكبراً في سلوكه ، فقد أظهر منذ إبتداء أمره "أبهة الملوك" "وإستشعر غلظة الرؤساء" فكان يجلس "مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد ، ويتأخر عنه الجند وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء" كما يقول ابن عذارى[٣] .

لكن الفارق الأساسي بين الرجلين هو الظرف الزمني فقد استولى ابن عباد على اشبيلية في وقت كان الخطر المسيحي عليها ضعيفاً إلى حد ما والأمراء المسلمون المجاورون كل مشغول في ترتيب بيته وتدعيم سلطته في مدينته. أما ابن جحاف فقد تولى حكم بلنسية وهي تحت حكم النصارى ومحل أطماع جيرانها من بني هود الذين مافتئوا ينتهزون كل فرصة للإستيلاء عليها. وكان العامل الإيجابي الوحيد الذي من

---

(١) ابن الخطيب: المصدر السابق نفس الصفحة ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ١٩٥ – ١٩٧.

(٣) البيان المغرب: ج٤ ص ٣٢.

الممكن أن يساند ابن جحاف في سعيه لبسط نفوذه على بلنسية وتدعيم حكمه ، هو وجود المرابطين ودعمهم لإبن جحاف. غير أننا سنرى كيف ستكون العلاقة بين الطرفين.

علم السيد الكمبيطور بالتطورات التي حدثت في بلنسية عقب خروجه ، وكما هو متوقع فقد ساءته هذه الأحداث إذ أن بلنسية هي مورد رزقه الأساسي ، فأسرع بالرجوع إلى بلنسية وفي طريقه إليها عاث فساداً ينسف الزروع ويخرب القرى. وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة في طريقه[1] . وقد واصل سيره إلى أن نزل إحدى ضواحي بلنسية وهنالك إجتمع إليه أتباعه وأنصار الملك المخلوع. وفي الحال ضرب الحصار حول المدينة بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج واستولى على معظم الأنحاء القريبة ، ثم اقتحم الضاحية الشمالية للمدينة وفرض عليها سلطانه[2] .

وقد تمكن ابن جحاف بمن معه من الجنود والقوات المرابطية أن يصد الهجمات المتتالية للكمبيطور وأن يصمدوا أمام قوته الزاحفة. ولكن هذا التحالف لن يصمد طويلاً أمام مغريات المصالح الشخصية. فقد بعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين وفي مقابل ذلك يتعهد له بأن يتركه ملكاً على بلنسية وأن "يقيمه مقام ذي النون ، يحمي حوزته ويقاتل عنه"[3] . ويبدو أن هذا العرض أسال لعاب ابن جحاف فجعله ينسى حقيقة شخصية السيد القائمة على الخداع والمكر.

إنتهت المفاوضات بين الطرفين إلى:

١- أن يغادر المرابطون المدينة آمنين.

٢- أن يؤدي ابن جحاف إلى السيد ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر.

---

[1] محمد عنان: مرجع سابق ص ٢٤١.

[2] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣٢ ؛ حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص ٥٩.

[3] ابن عذارى: المصدر السابق ص ٣٣.

٣- أن يؤدي ابن جحاف للسيد الجزيــة السـابق تقريرهـا ومقدارهـا ألـف دينـار في الأسبوع مع متأخراتها من وقت أن بدأت الحرب.

٤- أن تبقى الضاحية الشمالية من المدينة بيد السيد[1] .

وهكذا عقدت شروط التسليم وهي شروط كما هو واضح مذلة جردت ابن جحـاف من وسائل دفاعه وعنصر المساومة الوحيد الذي كان بيـده وهـو القـوة المرابطيـة ، الـتي انسحبت من المدينة. ويبدو أنها لم تكن آسفة على ذلك. فابن جحاف كما يبدو لم يكن على وفاق تام مع هذه القوات إذ "كان قد استثقلهم وضاق بمؤنتهم"[2] .

وخيب تطبيق الإتفاقية آمال ابن جحاف إذ لم يلتزم السيد بالعهود التي قطع ، فأخذ يتردد في جنده على ضواحي المدينة ، ويعيث فيها ويرهق ابن جحاف بالمطالبات المالية التي لا يرتوي منها شرهه قط[3] .

ولم تقتصر معاناة ابن جحاف على السيد رغم فداحتهـا ، فقـد انضـافت إليهـا مشاكل داخلية إذ يبدو أن بعض الزعماء المحليين بدأوا يناوؤنه ويكيـدوا لـه وخصوصاً أبي عبد الرحمن بن طاهر. وقد نقل إلينا ابن بسام نص رسالة بعث بهـا ابـن طـاهر إلى فقيه من آل جحاف تظهر مدى توتر العلاقة بين ابن طاهر والقاضي جعفر بـن جحـاف ومن هذه الرسالة قوله: "وان ابن عمك – مد الله بسطته – لما ثار ثورته التي ظن أنه قد بلغ بها السماك ، وبذ معها الأفلاك ، نظر إلي متخازراً متشاوساً وتخيلـني محاسـداً أو منافساً ... فرماني بضروب محنته"[4] .

---

[1] محمد عنان: مرجع سابق ص ٢٤٢.

[2] ابن الخطيب: مصدر سابق ص ٢٠٤ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣٢.

[3] محمد عنان: مرجع سابق ص ٢٤٢.

[4] الذخيرة: ق٣ مج١ ص ٩٠ ؛ ومع ذلك فقد كانت بعض البيوت الكبرى في بلنسية تساند ابـن جحـاف في عمله ومن هؤلاء بني واجب وقد وصفهم ابن بشكوال بأنهم بيت فضل وجلالة ونباهـة ومـن أشـهر افـراده في ذلك الوقت محمد بن واجب (ت٥١٩) الذي تولى قضاء بلنسية "وكان محببا إلى أهل بلـده ، رفيعـاص فيهـم ، جامد اليد عن أموالهم" (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤٤ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣١).

لم يكتف السيد بأن يجوس بخيله ورجله خلال الديار بل طلب من ابن جحاف أن يأذن له في أن ينزل هو وبعض من جنده في الضاحية الشمالية الشرقية وأن ينزل باقي جنده في جنوبها الغربي. وكان يرمي من وراء ذلك إلى إحكام الطوق حول المدينة. ولم يكن في وسع ابن جحاف إلا القبول. لكن السيد عاد واشتط في مطالبه وطلب إلى ابن جحاف أن يسلمه كل موارد المدينة وأن يرسل إليه ابنه رهينة لضمان عدم تمرده وعدم طلب المساعدة من المرابطين[1] .

عندئذ أدرك ابن جحاف ، لكن متأخراً ، أن التعايش مع السيد مطلب لا يدرك ، وأن أمل الرئاسة في ظله وهم ذاق ذله قبله القادر بن ذي النون ، فرفض مطالب السيد. وقرر أن يخوض سبيل المقاومة من جديد فأغلق أبواب المدينة. وأحسن بفداحة إخراجه للمرابطين. فكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يطلب منه النجدة وكذلك من المستعين ابن هود وحتى من ألفونس ملك قشتالة. وكان جواب كل واحد من هذه الأطراف هو التسويف والوعود[2] .

واستصرخ ابن جحاف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وبسط عنده القول فيما نزل بهم على يد السيد الكمبيطور ، فاستجاب للنداء. وأمر قواده ورجاله بنجدة أهل بلنسية. فتلاحقت الجيوش المرابطية بشاطبة فاستبشر أهل بلنسية خيراً وإرتفعت معنوياتهم أملاً في الخلاص. ثم تحركت هذه القوات بقيادة أبي بكر بن إبراهيم صوب بلنسية[3] .

لكن هذا الجيش عاد أدراجه قبل بلوغ أسوار المدينة بسبب غزارة الأمطار وكثرة الوحل في الطرقات والمسالك[4] . وكان لإنسحاب المرابطين على هذا النحو عواقبه

---

(١) محمد عبد الله عنان: مرجع سابق ص ٢٤٢.

(٢) Dozy: Recherches sur l' Histoire de L'ANDALUS P.172.

(٣) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٢١٥.

(٤) حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص ٦١

ومعظم تفاصيل هذه الأحداث ينقلها د. حسين مؤنس ومحمد عنان من موسوعة التاريخ الأسبانية المسماة "المدونة العامة لتاريخ إسبانيا" الطبعة المنشورة عام ١٩٠٦ وهي بالأسبانية ولم تترجم PRIMERA GRONICA GENERAL, MADRID 1906.

الوخيمة على مصير بلنسية. إذ أصيب أهلها بخيبة أمل كبيرة حطمت كل معنوياتهم وفي نفس الوقت "قوي طمع رذريق في ملك بلنسية فلزمها ملازمة الغريم وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ، ينتسف أقواتها ويقتل حماتها ويسبق إليها كل أمنية ويطلع عليها من كل ثنية[1] . ففرض عليها حصاراً شديداً لم يدخر خلاله وسعاً في قطع الأقوات عن المدينة حتى لا يطول صمودها. وإستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهراً حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى وفتك بهم الجوع أيما فتك حتى "أكلوا الفيران والكلاب والجيف"[2] . واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء فقد أمر ابن جحاف بإقتحام الدور بحثاً عن القوت لتخفيف وطأة المجاعة. وغدوا كالأشباح هزالا[3] .

ولأن كان المرء قد يفهم موقف ابن هود ، صاحب سرقسطة ، المتخاذل وعدم إنجاده لأهل بلنسية رغم مكاتبة ابن جحاف له وترغيبه له في المال والبلد مع الأجر في إستنقاذ المسلمين من القتل ، فإن موقف المرابطين في عدم إنجاد بلنسية وترك أهلها يواجهون مصيرهم البائس المؤلم ، يثير الإستغراب. ونتيجة ذلك تحملت بلنسية أسوأ ما يمكن أن تتحمله مدينة من الحرمان والقهر ، ومع ذلك فقد صمدت إلى آخر رمق ولم يستطع السيد إقتحامها رغم تكرر هجماته التي كاد أن يؤخذ أسيراً في إحداها[4] .

وقد عول السيد في النهاية على إستسلام المدينة عن طريق الحصار المشدد. وأظهر السيد أثناء هذا الحصار من القسوة وتحجر القلب والبعد عن الرحمة مالم يسجل لقائد في تاريخ الحروب فقد كان يقتل كل من أسر من أهل بلنسية أو يفقأ عينيه أو يقطع يديه ، كما كان يحرقهم ويعلق جثثهم في "صوامع الأرباض وبواسق الأشجار"[5] فرضي الناس بالموت في المدينة فهلك منهم الكثير[6] .

---

[1] ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص ٩٧ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٣٣.

[2] ابن بسام: المصدر السابق ص ٩٧ ؛ ابن عذارى: المصدر السابق نفس الصفحة.

[3] ابن عذارى: المصدر السابق ص ١٤٧ ؛ حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٦٢.

[4] جوسي: الجغرافيا المصورة لأسبانيا والبرتغال ، نقلاً عن شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٣ ص٦٠.

[5] ابن عذارى: المصدر السابق ص ٣٣ ؛ حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٦٢.

[6] من مشاهير من توفي في هذا الحصار: الفقيه محمد بن عبيد الله بن عبد البر وكان فقيهاً حافظاً مفتياً ، وأبو القاسم خلف بن أحمد الصدفي وكان فقيهاً أديباً وقد توفي في ذي الحجة ٤٨٦هـ أي بعد عام وثلاثة أشهر من بدىء الحصار.

فلما بلغ "بأهل بلنسية الماء الزبى وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ولا نصر ولا غوث"[١] ، إجتمع الناس إلى الفقيه أبي الوليد الوقشي[٢] وطلبوا منه التوسط لدى ابن جحاف ليقبل التفاوض مع السيد. ويبدوا أن القاضي ابن جحاف كان مصمماً على الصمود حتى الموت بدلاً من التفاوض مع السيد. لكن أمام ضغط أعيان المدينة وعلى رأسهم الفقيه الوقشي قبل ابن جحاف مبدأ التفاوض وأوكل إليهم مهمة ذلك.

ذهب وفد من أعيان المدينة لمفاوضة السيد وتم الإتفاق بين الطرفين على تسليم المدينة إلى السيد بشروط أهمها أن يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم وأن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها وأن يؤمن في نفسه وماله وأهله ، وأن يتولى مندوب "السيد" الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين. وأن يرابط السيد بجيشه في الضواحي وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها[٣] . وفي صباح يوم الخميس ٢٨ جمادي الأولى سنة ٤٨٨هـ[٤] خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المدينة ووقعوا عهداً بتسليمها على الشروط السابقة الذكر وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر.

---

[١] ابن عذارى: المصدر السابق ص ٣٤.

[٢] أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الكناني (ت٤٨٩هـ) يعرف بالوقشي: قال عنه ابن بشكوال: "أحد رجال الكمال في وقته بإحتوائه على فنون المعارف وجمعه لكليات العلوم وكان عمره عندما حاصر السيد بلنسية قد تجاوز السبعين إذ أن مولده كان سنة ٤٠٨هـ ويذكر حسين مؤنس نقلاً عن "المدونة العامة الأولى" لتاريخ اسبانيا أن الوقشي كان غير راض عن سلوك ابن جحاف وأنه لذلك سعى إلى الإتصال برذريق. وقد اكتفى ابن بشكوال في ختام ترجمته له بالقول : وقد نسبت إليه أشياء الله أعلم بحقيقتها وسائله عنها ومجازيه بها" (الصلة ج٢ ص ٦١٧ – ٦١٨).

[٣] محمد عبد الله عنان: مرجع سابق ص ٢٤٤.

[٤] تختلف الروايات الإسلامية في تاريخ دخول "السيد" بلنسية فيقول ابن بسام وهو معاصر للحادث أنه وقع في سنة ٤٨٨هـ (الذخيرة ق٣ ج١ ص ٩٨) ويوافقه ابن عذارى على ذلك (البيان المغرب ج٤ ص ١٤٨) في حين يذكر ابن الأبار أنها كانت في سنة ٤٨٧هـ (الحلة السيراء ج٢ ص ١٢٥) وكذلك ابن الخطيب (أعمال الأعلام ص ٢٠٤) وقد اعتمدنا رواية ابن بسام لأنه أقرب هؤلاء المؤرخين للحدث.

دخل "السيد" وجنده بلنسية ، فاحتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة ونزل السيد بالقصر. واحتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها. وتسلم السيد من ابن الجحاف أموال القادر وذخائره وأبقاه في منصبه قاضياً للمدينة ولكن إلى حين. فقد كان ما بين الرجلين من الأحقاد أعظم من أن تمحوه الإتفاقيات فالسيد لم يغفر لإبن جحاف "شدة صبره على تلك الأزمة ، وإجتهاده في طلب النصرة ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاء في إستمساك البلدة وإبقاء الكلمة"[١] .

"فبقي معه مديدة يضجر من صحبته ويلتمس السبيل إلى نكبته"[٢] . ولم تعوز السيد الحيلة[٣] فقد ادعى أنه عثر على بعض ذخائر ابن ذي النون عند القاضي ابن جحاف وأن من شروط التسليم أن تؤدى تلك الذخائر كاملة إلى السيد. فاعتقله وسائر أفراد أسرته وصادر جميع ممتلكاتهم وعذبهم عذاباً شديداً ثم أمر بإعدام ابن جحاف حرقاً فأقيمت له وقدة كبيرة في ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة. يقول ابن بسام بعد أن ذكر واقعة إحراق ابن جحاف " أخبرني من رآه في ذلك المقام ، وقد حفر له حفير إلى رفغيه وأضرمت النار حواليه ، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه ليكون أسرع لذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله في صحيفة حسناته ومحا عنه بها سالف سيئاته...وهم الطاغية يومئذ – لعنه الله – بتحريق زوجه وبناته ،فكلمه فيهن بعض طغاته ، فبعد لأي ما لفته عن رأيه وتخلصهن من يدي نكرائه"[٤]. وأمر "السيد" بإحراق جماعة من أعلام بلنسية منهم أبو جعفر البتي[٥] الشاعر المشهور.وطال إنتقام "السيد"

---

[١] ابن عذارى: البيان المغرب ج٣ ص ٣٨ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٤.

[٢] ابن بسام: الذخيرة ق٣ ج١ ص ٩٨.

[٣] لقد ادعى بعض الكتاب الأسبان أن ابن جحاف كان يدبر أمر الثورة على السيد ونقض العهود التي بينهما وبالتالي استحق القتل (شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٣ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، ص ٦٣).

[٤] الذخيرة: ق٣ ج١ ص ٩٩ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٤.

[٥] احمد بن عبد المولى بن أحمد البتي أبو جعفر (ت٤٨٨هـ): كان كاتباً ، شاعراً بليغاً مطبوعاً كثير التصرف ، قائماً على الآداب وكتب النحو واللغة والشعر (ابن الأبار: التكملة ج١ تحقيق إبراهيم الإبياري ط١ ١٤١٠هـ دار الكتاب المصري القاهرة ص ٤٣ ، ابن سعيد: المغرب ج٢ ص ٣٥٨).

كل من يشار إليه من أهل بلنسية فثقفهم وأغرمهم حتى إستأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في المحنة سواء[١] وقد توفي في هذا الثقاف عدد منهم.

وفي هذه المحنة يقول ابن خفاجة البلنسي:

عاثت بساحتك العدا يـــادار	ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابــك ناظـر	طال إعتبار فيك وإستعبـار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمحصـت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	لا أنت أنت ولا الديار ديـار[٢]

أثار سقوط بلنسية بيد "السيد" وإحراق القاضي ابن جحـاف موجـة عارمـة من السخط في صفوف المسلمين بالأندلس وقد عبر عن ذلك ابن بسام ، الـذي كـان معاصر للأحداث ، بقوله " وأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيـرة نـاراً وجلـل سائر طبقاتها خزياً وعاراً"[٣] . وكان لحرق ابن جحاف أثر كبير على الأوضاع في بلنسـية فقد نبه المرابطين إلى ضرورة إستنقاذ بلنسية قبل أن تخرب تماماً وقـد صدق بيدال ، وهـو كما أسلفنا مؤرخ حياة السيد ، في قوله "إن ابن جحاف إستطاع بعد موته أن يكون أشد ضرراً على السيد مما كان في حياته ، فإنه أصبح بذلك شهيداً تؤجج روحه حوافز الثورة في المسلمين حوله"[٤] . والواقـع أن تـأثر النـاس كـان عظيمـاً وتحـول ابـن جحـاف إلى "شهيد" مات على يد طاغية نصراني ، حتى ابن طاهر نفسه ، الـذي ذكرنـا مـن قبـل شكاته من تسلط ابن جحاف شعر بالألم لمصابه وكتب إلى ابن عم له يعزيه فيه ويطنـب في مدحه ويستنزل الرحمات عليه[٥] .

كانت تلك هي النهاية المفجعة لهذا العالم القاضي الـذي أراد أن يقيـم دولـة في بلنسية ففشل في ذلك. ولعلنا نتساءل لماذا فشل هذا القاضي فيما نجح فيه آخرون؟ إن

---

[١] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٠٤.

[٢] ديوان ابن خفاجة ص ٣٥٤.

[٣] الذخيرة ق٣ مج١ ص ٩٩.

[٤] حسين مؤنس: السيد القمبيطور ص ٧٥.

[٥] ابن بسام: الذخيرة ق٣ مج١ ص ١٠٢ – ١٠٣.

تتبع أعمال ابن جحاف خلال مدة حكمه القصير تكشف لنا عـن أبـرز أسـباب فشـله: أولها: الجهل بواقع الأمور في بلنسية ومدى قوة كل طـرف مـن أطـراف الصـراع فيهـا. ثانيها: وهو نتاج الأول عدم الثبات على الأمر فابن جحاف يحالف المرابطين اليـوم ثـم يطردهم في الغد ويناوىء السيد ثم يهادنه. ثالثها: عدم تقديره لخطورة ما أقدم عليه مما أدى به إلى عدم إتخاذ الأسباب الكفيلة بنجاحه ومـن أهمهـا "إستجلاب الرجـال" أي تكوين جيش قادر على حماية هـذا الكيـان الناشـيء وإنفـاق المـال في سـبيل ذلـك بـدل الإنشغال في تكديس الثروة. رابعها: قصـر النظـر في سياسـاته والـذي تمثـل في إنشـغاله بالتمتع بمزايا الرئاسة عن تدبير الأمـور الـتي تكفـل بقاءهـا وإسـتمرارها. كمـا تمثـل في التعجل بتصفيـة الحسـابات مـع الخصـوم ممـا أدى إلى فتـح جبهـة داخليـة. فتشـتت الجهد. ونختم هذا براي ابن بسام في ابن جحاف فهو يرى أن أسـباب فشـله تعـود إلى أنه "دفع إلىالنظر في أمور سلطانية لم يتقـدم في غوامـض حقائقهـا وإلى ركـوب أسـاليب سياسية لم يكن له عهد بإقتحام مضايقها ، ولا بالدخول في ضنـك مآزقهـا ولم يعلـم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم ، وأن عقد ألوية البنـود ، غـير الـترجيح بـين العقـود وإنتحال الشهود"[١] .

إن الظروف الإستثنائية التي كانت تعيشها منطقة شرق الأندلس عامـة وبلنسـية خاصة كانت تجعل مهمة أي طامح على الأقل صعبة إن لم تكن مستحيلة.

٢- **أبو جعفر حمدين بن حمدين: حاكم قرطبة.**

إحتفظت قرطبـة في بدايـة عصـر المرابطين بمكانـة سـامية بـين مـدن الأندلـس وقواعدها الهامة. ففيها دعا يوسف بن تاشفين شيوخ لمتونة وأمرائهـا وفقهـاء المرابطـين وقادتهم لعقد البيعة لإبنه علي وذلك سنة ٤٩٦هـ[٢] . وأصبحت قرطبة منذ ذلك الحـين مركز الثقل لدولة المرابطين في الاندلـس، وكـانت في أغلـب الأوقـات مقـراً لنـائب أمـير المسلمين في الأندلس.

---

[١] الذخيرة: ق٣ مج١ ص ٩٧.

[٢] ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٤٣ ؛ الحلل الموشية: ص ٧٨.

وكانت لقرطبه مكانة كبرى في نفوس الاندلسيين لماضيها المجيد كعاصمة للخلافة الاموية ولما تضم من بيوتات العلم واعلام المعرفة. ومن هذه البيوتات العلميه المشهورة بيت آل حمدين التغلبيين وهو من اقدم البيوتات العربية في الاندلس وقد اشتهرت هذه الاسرة بأنها "بيتة علم ودين وفضل وجلالة"[١] .وقد تولى عدد من أفرادها القضاء فقد كان محمد بن علي بن حمدين (ت٥٠٨هـ) وهو والد أبي جعفر ، قاضي الجماعة بقرطبة من سنة ٤٩٠ إلى ٥٠٨هـ. قال عنه ابن بشكوال " كان من أهل التفنن في العلوم"[٢] وقال عنه تلميذه القاضي عياض: "أحد رجال الأندلس وزعيمها في وقته جلالة ووجاهة"[٣] . وهو الذي أفتى أمير المسلمين علي بن يوسف بضرورة مصادرة كتاب الإحياء للإمام الغزالي وحرق نسخه لما فيه من "منكرات". وممن تولى القضاء أيضاً أحمد بن محمد وهو أخو أبي جعفر ، وقد تولى قضاء الجماعة بقرطبة "وكان نافذاً في أحكامه جزلاً في أفعاله وقد توفي سنة ٥٢١هـ وهو يتولى القضاء"[٤] .

أما أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين فقد ولي القضاء بقرطية في شعبان سنة ٥٢٩هـ على إثر مقتل قاضيها أبي عبد الله بن الحاج في تلك السنة[٥] . ولكن مدة قضائه لم تطل فقد عزل سنة ٥٣٢هـ نتيجة إختلافه مع حكام المرابطين في قرطبة. وربما كان السبب الأساسي لعزله هو ما بدأ يظهره من تنفذ في قرطبة مستغلاً في ذلك ما كان له من ثقل إجتماعي كبير. وقد عين مكانه القاضي أبو القاسم ابن رشد وهو ابن زعيم فقهاء قرطبة في أوانه وقاضي جماعتها أبو الوليد بن رشد. ويبدو أن هذا التعيين لم يرق لأبي جعفر فقد كان يراه تدعيماً وخلقاً لمنافس له في زعامة قرطبة.

---

[١] ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٨١.

[٢] ابن بشكوال: المصدر السابق ج٢ ص ٥٣٩.

[٣] عياض: الغنية ص ١١٦.

[٤] النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٣.

[٥] النباهي: المصدر السابق ١٠٢ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٩٣.

لهذا قد لا يستبعد أن يكون ابن حمدين قد شارك بطريقة أو بأخرى على تثوير العامة ضد قاضيهم ابن رشد سنة ٥٣٤هـ[١] .

ويحملنا على هذا الإعتقاد أن المصادر لم تذكر سبباً لهذه الثورة سوى ما ذكره ابن الخطيب من أن ذلك كان "لضعف قاضيها إذ ذاك أحمد بن رشد"[٢] . فهل كان هذا الضعف هو خضوع القاضي ابن رشد لأوامر ونواهي والي المرابطين في قرطبة في حين كان ابن حمدين مناكفاً له؟ ربما كان ذلك وبالإضافة إلى هذا الدور الخفي بادر ابن حمدين عندما اندلعت الثورة إلى التدخل واسكت ثائرة الأهالي[٣] فظهر بمظهر الزعيم المسموع الكلمة الساعي إلى إستتباب الأمن وإقرار النظام.

أدرك القاضي ابن رشد أن بقاءه في منصب القضاء لم يعد ممكناً مع وجود ابن حمدين فاستعفى من منصبه فأعفي. ويبدو أن المرابطين رأوا في هذه الثورة محاولة من أهل قرطبة لإرغامهم على تعيين ابن حمدين ، فامتنعوا عن تعيين قاض لقرطبة لمدة عام كامل تأديباً لأهلها وسخطاً من الأمير عليهم ، ثم أذن لهم بإختيار قاض لهم فأجمعوا على إختيار ابن حمدين. ويبدوا أن أبا عمر اللمتوني والي قرطبة لم يكن راضياً عن هذا الإختيار لأن شخصية ابن حمدين أصبحت تمثل وزناً يضاهي وزن الوالي تشعر بأنه يحمل في نفسه طموحات قد تكون خطيرة ، لكنه مع ذلك قبل إختيار أهل قرطبة فعينه قاضياً سنة ٥٣٦هـ[٤] .

وفي هذا الوقت كانت الدولة المرابطية تمر في المغرب بأوقات عصيبة إذ توالت عليها الهزائم أمام الموحدين. وكانت أنباء هذه الهزائم تصل الأندلس فيتحرج موقف المرابطين هناك وتضعف هيبتهم في النفوس ويشعر الناس أن أمرهم أصبح إلى زوال.

وفي ظل هذا الواقع بدأ بعض الطامحين إلى المجد في التفكير في كيفية ملىء الفراغ الذي سيحدثه سقوط دولة المرابطين. وكان تفكير البعض منهم ينصب على كيفية

---

[١] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٢.

[٢] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٢.

[٣] نفس المصدر السابق والصفحة.

[٤] النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٣ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

المحافظة على المجد الذي كسبوه في عهد المرابطين. وبدأت نزعة التشرذم المتأصلة في النفوس تحيا.

- ثورة ابن حمـــدين:

جاءت أولى شرارات الثورة على المرابطين إثر قيام جماعات "المريدين"[١] في غرب الأندلس قياماً عاماً تزعمه أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي وإستعان في إجتذاب الناس إلى دعوته بإدعاء الهداية "مخرقة وتمويهاً على العامة"[٢] وذلك في صفر ٥٣٩هـ[٣] . وقد أحدثت هذه الثورة بالإضافة إلى الوضع في المغرب أثرها في نفوس أهل قرطبة الذين بدأت بذور الثورة تختمر من جديد في أذهانهم ، وهم شعب معروف بسرعة تقلبه وهياجه.

ووجد أهل قرطبة الفرصة المواتية عندما خرج الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية حاكم المرابطين العام بالأندلس والمقيم في قرطبة ؛ خرج إلى أشبيلية لمواجهة خطر "المريدين" وقد خلف على قرطبة أبا عمر اللمتوني،فثار أهل قرطبة به وأعلنوا خلع الدعوة المرابطية. ونادوا برئاسة القاضي أبي جعفر بن حمدين.[٤] بويع ابن حمدين بالإمارة في المسجد الجامع فبايعه الخاصة والعامة وذلك في الخامس من رمضان سنة ٥٣٩هـ[٥].

---

[١] المريدين: جماعة صوفية التفت حول ابن قسي وكانوا ينتشرون بمنطقة شلب وميرتلة ولبلة وغيرها من أعمال غرب الأندلس ، وكانوا يجتمعون فيتدارسون كتب الصوفية وخصوصاً كتب الغزالي ورسائل إخوان الصفا. ولما ادعى ابن قسي أنه المهدي والإمام بايعه هؤلاء الأتباع فدعاهم إلى الثورة على المرابطين فاستجابوا لذلك واتخذوا "التهليل والتكبير" شعاراً لهم ولم تدم ثورة المريدين أكثر من سنة ونصف ٥٣٩ - ٥٤٠هـ (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ١٩٧ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٤٨ ؛ عبد القادر زمامة: حركة ابن قسي ، مجلة البينة السنة الأولة ١٩٦٢ العدد الثامن ص ٧١ - ٧٧).

[٢] ابن الأبار: الحلة ج٢ ص ١٩٧ ؛ ويقول عنه عبد الواحد المراكشي: "وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورؤوس ضلالات فاستفزوا عقول الجهال من جملتهم رجل إسمه أحمد بن قسي كان صاحب حيل ورب شعبذة" (المعجب ص ٣٠٩).

[٣] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٤٨.

[٤] ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٢٥٣.

[٥] ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٢٥٣ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٣.

واستقر ابن حمدين بقصر الخلافة وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين ، ووفقاً لقول ابن الأبار بأمير المسلمين المنصور با لله[١]. فبرز الأمر الـذي كـان "يجيـش في صـدره"[٢] كمـا يقول ابن الخطيب. ودعي له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية.

وكان ابن غانية قد سار عندئذ إلى لبلة[٣] ليجهز علـى المريديـن الذيـن تحصنـوا بها ، فلما علم بما وقع في قرطبة عاد أدراجه إلى اشـبيلية. ولكنـه مـا كـاد يسـتقر بهـا حتى ثار به أهلها وناصبوه العداء وجرح أثناء القتال الـذي نشـب بينـه وبينهـم. فـارتد عندئذ في قواته إلى حصن مرجانة[٤] .

لم يكن القاضي ابن حمدين الطامح الوحيد إلى الإستئثار بقرطبة والتأمر فيها فقد ظهر في الميدان طامع آخر هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة ، وكنا قد ذكرنا في القصل الماضي جزءاً من نشاطه ومحاولاته لتكوين إمارة ، كما ذكرنا أنه كان أحد أتباع ملك قشتالة. ويبدو أن هذا الأخير أمره بالدخول إلى ميدان الصراع في الأندلس لإثارة أهلها على المرابطين.

وقد نجح ابن هود في مداخلة جملة من أهل قرطبـة فاسـتدعوه إلى مدينتهـم. وفي نفس الوقت كان بعض آخر من أهل قرطبة يتزعمه أبـــو الحسن بن عتيق[٥] يستدعي

---

[١] ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٣٨ ؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا): ص ١٠٣.

[٢] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٢.

[٣] لبلة: مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طريانة قريباً من اشبيلية (الحميري: الروض المعطار ص ٥٠٧).

[٤] ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٣٤٥.

[٥] ابو الحسن بن عتيق بن مؤمن: ابن الصوفي الكبير أبي بكر بن عتيق صديق ابن العريف وقد تتلمذ أبو الحسن على عدد من شيوخ المريدين وكان "محدثـاً راويـة ، حـاضر الذكـر لـلأداب والتواريـخ مـاهراً في علـم الكـلام والطب" على حد تعبير ابن عبد الملك (الذيل والتكملة السفره القسم ١ ص ٢٥٦).

المريدين وبالفعل سار جيش من المريدين بقيادة ابن المنذر[١] للإستيلاء على قرطبة[٢] . لكن ابن هود ، وعلى رأس جيش يتكون في معظمه من قوة من النصارى أمده بها ملك قشتالة ، تمكن من دخول قرطبة قبل قوات ابن قسي التي ارتدت خائبة إلى الغرب[٣] . بادر ابن حمدين بالفرار إلى حصن فرنجولش المنيع الواقع شمال غربي قرطبة وبقي فيه يترقب الأحداث بينما نودي بسيف الدولة أميراً على قرطبة بإسم المستنصر با لله[٤] .

بيد أن هذه الإمارة لم تطل مدتها إذ سرعان ما تغير عليه القرطبيون كما هي عادتهم ، ذلك أن ابن هود لم يمض غير أيام قلائل لم تتجاوز الإثنى عشر حتى ثار أهل قرطبة به وهاجموا القصر وقتلوا ابن شماخ وزير سيف الدولة وعدة من أصحابه ، ففر سيف الدولة ناجياً بنفسه. واتجه إلى جيان فانتزعها من القاضي ابن عبد الرحمن ان جزي[٦] .

ولاشك أن ابن حمدين لم يكن بعيداً من هذه الثورة التي أطاحت بابن هود ،

---

[١] محمد بن عمر بن المنذر (توفى ٥٤٨): أحد أعيان شلب ونبهائها من بيت قديم من المولدين وكان عالماً ، أديباً ، شاعراً. ولي خطة الشورى ببلده ثم تزهد واعتزل الناس. ثم صاحب ابن قسي وانضم إليه لما أعلن هذا ثورته وقاد عدداً من حملات المريدين. ولما حصلت المنافرة بين ابن قسي وسيد راى بن وزير زعيم يابرة وهو أحد القادة الذين انضافوا إلى ثورة المريدين ، طلب ابن قسي من ابن المنذر محاربة ابن وزير إلا أن هذا الأخير تمكن من هزيمة ابن المنذر واعتقله وسمل عينيه. وظل في السجن إلى أن استنقذه الموحدون منه فرجع إلى سلب ، حيث ثار على ابن قسي وكان إذ ذاك فيها ، وتمكن من قتله في جمادي الأولى ٥٤٦هـ ، ونصب أهل شلب ابن المنذر والياً عليهم ، قائماً بالدعوة للموحدين ، ولكن سيد راي بن وزير ، خصمه القديم إنتزعها منه. وهاجر ابن المنذر إلى سلا حيث توفى (ابن الأبار: الحلةالسيراء ج٢ ص ٢٠٢ - ٢١١)

[٢] ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢٠٦ ؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٢١٠.

[٣] ابن الأبار: نفس المصدر السابق والصفحة.

[٤] ابن الأبار: نفس المصدر ص ٢١٢ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

[٦] القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي (ت٥٨٩هـ): ثار في جيان وأنشأ بها حكومة إقتداء بزملائه القضاة في قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها. إلا أن رئاسته لم تطل فقد استطاع ابن هود التغلب على جيان في أواخر سنة ٥٣٩هـ (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٩).

فأنصار ابن حمدين وخصوصاً من الفقهاء[١] مازالوا أغلبية في قرطبة. وماكاد ابن هود يغادر قرطبة حتى عاد إليها ابن حمدين من حصن فرنجولس واستأنف رياسته[٢] .

بدأ ابن حمدين في التخطيط لتكوين دولته الجديدة فدون الدواوين ، وجند الأجناد ورسم الخطط ، ثم بدأ يعمل على توسيع نطاق دولته فكاتب القضاة في مدن الأندلس المختلفة يدعوهم فيها إلى خلع بيعة المرابطين في مدنهم والإنضواء تحت قيادته وإعلان التبعية له وقد إستجاب لندائه عدد من زملائه الثوار. فقد ثارت مرسية على المرابطين وأسند أهلها أمرها لأبي محمد بن الحاج اللورقي الذي دعا لإبن حمدين ثم استعفى فقدم أهل مرسية القاضي أبا جعفر بن أبي جعفر الذي استمر على سياسة سلفه "فجنح أول أمره إلى ابن حمدين وخاطبه مشايعاً ومتابعاً ومصوباً رأيه فيما أتاه"[٣] . وقد قدمه ابن حمدين على خطة القضاء وجه إليه أحد قواده وهو أبا محمد بن فرج الثغري[٤] . ثارت غرناطة أيضاً على المرابطين وقاد ثورتها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحي الذي أعلن تبعيته لإبن حمدين فأرسل إليه هذا بعض قواته بقيادة ابن أخيه علي بن أبي القاسم المعروف بابن أم العماد وذلك لمساعدته في حرب المرابطين المحاصرين له في غرناطة[٥] .

---

(١) من هؤلاء الفقهاء أحمد بن الحصين بن عطاف العقيلي قال عنه ابن عبد الملك المراكشي: "كان شيخاً حسن الخلقة والخلق وقور المجلس كثير البر كبير الجاه ، حريصاً على إفادة العلم مكرماً لطلبته ، شوور بغرناطة ثم بقرطبة. فلما كانت الفتنة التي أثارها أبو جعفر بن حمدين داخله في بعض أموره وتصرف معه تصرفاً أنكره بعض الناس عليه وا لله أعلم بنيته" (الذيل والتكملة السفر١ ص ٩٩).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

(٣) ابن الأبار: المعجم ص ٢٣٩.

(٤) أبو محمد عبد ا لله بن فرج الثغري (ت٥٤١هـ): أحد رجال فترة الإضطراب في الأندلس من سنة ٥٣٩ – ٥٤١هـ كان قائداً بكونكة فلما قام ابن حمدين بثورته في قرطبة إنضم إليه فلما وصلت ابن حمدين مخاطبة أهل مرسية أرسله إليهم ممثلاً له فيها وقد تقلبت به الأحوال بين الأسر والفرار والحكم في مرسية إلى أن قتله ابن عياض في رجب ٥٤١هـ عند إحتلاله لمرسية التي كان الثغري قد انتزعها منه في ذي الحجة ٥٤٠هـ (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢١٧ – ٢١٨).

(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص٢١٢ ؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٢١٠.

وممن إستجاب لدعوة ابن حمدين وأنضاف إليه أخيل بن إدريس في رندة[١] وأبو الغمر بن السائب بن عزون في شريش[٢] وأركش[٣] .

كانت تبعية هذه المدن لسلطان ابن حمدين لا تدوم في بعض الأحيان أكثر من أيام ثم تغير ولاءاتها. فقد سادت الفوضى والإنقلابات المتوالية وأضحى كل واحد يبحث عن الرئاسة والغنم لنفسه. وقد حاول ابن حمدين أن يجعل لنفسه حلفاء وأنصاراً في معظم المدن الأندلسية وكان يمدهم بالقوة إن استلزم. غير أن الحظ لم يكن حليفه في أكثر تلك المحاولات.

أما في داخل قرطبة فيبدو أن الوضع لم يصف تماماً لإبن حمدين فقد ظل فيها خصوم له لم يعجبهم حكمه. وتاق هؤلاء إلى التخلص من هذا الحاكم ، فكتبوا إلى يحيى بن غانية في القدوم عليهم وإستعادة سلطانه على المدينة[٤] . كان ابن غانية يراقب الوضع عن كثب ويرصد كل التغيرات في موازين القوى. فقرر الإستجابة لهذا النداء فسار في قواته من نواحي اشبيلية إلى قرطبة في جمادي الآخرة ٥٤٠هـ. وتهيأ ابن حمدين للقاء ابن غانية فبرز إليه في قواته ، مما يدل على أن ابن حمدين كان واثقاً من قوته وقدرته على هزيمة المرابطين. التقى الطرفان بأحواز استجة في جنوب غربي قرطبة ودارت بينهما معركة إنتهت بهزيمة ابن حمدين. وفتحت هذه المعركة الطريق أمام ابن غانية لدخول قرطبة ، فاتبع ابن حمدين وتمكن من دخول قرطبة في ١٢ من شعبان ٥٤٠هـ[٥]

---

[١] رندة: بضم أوله وسكون ثانيه معقل حصين بالأندلس من أعمال اشبيلية وهي مدينة قديمة. وتقع بين أشبيلية ومالقة (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص ٧٣ ؛ الحميري: الروض المعطار ص ٢٦٩).

[٢] شريش: كورة من أعمال اشبيلية كثيرة العمارة والأرزاق (ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج١ ص ٣٠٢ ؛ الحميري: الروض المعطار ص ٣٤٠).

[٣] أركش: معقل من معاقل الأندلس الحصينة من أعمال اشبيلية (ابن سعيد: المغرب ج١ ص ٣١٥).

[٤] ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

[٥] ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٣٤٥.

، وفر ابن حمدين إلى بطليوس ملتجأً إلى حماية صاحبها عبد الله بن الصميل[١] .

لم يستسلم ابن حمدين لهذه الهزيمة بل بدأ يخطط للعودة إلى قرطبة فسار إلى حصن أندوجر الواقع شرقي قرطبة وتحصن به. وبدأ يبسط سلطانه على البلاد المجاورة فنهض ابن غانية إلى قتاله. وحاصره في أندوجر مدى شهر[٢] . وهنا لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة الذميمة القديمة ، التي كانت عماد الطوائف في محاربة بعضهم بعضاً ، وهي الإستنصار بالنصارى فاستنصر بعاهل قشتالة القيصر ألفونس ريمونديس. ووعد ابن حمدين طاغية الروم " بما أطمعه" وهو تمليك قرطبة للقيصر الذي استجاب للدعوة وتحرك إلى نصرته[٣] . ولما وصل القيصر إلى أندوجر تبين ابن غانية عدم قدرته على مدافعته فانصرف في قواته إلى قرطبة. ولكن ابن حمدين ومعه القوات النصرانية ساروا في إثره ودخلوا قرطبة في ١٠ من ذي الحجة ٥٤٠هـ. وامتنع ابن غانية في بالقصر يدافع النصارى بشجاعة وعزم وصبر. وعاث القشتاليون في شرقي قرطبة ، واستباحوا المسجد الجامع وأخذوا ماكان فيه من النواقيس التي كانت رؤوساً للثريات ومزقوا المصاحف ومنها مصحف عثمان بن عفان ونزعوا المنار من الصومعة ، وكان من الفضة الخالصة وأحرقوا الأسواق. كل ذلك وابن غانية صامد يدفع النصارى عن القصبة بمنتهى الشدة والبسالة[٤] .

وحدث في تلك الفترة أن جاءت الأخبار بأن الموحدين قد عبروا البحر إلى الأندلس وأن أهل اشبيلية خلعوا طاعة المرابطين ونادوا بدعوة الموحدين ، أزعجت هذه الأخبار القيصر وجعلته يراجع حساباته في ظل هذا العامل الجديد وكان أول إستنتاجاته

---

[١] عبد الله بن علي بن الصميل: أحد قواد المريدين ولا تذكر المصادر عنه سوى أنه والي بطليوس لإبن أخته سيد راي بن وزير القيسي زعيم أهل يابرة وأحد المؤيدين الرئيسيين لإبن قسي ثم المناهضين له. وقد كان لسيد راي هذا دور ناشط في تاريخ غرب الأندلس في الفترة ما بين ٥٣٩ - ٥٤٨هـ. وقد تحالف مع الموحدين ونال لديهم حظوة كبيرة (ابن الأبار: الحلة السيراء ج٢ ص ٢٠٣ - ٢١١ ؛ ٢٤٧ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٠).

[٢] ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٣٤٥ ؛ أعمال الأعلام ص ٢٥٣.

[٣] يذكر أشباخ أن القيصر اكتفى بإرسال بعض قواته بقيادة فرديناند دي ليمان (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٢٢١).

[٤] ابن الخطيب: الإحاطة ج٤ ص ٣٤٦.

أنه من الضروري الآن "أن يستبقي ابن غانية ويهادنه ، وينصبه سداً في وجه القوم"[١] . فتم التفاهم بين القيصر وابن غانية وتم الإتفاق على جملة من المال وبعضاً من البلاد يتنازل عنها ابن غانية لصالح القيصر بالإضافة إلى الطاعة وأداء الجزية السنوية ، مقابل تركه على قرطبة[٢] .

أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى وسار إلى حصن فرنجولش ولبث فيه فترة قصيرة. ويبدو أن شهوة السلطة لم تهدأ عنده رغم كل هذه النكسات ، فصار يشيم كل برق حتى ولو كان خلباً ، فعبر البحر إلى المغرب لعله يجد معيناً أو سنداً يحقق له حلمه ، وسار إلى مقابلة الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي. فاجتمع به في أوائل سنة ٥٤١هـ. وقد وفد مع ابن حمدين بعض من زعماء الثورة في الأندلس مثل أبو الغمر بن عزون زعيم شرش وابن قسي زعيم ثورة المريدين في الغرب الأندلسي[٣] . وكان يجمع بين هؤلاء هم مشترك واحد هو إستنهاض همة عبد المؤمن للتدخل في الشأن الأندلسي[٤] وإنجاد زعمائها الثائرين على المرابطين وهم العدو المشترك للطرفين.

إستقبل الخليفة عبد المؤمن القاضي ابن حمدين بحفاوة ولكن هذه الحفاوة لم تثمر عملاً ملموساً مما كان يتوق إليه "فاستعجل الرجوع من عنده". واستقر ابن حمدين هذه المرة بمالقة في كنف زميله وحليفه القاضي أبي الحكم بن حسون الثائر بها.

لم ييأس ابن حمدين من إسترداد ملكه ، فبدأ يخطط لمحاولة جديدة ربما تكون بالتنسيق مع القشتاليين. وفشلت هذه المحاولة الجديدة فارتد إلى مالقة حيث توفي في رجب سنة ٥٤٦هـ[٥] .

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٤.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٤ ؛ الإحاطة ج٤ ص ٣٤٦.

(٣) أبن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٥٤ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٢ ؛ ابن عذارى: البيان المغرب ، قسم الموحدين ص ٢٧.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٤.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٤ ؛ في حين يذكر النباهي أنه توفي سنة ٥٤٧ (المرقبة العليا ص١٠٤) وقد ذكرا أن الموحدين لما احتلوا مالقة نبشوا لحده وصلبوه في اثنى عشر رجلاً من أصحابه. غير أن هذين المؤرخين لم يبينا السبب الذي دفع الموحدين إلى هذا العمل الشنيع.

لقد استقصينا في الصفحات الماضية ، قدر المستطاع ، حياة عالمين عاش أحدهما في فترة شباب الدولة المرابطية في حين عاش الآخر في أواخر أيامها. وتوصلنا من متابعة أعمالهم إلى نتيجة قد تبدو غريبة وهي أن هذين العالمين كانا يمارسان الشأن العام من حكم وما يستتبعه ، بمعزل تام عن علمها إذ لا يظهر لهذا العلم أي أثر في سلوكهما ولا في تعاطيهما مع المشاكل اليومية. فهما شأنهما في ذلك شأن كل منتز طامح إلى لعاعة من الدنيا. يمارسان الخداع والغدر ويستحلان سفك الدماء وإغتصاب الأموال ويتحالفان مع أعداء الدين على أهل الملة ، ويدفعان الجزية للنصارى مقابل البقاء في سدة الحكم ولو ليوم ، ثم هما يجران على المسلمين في بلديهما الكثير من الشرور نتيجة تشبثهما بهواهما. فهل نستنتج من هذين المثالين أن العلماء ، كما قال ابن خلدون أبعد الناس من السياسة؟ إننا لا نرى ذلك صحيحاً على إطلاقه. ويكفي لتقييده أن نذكر فقط بالإمام عبد الله بن ياسين الذي مارس السياسة الشرعية التي تسعى إلى جلب المصالح ودرأ المفاسد. فهذين العالمين فشلا لأنهما لم يطبقا علمهما في عملهما فلم يرفعهما الله به عن حمأة الأهواء. إلا أننا نخرج من دراستنا لهذين العالمين بنتيجة أخرى مهمة وهي أن العالم لكي يحكم يجب أن يملك موهبة خاصة زائدة على العلم وهي "الملكة السياسية" وهي ميزان عقلي دقيق يزن به العالم المصالح والمفاسد ويرتب به الأولويات بينهما غير أن تلك المصالح والمفاسد نفسها لا يمكن أن تعرف إلا بالعلم.

الفصل الرابع

أثر العلماء في الدعوة والجهاد

أولاً : أثر العلماء في الدعوة:

لقد ارتبطت الدعوة إلى الله منذ بزوغ فجر الإسلام بالعلم والعلماء ، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١]

وقد إستشعر عدد من العلماء في العهد المرابطي ، إبتداءاً بالإمام عبد الله بن ياسين ، ضرورة الدعوة وإنذار قومهم ومن جاورهم وإبلاغهم الدين القويم.

ولن نعيد هنا جهود الإمام عبد الله بن ياسين في هذا المجال إذ أننا بسطنا القول فيها في الفصل الأول من الباب الأول ورأينا هنالك كيف أدت تلك الجهود إلى قيام دولة المرابطين التي كان الهدف الأساسي من قيامها هو نشر الإسلام ودعوة الناس إليه.

وقد تتبعنا في الفصول الماضية مسيرة الدولة المرابطية في المغرب الأقصى والأندلس وجهود العلماء في الحفاظ على الإسلام من الزيف والتغيير وصد عدوان أعداء الدين من مسيحيين.

وسنتعرض هنا للجهود التي قام بها العلماء في الدعوة في الشق الجنوبي من الدولة المرابطية وأثر ذلك على المنطقة.

وقبل أن نتحدث عن تلك الجهود لابد أن نشير إلى شح المعلومات عن هذا الجزء الجنوبي من الدولة المرابطية ، إذ تكاد المعلومات عنه لهذا العهد تنحصر في سطور قليلة في كتاب المسالك للبكري وإشارات عابرة في روض القرطاس لإبن أبي زرع وفي الحلل الموشية.

---

[١] الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

لقد أشرنا في الفصل الأول من الباب الأول إلى الملابسات التي جعلت الأمير أبي بكر بن عمر يتنازل عن الحكم لإبن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٤هـ[١] ، وعودة أبي بكر إلى الجنوب لمواصلة جهاد الوثنيين في بلاد السودان. وقد ذكرنا هنالك بالتفصيل جهود هذا الأمير المجاهد وجهاده المستمر إلى أن أستشهد سنة ٤٨٠هـ[٢] . لقد كانت السنوات الستة عشر التي أمضاها داعياً إلى ا لله بالقول والعمل منعطفاً تاريخياً حاسماً في تاريخ منطقة السودان الغربي ، إذ ستكون هذه الفترة منطلقاً لتحول المنطقة إلى منطقة إسلامية.

لقد رأينا في ما مضى كيف تمكن الأمير أبو بكر بن عمر من هزيمة امبراطورية غانة واحتلال عاصمتها سنة ٤٦٩هـ[٣] .

لقد أدى هذا النصر إلى اعتناق كثير من أهل تلك البلاد الدين الاسلامي ، إلا أن العامل الأساسي في ترسيخ هذا الدين في القلوب وجعل أهل السودان الغربي يدخلون فيه أفواجاً ، هذا العامل هو الجهد الذي قام به العلماء من الدعوة إلى جانب الجيوش الفاتحة.

لقد كان الدعاة يتعقبون الجيش المرابطي الفاتح فيدعون الناس إلى الإسلام ويعلمون من دخل منهم الإسلام قواعد الدين ، ويعملوا على تدعيمه في النفوس.

بل أننا نجد بعض الحالات التي سبق فيها العلماء الدعاة الجيوش فحولوا الناس إلى الإسلام. ولعل أبرز مثال على ذلك هو اعتناق ملك مالي[٤] للإسلام في أواسط

---

[١] ابن أبي زرع: روض القرطاس ، ص ١٣٥.

[٢] المصدر السابق ونفس الصفحة ، الناصري: الإستقصا ج٢ ص ٢٤.

[٣] مجهول: الحلل الموشية ص ١٧ ، إبراهيم طرخان: امبراطورية غانة الإسلامية ص ٥٣

[٤] مالي: (- ١٤٨١م) إحدى ممالك السودان الغربي القديمة ، تقع في حوض النيجر الأعلى ، وهي مملكة قديمة غير أنها لم تشتهر إلا إبتداءاً من القرن الثالث عشر ميلادي (١٢٣٥م) عندما بدأت تتوسع لترث امبراطورية غانة ، وتصبح مملكة عظمى. وقد بلغت أوج عظمتها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي وقد إشتهر من ملوكها منسي موسى ، حكم من (١٣٠٧ - ١٣٣٢م) الذي حج سنة ٧٢٤هـ وزار القاهرة فترك في نفوس حكامها المماليك وسكانها أثراً طيباً وتقديراً كبيراً. كما أنه لفت نظر الناس في مكة المكرمة والمدينة المنورة بكثرة عطاياه ، وفي عهده زار الرحالة المغربي ابن بطوطة مالي.(البكري: المسالك ج٢ ص ٨٧٥ ، ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق محمد عبد المنعم العريان ط١. ١٩٨٧ دار إحياء العلوم بيروت ص ٦٩٤ - ٧١٠ ؛ ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٠١).

القرن الخامس الهجري ، فقد قحطت بلاد هذا الملك ، وتسميه بعض المصادر[١] برمندانا ، سنة تلو سنة فاستسقوا بقرابينهم فلم يسقوا " وكان بأرض هذا الملك رجل من المسلمين يقريء القرآن ويعلم السنة فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك ، فقال له : أيها الملك لو آمنت با لله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد صلى ا لله عليه وسلم وأقررت برسالته وأعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه ، وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب ا لله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن مالا يسع جهله ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهراً سابغاً وألبسه المسلم ثوب قطن عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به فصليا من الليل ماشاء ا لله والمسلم يدعو والملك يؤمن فما انفجر الصبح إلا وقد عمهم ا لله بالسقيا. فأمر الملك بكسر الأصنام وأخرج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه. وأطلق عليه لقب المسلماني فما عاد يعرف إلا به"[٢] .

ولم يكن المسلماني هذا الملك الوحيد الذي اعتنق الإسلام على يد العلماء والدعاة فقد أعتنق ملك سنغاي[٣] زاكوسي الإسلام فيما بين سنتي ٤٧١ – ٤٧٥هـ على يد هؤلاء

---

(١) ابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٠٠ Ki - Zerbo: Histoire de L'Afrique P.130

(٢) البكري: المسالك ج٢ ص ٨٧٥ – ٨٧٦.

(٣) سنغاي أو صنغاي: (– ١٥٩١م): مملكة من مماليك السودان الغربي قامت حول النيجر الأوسط. وهي مملكة قديمة ظلت تتوسع من منطقتها الأصلية بمحاذات الغابات الإستوائية إلى الشمال حتى صارت في القرن الخامس عشر ميلادي (التاسع هجري) أمبراطورية كبرى أسقطت امبراطورية مالي واحتلت مناطق نفوذها. ومن أشهر ملوك هذه الأمبراطورية الاسكيا محمد الأول الذي حكم من سنة ١٤٩٢ – ١٥٢٨م وكان شديد التقوى والتدين محباً للعلم والعلماء وقد قام بفريضة الحج سنة ٩٠٢ – ٩٠٥هـ وقد التقى في مصر بالإمام السيوطي وتأثر به تأثراً كبيراً ، وقد سقطت هذه المملكة على يد الحملة التي أرسلها المنصور السعدي سلطان المغرب (٩٨٦هـ – ١٠١٢هـ) إلى السودان الغربي في سنة ١٠٠٠هـ (١٥٩١م). (تاريخ افريقيا العام: المجلد الرابع ، إشراف وتأليف اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو) ص ١٩٩ – ٢٢٠).

الدعاة[١] . وقد عثر حديثاً على شواهد قبور في منطقة غـاو[٢] ، تعـود إلى أواخـر القـرن الخامس الهجري تؤكد أن الإسلام قد إنتشر بين رجال الحكم في مملكة سنغاي بالإضافة إلى أفراد الشعب[٣] .

لقد كان هؤلاء الدعاة ، في أغلبهم ، نموذجـاً للمسـلم الحـق فـاتصفوا بالصفـات الحميدة من صدق وحسن خلق وصبر وأمانة وإيثار للغير وزهد في الدنيا وإخلاص لله.

وقد أكسبتهم تلك الصفات التقدير والإحترام بين سكان السودان الغربي فكـانت كل قرية تضم داراً لإستقبالهم وضيـافتهم ويعـاملون بـإجلال ، وفي بعـض القبـائل مثـل الماندنجو[٤] كان الدعاة في المرتبة التالية لمرتبة الملك في الإحـترام. وقـد بلـغ مـن إجـلال الناس لأشخاص هؤلاء الدعاة المعلمين ، أنه كان لا يتعـرض لهـم أحـد حـين يجوسـون خلال إمارات يعادي بعضها بعضاً ، بل كانوا محل إحترام شديد[٥] .

لاشك أن بساطة التعاليم الإسلامية ووضوحها كان له تأثير كبير في جـذب هـذه الشعوب للإسلام ، كما كان لقيمه مثل إنعدام التمييز العنصري والطبقي وغيرها كان لها جاذبيتها بالنسبة إلى أهل السودان الغربي ، لذا نراهم يدخلون في الإسلام أفواجـاً. بـل أن البعض منهم حمل مشعل الدعوة منذ دخولهم للإسلام وتعمقهم فيه. وخير مثال على

---

[١] توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن ، ط٣ ، ١٩٧٠م ، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٣٥٥.

[٢] غاو أو كوكو GAO: عاصمـة مملكـة سنغاي يرجـع تـاريخ تأسيسـها إلى القـرن الثـامن الميـلادي وبلغـت إزدهارها في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادي) وتقع هـذه المدينـة علـى منحنـى نهـر النيجـر. وقـد ساهمت مساهمة مهمة في الإتصالات التجارية والثقافية بين شمـال افريقيـا وغربهـا منـذ أواسـط القـرن الثـاني الهجري. (نقولا زيادة: افريقيا ت ص ٣٤٩).

[٣] باسيل دافدسون: افريقيا تحت أضواء جديـدة ، ترجمـة جمـال أحمـد نشـر دار الثقافـة ص ١٥٦. ومـن هـذه الشواهد شاهد كتب عليه: "هذا قبر الملك الذي أيد دين الله وأعزه أبو عبد الله محمد رحمه الله ، ويضيـف أن الملك توفى عام ٤٩٤هـ".

[٤] الماندنجو: شعب من شعوب السودان الغربي ، أسـس امبراطوريـة مـالي. وينتشـر هـذا الشـعب في عـدد مـن الدول الأفريقية مثل مالي وغينيا والسنغال وفولتـا العليـا. (اليونسـكو: تـاريخ افريقيـا العـام ، المجلـد الرابـع ص ١٣٨).

[٥] ت. آرنولد: مرجع سابق ص ٣٩١ - ٣٩٢.

ذلك هم أهل غانة وأغلبهم من السوننك[١] فقد إشتهروا بحماستهم للإسلام ونشره حتى أن بعض العشائر السوننكية تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط ، بل أن كلمة "سوننك" في أعالى نهر غامبيا كانت مرادفاً لكلمة "داعي" مما يدل على الدور الكبير الذي لعبه هؤلاء في نشر الإسلام[٢] .

ونفس الشيء ينطبق على شعب الماندنجو الذي يعد من أنشط الدعاة إلى الإسلام منذ دخلوه في القرن الخامس الهجري ، وقد إنتشر الإسلام بواسطتهم بين الجماعات المجاورة[٣] ، وقد لعب علماء قبيلة مسوفة دوراً كبيراً في نشر الإسلام والدعوة إليه فكان لهم الأثر الكبير في منطقة السودان الغربي[٤] . وقد أنشأ هؤلاء العلماء الدعاة مدارس كانت منارات علم وطدوا بها إسلام هذه المنطقة ، ومن أشهر هذه المدارس مدارس تمبكتو[٥] التي أضحت في القرن العاشر الهجري مناراً للعلوم والثقافة الإسلامية في السودان الغربي وتوافد عليها الطلبة والفقهاء.

---

(١) السوننك: أو السراكولا: قبيلة من قبائل السودان الغربي كانت تعيش في الصحراء ثم تركزوا بعد ذلك على حافتها الجنوبية وهم من أول قبائل السودان الغربي الذين احتكوا بأهل الشمال المسلمين. وقد أقام السوننك أقدم امبراطوريات السودان الغربي وهي امبراطورية غانة (طرخان: مرجع سابق ص١٨).

(٢) طرخان: م.س.ص٤٨.

(٣) ت.آرنولد: م.س.ص٣٥٦

(٤) J.Cuoq: op.cit P.58.

(٥) تمبكتو: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى وقد أنشئت حوالى ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) على أيدي الطوارق. وهي مدينة إسلامية منذ البداية. وتعتبر من أهم المراكز التجارية والثقافية في السودان الغربي. وقد بلغت ذروة مجدها في القرن العاشر الهجري. وقد إشتهرت بكثرة علمائها ومكتباتها ولعل أشهر علمائها هو أحمد بابا التنبكتي (١٥٥٦ - ١٦٢٧م) الذي ألف نحو خمسين مصنفاً في الفقه والنحو والتراجم ومن أشهر مؤلفاته كتاب (نيل الإبتهاج بتطريز الديباج) وهو بمثابة صلة لكتاب ابن فرحون (الديباج المذهب في علماء المذهب) عن طبقات فقهاء المذهب المالكي وقد طبع نيل الإبتهاج في القاهرة ١٣٥٢هـ ١٩٤٤م. (عبد الرحمن عبد الله السعدي (ت١٠٦٦هـ): تاريخ السودان ، نشر وتحقيق هوداس وبنوه ، الطبعة الثانية ١٩٦٤م ، باريس المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية ، ص ٢٠ - ٢١.

Mahmood Zouber: Ahmed Baba de Tombouctou Savie et son oeuvre,1977 Mais on Neuve & Larose, Paris P.xIV).

وكان "أهلها من أكثر الناس تلطفاً بطلبة العلم وأعانتهم فكثر قراؤها وأدباؤها"[١]

ومثل ما انتشر العلم في تمبكتوا إنتشر أيضاً في مدينة جنى[٢]، بل أنه ازدهر فيها مبكراً فقد ذكر السعدي، صاحب تاريخ السودان، أن ملك هذه المدينة عندما أراد دخول الإسلام في أواخر القرن الخامس الهجري أي في عهد المرابطين جمع كل العلماء في مملكته فكان عددهم أربعة آلاف ومائتي عالم وأسلم على يديهم، وطلب منهم أن يدعو الله أن ينصر مدينته، ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجداً عظيماً مبالغة في حبه للدين الإسلامي[٣].

ومع أن العدد الذي ذكره السعدي للعلماء مبالغ فيه فإنه يدل على أن الحياة العلمية كانت مزدهرة وأن العلماء الدعاة كانوا كثيرين في هذه المنطقة. وقد أدى إعتناق ملك هذه المدينة للإسلام أن ازدهرت بالعلم أكثر فوفد إليها الطلاب والفقاء و"ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة، سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل وبلاد شتى"[٤] على حد تعبير السعدي لقد ارتبطت المدارس في السودان الغربي إرتباطاً شديداً بالدين. وفي أول الأمر ألحقت المدارس بالرباط، حيث يقيم المرابطون للتعلم والتعبد فكان الإمام عبد الله بن ياسين، معلمهم الأول، يعلمهم الشريعة ويقرئهم الكتاب، حتى صار حوله فقهاء، فكان يأمرهم بالذهاب إلى قبائلهم لينشروا الإسلام على أسس سليمة بعيدة عن البدع والجهل.

وبتوسع المرابطين وخروجهم للجهاد أصبحت المدارس ملحقة بالمساجد فكان إلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد، وكانت هناك أمكنة لنوم الطلاب

---

(١) محمود كعت: تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس ودلافوس، الطبعة الثانية ١٩٦٤م، المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية، باريس ص ١٧٩.

(٢) جني: مدينة على النيجر الأعلى تأسست سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) وكانت مركزاً هاماً لتجارة القوافل ومحطة أساسية في التبادل التجاري والثقافي بين الشمال والجنوب (السعدي: م.س.ص١١، ت.آرنولد: م.س.ص ٣٥٥)

(٣) السعدي: مصدر سابق ص ١٢.

(٤) السعدي: م.س.ص ١٦

الذين يحضرون من أماكن بعيدة ، على أن المساجد كانت بمثابة المقر الرئيسي لتلقي العلم إذ كانت تعقد في المساجد حلقات للدراسة والمناقشة في أمور الدين المختلفة[١] .

وقد قلد السودان هذا النوع من المدارس فأصبحت تلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم الأطفال وقد كانت مهمة التعليم في أول الأمر مقصورة على العلماء الدعاة الوافدين إلى أرض السودان الغربي من الشمال ولكن بعد مدة تكونت طبقة من أهل العلم من أهالي السودان تولت مهمة التعليم والدعوة[٢] .

ولكن رغم ظهور علماء من أهل السودان يقومون بالتعليم والدعوة فقد ظل إسم المرابطين يطلق في السودان الغربي على المعلمين الدعاة حتى اليوم[٣] ، إشارة إلى الدور العظيم الذي قام به علماء المرابطين في سبيل نشر الدعوة والعلم في هذه المنطقة.

لم تكن الدعوة إلى ا لله بالنسبة إلى هؤلاء العلماء ، أو جلهم ، مهمة مؤقتة ، بل كانت واجباً يتحملونه طوال حياتهم ، لذلك نرى كثيراً منهم استقر بين الشعوب التي يدعون فيتزوجون من أهل البلاد فيتوطد نفوذهم وتستقر أحوالهم فتزداد مهمتهم في نشر الإسلام سهولة[٤] .

ولعله من الجدير بالذكر أن نشير إلى ظاهرة لفتت إنتباه عدد ممن أرخ للمجتمعات في السودان الغربي وتتمثل هذه الظاهرة في تكون جماعات بين هذه المجتمعات ترجع في أصولها إلى علماء دعاة سكنوا هذه البلاد وتزوجوا من أهلها ولكن ذريتهم بدل أن يذوبوا في هذه المجتمعات ظلوا متشبثين بخصوصيتهم المتمثلة في الدعوة إلى ا لله ونشر الإسلام فلا يعرفون إلا بهذه الهوية وقد أطلقت على هذه الجماعات إسم "التورودوب". وقد تمكن "التورودوب" من تكوين دويلات لهم في مناطق عدة من السودان الغربي. وقد شن هؤلاء حملات الجهاد لنشر الإسلام كما أقاموا المدارس

---

[١] ابن أبي زرع: م.س.ص ١٢٥.

[٢] نقولا زيادة: مرجع سابق ، ص ٣٤٨ - ٣٥١.

[٣] ت.آرنولد: مرجع سابق ص ٣٩٢.

[٤] J.C.Froelich: Essai sur les causes et Methodies de L'ISLAMISATION de L'Afrique de L'OUEST du xi - xx Siecle, Oxford UNIV, Press 1969, P.121

القرآنية وأنشأوا المساجد وقاموا بتدريس اللغة العربية. وصارت المساجد في مجتمعاتهم نقطة الإرتكاز للحياة الدينية والدنيوية[١] .

ومن هؤلاء العلماء الدعاة الذين رحلوا من أوطانهم واستقروا في مناطق أخرى من أجل الدعوة إلى الله وبث العلم ، الشريف عبد المؤمن بن صالح الذي أسس مدينة تشيت[٢] سنة ٥٣٦هـ ، وهو أحد تلاميذ القاضي عياض السبتي. وقد أضحت هذه المدينة إحدى منارات العلم والدعوة في موريتانيا وبلاد السودان الغربي[٣] .

- **نتائج جهود العلماء في الدعوة:**

لقد أثمرت جهود العلماء في الدعوة نتائج ملموسة وعظيمة يمكن حصر أهمها في النقاط الثلاث التالية :

١- نشر الإسلام: وقد إستعرضنا فيما مضى كيف أن الإسلام إنتشر في منطقة السودان الغربي أساساً بالدعوة المستنيرة القائمة على الحسنى على يد العلماء ، وهو أمر ظل محسوساً حتى قرون متأخرة عن العهد المرابطي ، إذ لاحظ الأوربيون في أول إتصالهم بالسودان الغربي أن "المرابطين البيضان هم الذين نقلوا المحمدية (الإسلام) إلى الزنوج ، ولهذا كان لهم نفوذ قوي على هذه الشعوب التي تنظر إليهم كأساتذة مرشدين في كل ما يتصل بالدين"[٤] .

---

[١] د. عبد الله إبراهيم: الجهاد والدعوة الإسلامية في جامبيا ، (مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر) العدد ١٣ ، ١٩٩٣م ، ص ٢٣٢.

[٢] تيشيت: مدينة في منطقة تكانت في وسط موريتانيا الحالية أنشئت سنة ٥٣٦هـ كانت مركز حياة علمية مزدهرة أنجبت عدداً هاماً من العلماء والمؤلفين المدرسين وهي إحدى مدن الواحات القديمة ومحطات القوافل بين المغرب العربي والسودان الغربي. وهي اليوم إحدى المدن التاريخية التي شاخت ولكنها ماتزال تغالب عوادي الزمن. وهي من أوفر المدن الموريتانية مكتبات ومخطوطات. (أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٩م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ص ٤٥٩ ، المختار بن حامد: حياة موريتانيا ، ج٢ ، (الحياة الثقافية) ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٠م ، ص٦).

[٣] المختار بن حامد: المرجع السابق نفس الصفحة.

[٤] P.Marty: Etudes sur L'Islam au Senegal T 1 Paris 1917 Editions Ernest Leroux. P.69.

لقد كان إنتشار الإسلام منذ هذا العهد المرابطي إنتشاراً متواصلاً ومضطرداً في السودان الغربي وقد شبهه ، بحق ، أحد الكتاب الأوربيون بأنه مثل إنتشار بقعة زيت[١] . ولم يكن إنتشار الإسلام شكلياً بل كان ذا تأثير عميق في هذه المجتمعات الوثنية فقد غير عاداتها وتقاليدها ونقلها نقلة حضارية كبرى ، دخلت معها هذه المنطقة التاريخ الحضاري. وقد انطبعت هذه المنطقة بالطابع الإسلامي ومظاهره ، فإنتشرت المساجد والمدارس والإحتكام إلى شرع الله ، في الغالب ، فضلاً عن إستكمال الملبس وستر العورات[٢] .

وقد ورث أهل السودان الغربي عن المرابطين تشددهم في الدين وتمسكهم بالشعائر إلى أبعد الحدود ، فكانوا يواظبون على الصلوات والتزامها في الجماعات فكانت المساجد تزدحم بالمصلين ، حتى أن المرء إذا لم يبكر بالذهاب إلى المسجد أيام الجمع لم يجد موضعاً يصلي فيه لكثرة المصلين[٣] . وبالإضافة إلى كل هذا فقد بدأت منطقة السودان الغربي مع هؤلاء الدعاة تدخل فضاء إنتماء واسع هو الإنتماء إلى أمة الإسلام إلى الحد الذي جعل ملوك غانة الإسلامية يدعون أنهم ينتسبون إلى العترة النبوية الشريفة[٤] ، ولم يكن ملوك غانة بدعاً في هذا الإنتساب ، وإن شكك فيه المؤرخون[٥] فقد ادعى ملوك مالي النسبة إلى بعض الصحابة[٦] وهذا الإنتساب ، مهما كانت درجة صحته من عدمها ، فإنه يدل على رغبة هؤلاء الملوك في إضفاء صفة قدم الإسلام في أسرهم بالإضافة إلى التميز عن سائر مواطينهم بهذا النسب الإسلامي العريق.

---

(١) J.Cuoq: op cit P.47

(٢) حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب افريقيا وقيام دولة الفلاني ، نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠١هـ ، ص ٩٤.

(٣) ابن بطوطة: مصدر سابق ص ٧٠٣.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ج١ ص ٥٩.

(٥) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٦) ادعوا أنهم ينتسبون إلى الصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه .J.Cuoq: op.cit P.70

لم يقف إسلام أهل السودان الغربي عند ممارسة الشعائر الدينية من صلاة وزكاة وصوم بل قام هؤلاء بدعوة غيرهم إلى الإسلام وتحمسوا لنشر الإسلام ، فدخلت مناطق كثيرة الإسلام بفضل جهدهم وجهادهم ولعل مثال ملك التكرور وارجابي بن رابيس (ت٤٣٥هـ) الذي أعتنق الإسلام ثم ساهم في نشره بين أهل مملكته ثم قام بجهاد ودعوة من يليه من أهل السودان فدخل أهل سلى[1] الإسلام على يديه وحسن إسلام ملكهم الذي قام بدوره بنشر الإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيله في البلاد المجاورة خاصة قلنبؤ[2] .

وقد ورث الملك لابي بن وارجابي عن أبيه هذا التفاني في خدمة الدين فاشترك مع المرابطين في الجهاد ضد الوثنيين كما تحالف مع أمير المرابطين يحيى بن عمر في حربه ضد جدالة[3] .

ومنذ هذا التاريخ ، أي القرن الخامس الهجري ، وبفضل جهود الدعاة إنتقل الإسلام من كونه دين تجار أجانب يفدون على بلاطات ملوك السودان الغربي ، إلى دين لأهل السودان ذا دفع ذاتي.

٢- نشر اللغة العربية:

لقد أدت الدعوة إلى الإسلام وإنتشاره في ربوع السودان الغربي إلى إنتشار اللغة العربية فأضحت اللغة الأساسية لأهل هذه المنطقة ، فهي لغة التجارة ولغة العلاقات الخارجية وهي قبل ذلك لغة الدين والعلم ومما ساعد على إنتشار اللغة العربية أن أهل هذه المنطقة لم تكن لهم لغات مكتوبة. ومع الزمن أضحت اللغة العربية جزءاً من هوية

---

[1] سلي: مدينة على نهر السنغال الأعلى تقع إلى الشرق من التكرور والمسافة بينها وبين غانة "عشرون يوماً في عمارة السودان" كما يقول البكري وقد اعتنق أهلها الإسلام في القرن الخامس الهجري (البكري: المسالك ج٢ ص ٨٧٤) ، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص ٢١٧

[2] قلنبو: مدينة يعتقد أنها كانت على نهر السنغال ذكر البكري أن أهل سلي كانوا يجاهدونها لتدخل الإسلام (البكري: المسالك ج٢ ص ٨٧٤).

[3] البكري: المسالك ج٢ ص ٨٧٤.

هذه المنطقة. وقد لاحظ الأوربيون في القرن ١٨م عندما كانوا يقومون بتجارة الرقيق أن عدداً لا يستهان به من هؤلاء الزنوج يجيد كتابة اللغة العربية[١] .

ولعله من الجدير بالذكر أن نذكر ما لاحظه المؤرخون من أن بعضاً من هؤلاء الزنوج الذين استرقوا في القارة الأمريكية "ظلوا يعبدون الله على مدى أجيال وقد تمكن بعض منهم من إدخال القرآن الكريم إلى موطنه الجديد"[٢] كما لاحظوا أن إجادة هؤلاء الزنوج للغة لا يعرفها أسيادهم ، وهي اللغة العربية ، أعطتهم وسيلة مقاومة كبيرة للمحافظة على كيانهم وهويتهم[3] .

٣- نشر العلم:

لقد كان من ثمار جهد العلماء في الدعوة بمنطقة السودان الغربي أن أنتشر العلم في هذه المنطقة وأهتم أهلها بتعلمه وأصبحت مدن مثل ولاته[4] وتمبكتو وجني منارات علم وثقافة حتى أضحى جامع سنكري[٥] في تمبكتو في القرن العاشر الهجري ، بالنسبة إلى السودان الغربي ، يعد في مصاف الأزهر بالقاهرة والزيتونة في تونس والقرويين في فاس[٦] .

وقد لاحظ ابن بطوطة في رحلته إلى السودان الغربي عام ٧٥٣هـ إهتمامهم و"عنايتهم بحفظ القرآن العظيم فيقول: "وهم يجعلون لأولادهم القيود إذ ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده

---

[١] J.Ki - Zerbo: op.cit P.220.

[٢] .Ki - Zerbo : op.cit P.224

[٣] Ki - Zerbo : op.cit P.224.

[٤] ولاته: مدينة في الجنوب الشرقي لموريتانيا الحالية ، ذات تاريخ عريق لا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها ، كانت تعرف بإيولاتن ، شهدت إزدهاراً ثقافياً كبيراً خلال القرون ١١ - ١٣هـ وقد زارها ابن بطوطة خلال رحلته إلى بلاد السودان الغربي سنة ٧٥٣هـ (ابن الخطيب: الإحاطة ج٣ ص ١٩٢ ؛ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٨٩ ، الشنقيطي: الوسيط ص ٤٥٩).

[٥] جامع سنكري: جامع بني في القرن العاشر الهجري. وقد أنفقت على بنائه امرأة ثرية من قبيلة لغلال الشنقيطة المعروفة. (السعدي: مصدر سابق ص٢٧).

[٦] السعدي: مصدر سابق ص ٢٧.

مقيدون فقلت له ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: مافعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن"[1] .

ومع أن ابن بطوطة زار السودان الغربي بعد عصر المرابطين بقرنين فإننا نرى أن هذا الإهتمام بالعلم إنما هو إمتداد لأثر العلماء المرابطين الذي كان أساس دعوتهم العلم.

ثانياً : أثر العلماء في الجهاد:

إن الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام إنما هو طور متقدم من أطوار الدعوة ووسيلة من وسائل إزالة العوائق المعترضة سبيل إنتشار الحق. لقد كان العلماء ، بحكم صفتهم ، أدرى الناس بأهمية هذا الواجب. وفي العصر المرابطي شعر العلماء بضرورة القيام بعبيء هذا الواجب. وقد رأينا في الفصل الأول من الباب الأول الدور الجهادي الذي قام به الإمام عبد الله بن ياسين إلى أن أستشهد وما قام به الفقيه سليمان بن عدو وغيره من أجل إعلاء كلمة الله. وقد أدت هذه الجهود الجهادية إلى تأسيس دولة كبرى مهمتها الأساسية الجهاد في سبيل الله والإلتزام بشرع الله.

لقد وجدت هذه الدولة أبواب الجهاد مشرعة في الجنوب الوثني وفي الشمال في ارض الأندلس لمدافعة النصارى ووقف زحفهم على الديار الإسلامية.

إننا وإن كنا لا نشك أن الجهاد الذي قام به المرابطون في الجنوب الوثني بأرض السودان الغربي كان عظيماً إستناداً إلى نتائجه والمتمثلة في تحويل هذه المنطقة إلى بلاد إسلام فإننا للأسف لا نملك التفاصيل عن ذلك الجهاد فكل ما ذكر لا يتعدى إشارات مجملة متفرقة كما ذكرنا في بداية هذا الفصل.

أما الميدان الجهادي الثاني وهو أرض الأندلس فقد كان للعلماء فيه أثر كبير. وقد ذكرنا في الفصل الثالث من الباب الأول الدور الذي قام به العلماء في دعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى جهاد النصارى في الأندلس ونصرة المسلمين هناك وبينا

---

[1] ابن بطوطة: مصدر سابق ص٧٠٤

هنالك الدور الذي قام به العلماء في معركة الزلاقة وإستشهاد طائفة منهم. ثم ذكرنا الجهد الذي قاموا به لتوحيد العدوتين.

لم يكن ضم الأندلس إلى السيادة المرابطية هدفاً في حد ذاته بل كان وسيلة لحماية ونصرة الإسلام والمسلمين في تلك البلاد. وأمام واقع الأندلس المرير المتمثل في تكالب النصارى على الإسلام الذي كان يتراجع كل يوم وتنكمش رقعته ، عزم المرابطون على رفع التحدي ومجاهدة النصارى في كل أنحاء الأندلس[١] .

وقد بارك العلماء هذا العزم وساندوه قولاً وعملاً ، فلا نكاد نجد جيشاً من المرابطين خارجاً للجهاد إلا ونجد فيه عدداً من العلماء المشهورين الذين دونت أخبارهم. وقد استشهد جماعة من مشاهير العلماء في ساحات الجهاد من أمثال: الإمام أبو علي الصدفي الذي استشهد في غزوة كتندة بالثغر الأعلى سنة ٥١٤هـ[٢] واستشهد معه فيها الإمام أبو عبد الله بن الفراء قاضي المرية[٣].

---

[١] المراكشي: المعجب ص ٢٥٢.

[٢] عياض: الغنية ص ١٩٥ ؛ ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٣٥.

[٣] أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء (ت٥١٤هـ): كان رجلاً صالحاً متواضعاً قوياً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ومما يؤثر عنه في ذلك أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتب إليه عندما كان قاضياً للمرية يأمره بفرض المعونة ، وهي ضريبة زائدة على الأموال التي تؤخذ عن طريق الزكاة ، ويرسل إليه بها. فامتنع ابن الفراء من فرضها وكتب إلى أمير المسلمين يخبره أنه لا يجوز له فرضها. فأجابه يوسف أن القضاة عنده قد أباحوا له فرضها وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرضها في زمنه فراجعه القاضي ابن الفراء بقوله: بلغني كتابك تذكر فيه ما كان من تأخري عن المعونة وقبضها وأن القضاة والفقهاء أفتوك بقبضها وأن عمر رضي الله عنه اقتضاها. فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية ، فإن عمر قد اقتضاها وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيره وضجيعه في قبره ولاشك في عدله ، وأنت لست بصاحبه ولا وزيره وقد يشك في عدلك. وما اقتضاها عمر حتى دخل المسجد بحضرة من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم وحلف أن ليس عنده درهم في بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فإن كان الفقهاء والقضاة قد انزلوك كمنزلته في العدل فالله حسيبهم وسائلهم على تقلدهم ذلك ، فلتدخل المسجد بحضرة من هنالك من أهل العلم وتحلف أن ليس عندك في بيت مال المسلمين درهم تنفقه عليهم وحينئذ تجب تقويتك. (ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص ٥٤٢ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص ١١٨ ؛ الونشريسي: المعيار المعرب ج١١ ص ١٣٢).

وقبلها استشهد القاضي يحيى بن محمد الأموي المعروف بإبن قبروق[1] قاضي شاطبة في وقيعة البورت سنة ٥٠٨هـ[2] واستشهد الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد بن حيات الأنصاري بسرقسطة سنة ٥٠٣هـ[3] واستشهد أبو جعفر عبد الوهاب ابن حكم الأنصاري في وقيعة وشقة سنة ٤٨٩هـ[4] . والفقيه أحمد بن ثابت العوفي في وقيعة البورت[5] . واستشهد معه جماعة من خيرة المجاهدين منهم القائد أبو عبد الله ابن الحاج[6] وذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحاج الطرطوشي[7] .

---

(1) يحيى بن محمد الأموي أبو الوليد المعروف بابن قبروق (ت ٥٠٨هـ) فقيه من أهل لاردة أخذ عن أبي علي الصدفي وولي قضاء شاطبة بأمر من أبي علي الصدفي ثم استعفى فأعفي وانتقل إلى بلنسية فشاوره قاضيها (ابن الأبار: المعجم ص ٣١٨).

(2) البورت (ألبرت) وقعت هذه المعركة سنة ٥٠٨هـ حينما خرج القائد المرابطي محمد بن الحاج في حملة نحو برشلونة لمحاربة أميرها رامون بيرنجير الثالث. وقد حاصرها المرابطون وعاثوا تخريباً في أرباضها وزروعها إلا أنهم عجزوا عن الإستيلاء على البلد لحصانته ، وعادوا محملين بالمغانم الوافرة. وأثناء العودة فضل محمد بن الحاج أن يختصر الطريق مع لمة مختارة من جنده فيهم محمد بن عائشة ، في حين أرسل معظم الجيش على الطريق الكبير الروماني ، وقد سار محمد بن الحاج وصحبه في مفاوز وعرة ومضايق مليئة بالمخاطر فإنتهز جند برشلونة الفرصة وكمنوا له عند ضائق وعر وهاجموه "فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذاً يخلص منه فاستشهد ، رحمه الله ، واستشهد معه جماعة من المطوعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة في نفر بالحيلة إلى بلاد المسلمين". وسميت هذه المعركة بموقعة ألبرت (ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٠ - ١٦١ ، ابن الأبار: المعجم ص ٣١٨.

(3) شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٢ ص ١٨٠ وقد عزا معلوماته إلى ابن الأبار في التكملة. ترجمة عبد الرحمن بن حيات الأنصاري ضمن الأجزاء التي لم تنشر من تحقيق عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٦.

(4) شكيب أرسلان: الحلل السندسية ج٢ ص١٥٥ ونسب المعلومة إلى ابن الأبار في التكملة ولكني لم أجدها في الطبعة التي اعتمدت عليها وهي التي نشرها عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٦.

(5) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٥٠ - ٥١

(6) أبو عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني (ت٥٠٨هـ) من أكابر زعماء لمتونة وقوادها وقد ظهر ، منذ عبر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤هـ بمقدرته وأعماله العسكرية البارزة أولاً حين افتتح قرطبة وانتزعها من ابن عباد ثم في محاربته للقشتاليين في كثير من المواقع. وقد تولى ولاية بلنسية وشرقي الأندلس في سنة ٥٠١هـ ثم معها ولاية سرقسطة التي انتزعها من يد بني هود سنة ٥٠٣هـ. وظل ابن الحاج في سرقسطة يحوطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى إلى أن أستشهد (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٥٤ - ٥٥ ، ٦١ وقد جعل ابن عذارى تاريخ وفاة ابن الحاج سنة ٥٠٩هـ في حين جعلها ابن الأبار سنة ٥٠٨هـالمعجم ص ١٤٢).

(7) ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٥١.

وقد شارك علماء أعلام آخرون في الجهاد وإن لم تكتب لهم الشهادة في ساحة المعركة مثل الإمام عبد الحق بن غالب بن عطية صاحب كتاب "المحرر الوجيز" في التفسير فقد كان كثير الغزو في جيوش المرابطين[١] . وكذلك الإمام قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد (ت٥٢٠هـ)[٢] وقاضي الجماعة محمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج (ت٥٢٩هـ)[٣] .

وكذلك الإمام أبو بكر بن العربي الذي اشترك في كثير من الغزوات التي خاضها المرابطون ومن بينها غزوة كتندة سنة ٥١٤هـ وقد نجا فيها بأعجوبة وعندما سئل عن حاله عند مخلصه منها قال: "حال من ترك الخباء والعباء"[٤] .

وقد كان لوجود مثل هؤلاء الأئمة في الجيوش المرابطية الغازية تثبيت للقلوب وتأسية لغيرهم من المجاهدين أن ما يقومون به قربة إلى الله وطاعة من أعظم الطاعات. كما كان خروج هؤلاء العلماء إلى الجهاد مدعاة لغيرهم لأن يقتدوا بهم ولذلك كثر المتطوعة الخارجين مع الجيوش المرابطية. ففي غزوة كتندة عام ٥١٤هـ لم يفقد الجيش المرابطي في المعركة إلا عدداً قليلاً من أفراده في حين أستشهد حوالي عشرون ألفاً من المتطوعة[٥] . ولاشك أن لخروج الإمامين ابي علي الصدفي وأبي عبد الله بن الفراء في هذه الغزوة تأثير في خروج هذا العدد الكبير من المتطوعة.

---

[١] ابن الأبار: المعجم ص ٢٦٦.

[٢] نفس المصدر ص ٦٤.

[٣] نفس المصدر ص ١٢٣

[٤] نفس المصدر: ص١٧. لقد فهم د. حسين مؤنس من هذا النص أن القاضي أبو بكر بن العربي كان ممن فر يوم كتندة (مقدمة الحلة السيراء ص ١٩) إلا أن الباحث قد يميل إلى عكس ذلك لأن القاضي ابن العربي يعرف ما في التولي يوم الزحف من وعيد ثم إنه لو كان ممن فر فعلاً ماكان ليشهد على نفسه بذلك. والذي يظهر هو أنه عبر بهذه الجملة عن شدة المأزق الذي وقع فيه وأنه فقد في تلك المعركة كل ماكان عنده ، (ابن الأبار: الحلة السيراء ، ط١ عام ١٩٦٣م ، القاهرة).

[٥] ابن الأبار: المعجم ص ١٧.

وقد جمع العلماء بين الجهاد والعلم فكثير من طلبة العلم أخذ عن الإمام أبي علي الصدفي أثناء إجتيازه بمدنهم غازياً[١] . وكذلك أخذ الطلبة عن الإمام أبي بكر بن العربي أثناء جهاده فقد أخذ عنه أحمد بن عبد الجبار المعروف بابن ورهزن بكولية من الثغور الشرقية سنة ٥٢٢هـ[٢] كما أخذ عنه غيره[٣] .

وبالإضافة إلى المشاركة في القتال فقد ظل العلماء في العهد المرابطي يدعون إلى الجهاد بأقلامهم مستنهضين الهمم مبينين فضله. وفي بعض الأحيان مستصرخين طالبين العون لجزء من أجزاء الأندلس دهمه العدو.

فقد كتب قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله إلى الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين والي الأندلس ، يستصرخه عندما حاصر النصارى سرقسطة سنة ٥١٢هـ ويبين له عظم ما يلاقيه أهلها ويؤنبه على تباطؤه وتقاعسه عن النجدة ويحذره من مغبة ذلك ، ثم يستنهض همته ويخاطب فيه غيرته ودينه. ومن هذه الرسالة قوله : " كتابنا أيدك الله بتقواه ووفقك لإشتراء دار حسناه بمجاهدة عداه.... ، عن حال قد عظم بلاؤها وادلهمت ضراؤها فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ... أتحسبون يامعشر المرابطين ، واخواننا في ذات الله المؤمنين إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع منه المكروه والحذر أنكم تبلعون بعدها ريقاً ... كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء"[٤] .

ومن المفيد أن نذكر هنا نصاً للقاضي أبي بكر بن العربي يبين مدى مايقوم به العلماء من حث للأمراء والرعية على الجهاد. يقول ابن العربي : "ولقد نزل بنا العدو – قصمه الله تعالى – سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا ، وتوسط بلادنا في عدد حدد الناس عدده فكان كثيراً ، فقلت للوالي والمولى عليه. هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ولتكن منكم إلى نصرة الدين

---

[١] ابن الأبار: المعجم ص ٤٦ ، ٦٥ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٨.

[٢] ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٣٥٠.

[٣] ابن الأبار: التكملة ج١ ص ٣٤٤.

[٤] مجموعة باحثين: التاريخ الأندلسي من خلال النصوص ص ١٤٣ ؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي ص ٤٤.

المتعينة عليكم حركة. فليخرج إليه جميع النــاس حتـى لا يبقـى منهـم أحـد في جميـع الأقطار فيحاط بهم فإنه هالك لا محالة ،وأن يسركم ا الله لـه فغلبـت الذنـوب ورجفـت بالمعاصي القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجـاره ، وإن رأى المكيـدة بجاره فإنا لله وإنا إليه راجعون"[١] .

وقد أستعمل العلماء أنواع الكتابة من نثر وشعر في هذا الغرض. فهذا الإمام عبـد الحق بن عطية كتب رسالة طويلة يطلب فيها الغوث لأهل ميورقة عندما حاصرها أهـل جنوة بثلاثمائة مركب سنة ٥١٨هـ يقول ابن عطية :

ونحو أمير المسلمين تطامـــــحت نواظر أمال وأيدي رغـــــائب.

من الناس من تستدعي حفيظة عدله لصدمة جور في ميورقـــة ناصب

مقيم فإن لم يرغم السعد أنفـــــه ألم فـــوافى جانباً بعد جانب

لقتل وسبي واصطلام شريعـــــة لقد عظمت في القوم سود المصائب[٢]

لقد شدت مواقف العلماء هذه في مجملهـا مـن أزر حركـة الجهـاد في الأندلس. وبذلك تمكن التحالف القائم بين المرابطين والعلماء أن يوقـف تسارع المـد الصليـبي وأن يؤجل سقوط الأندلس قروناً.

---

[١] أحكام القرآن: تحقيق علي محمد البجاوي: الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢م ، دار المعرفة للطباعـة والنشـر ، لبنـان ، ج٢ ص ٩٥٥ عند تفسير قوله تعالى: "انفروا خفافاً وثقالاً"سورة التوبة.

[٢] ابن خاقان: قلائد العقيان ج٣ ص ٦٦٨.

- الخاتمة:

لقد حاولت من خلال هذه الرسالة أن أجلي الدور التاريخي الذي اضطلع به العلماء في عصر المرابطين من خلال مشاركتهم السياسية في الأحداث.

وقد توصل البحث إلى نتائج أرى أنها مهمة تتمثل فيما يلي:

أولاً :

أنه كان للعلماء دور مهم في معظم فترات التاريخ السياسي للمغرب الإسلامي قبل قيام دولة المرابطين فتحمل عدد مهم من العلماء مسؤوليات الدفاع عن الحق راضين بتبعات ذلك ، فكان لهم تأثير متميز في مجريات الأحداث. فقد كان دورهم حاسماً وتاريخياً في سقوط النفوذ الشيعي في المغرب الإسلامي. فلولا صمود علماء هذه المنطقة وصبرهم على مبادئهم لترسخ المذهب الشيعي في المغرب الإسلامي. كما كان دورهم فاعلاً في تعريب منطقة المغرب الإسلامي.

ثانياً :

أن قيام الدولة المرابطية كان بالأساس نتيجة تفكير وتخطيط العلماء الذين أرادوا لهذه الدولة أن تقوم على التمسك بالإسلام ومنهجه ساعية لإستصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل. وقد قام بالدور الأكبر في تحقيق هذا الهدف الإمام عبد الله بن ياسين. وقد أسدى العلماء بتكوينهم لهذه الدولة خدمة جليلة إلى الأمة الإسلامية ، إذ لمت شمل شعوب اسلامية كثيرة وساهمت في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

ثالثاً :

قام العلماء بدور بارز في توحيد العدوتين الأندلسية والمغربية وكانت آراؤهم وفتاويهم العامل المهم لتحقيق هذه الوحدة التي أرادوا لها أن تكون وسيلة لحفظ ما تبقى من الإسلام في الأندلس بمدافعة النصارى. وقد جلّينا الجهد الكبير والمتميز الذي ساهم به العلماء في معركة الزلاقة وهو دور أغفله معظم المؤرخين لهذه الفترة في حين اكتفى من ذكروه بالإشارة العابرة.

رابعاً:

توصل البحث إلى حقيقة مهمة في كون العلماء صاروا في العهد المرابطي هم وسطاء الشعب الحاملين لرغباته المعبرين عن طموحاته وخصوصاً في الأندلس.

خامساً:

سعى العلماء إلى توحيد المشارب الفكرية وإلتزام طريق السلف الصالح في ذلك ، مما أثار عليهم الكثير من النقد من طرف بعض المؤرخين.

ورغم ذلك النقد فإن هذا المسعى قد أدى بلا ريب إلى اللحمة بين العناصر البشرية المشكلة للدولة المرابطية وخصوصاً في العدوة الجنوبية.

فعملية المزج والتوحيد وإن كانت في الأساس تهدف إلى تحقيق الوحدة الدينية فقد أدت إلى توحيد سياسي وثقافي وهو مكسب تاريخي لا جدال فيه.

سادساً:

أن النفوذ الكبير الذي تمتع به العلماء في دولة المرابطين جعل منهم طبقة مؤثرة مرغوبة ومرهوبة.

سابعاً:

خلق هذا النفوذ العام طموحات وأطماعاً شخصية كبيرة لدى بعض العلماء فثار عدد منهم على الدولة المرابطية محاولاً تأسيس ملك وتشييد زعامة. وقد فشل معظم هؤلاء الثائرين في تحقيق هدفهم. وقد أضعف هؤلاء الثوار الدولة المرابطية وشتتوا جهدها مما كان له أسوأ الأثر على حركة الجهاد التي كانت تقودها ضد النصارى في الأندلس.

ثامناً:

لم يكن أغلب العلماء الذين تصدوا للقيام بأعباء الحكم على مستوى المسئولية الملقاة على كاهلهم ، وجانب أكثرهم الصواب في التعاطي مع الأحداث. ويرجع سبب ذلك إلى عم إنتفاع هؤلاء بعلمهم وعدم تطبيقهم له في تعاطيهم مع الشأن العام. وكان الإستثناء الأكبر هو الإمام عبد الله بن ياسين الذي ولد جهده قيام دولة المرابطين

وأعطى بنجاحه الدليل الأكبر على أن صفة العالم ليست عائقاً عن التعاطي الصحيح مع السياسية بل على العكس إذ أن العلم هو الشرط الأساسي لتكون السياسة خيرة نافعة.

تاسعاً :

لقد كان دور العلماء مهماً وفاعلاً في الدعوة إلى ا لله والجهاد في سبيله فأثمر جهدهم إنتشار الإسلام في السودان الغربي وتحوله من منطقة وثنية إلى منطقة إسلامية. كما ساهم جهدهم في إضعاف حركة الإسترداد المسيحية في الأندلس ولو إلى حين وأجل سقوط هذا الجزء من ديار الإسلام حوالي قرنين من الزمن. كما أبقوا بجهدهم جذوة الجهاد حية في النفوس.

لقد توصلت هذه الرسالة في مجملها إلى حقيقة ، أرى أنها لم تجل من قبل ، وهي أن العلماء في العهد المرابطي كانوا يشكلون طبقة إجتماعية نشطة وفاعلة أثرت في التاريخ السياسي لمنطقة المغرب الأقصى والأندلس ، وحاول أفرادها ، في معظمهم أن يبذلوا ما استطاعوا من جهد في سبيل نشر الخير والعدل وإن تخلل ذلك بعض الضعف البشري من مساع أنانية ومطامح آنية.

- المصادر:

- القرآن الكريم.

- ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت٦٥٨هـ)

١- التكملة لكتاب الصلة. تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، وأعيد طبع الجزء الأول بتحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٤١٠هـ.

٢- الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣م.

٣- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٨٩م.

- ابن الأثير: علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير (ت٦٣٠هـ).

٤- الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٢م.

- الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني (ت٥٦٠هـ)

٥- نزهة المشتاق (الجزء الخاص بصفة المغرب وأرض السواذان ، مصر والأندلس) نشر النص العربي وترجمته دغويه ودوزي ، ليدن ١٩٦٨م.

- ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة (ت٦٦٨هـ)

٦- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م.

- ابن بسام: على بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)

٧- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- **ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨هـ).**

٨- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، نشر عزت العطار الحسيني ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

- **ابن بطوطة: أبو عبد ا لله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت٧٧٩هـ).**

٩- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان ، ط١ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٧م.

- **البكري: أبو عبيد ا لله بن عبد العزيز البكري (ت٤٨٧هـ)**

١٠- المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفان وأندري فيري ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٢م.

- **البيدق: أبو بكر بن علي.**

١١- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧١م.

- **التادلي: يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات (٦١٧هـ).**

١٢- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٤٠٤هـ.

- **الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ)**

١٣- الجامع الصحيح ، مع شرح تحفة الأحوذي للمباركفوري ، دار الكتاب العربي ، د.ت ، بيروت.

- **التطيلي: أحمد بن عبد ا لله بن أبي هريرة (ت٥٢٥هـ).**

١٤- ديوان الأعمي التطيلي ، تحقيق: إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣م.

- **ابن تيمية: أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ).**

١٥- مجموع الفتاوى ، نشر دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٩٩١م.

- **الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٠٥هـ).**

١٦- المستدرك على الصحيحين ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، ١٩٦٨م.

- **ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).**

١٧- فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة ، الرياض ، د. ت.

- **ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ).**

١٨- رسائل ابن حزم ، تحقيق: د. إحسان عباس ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٦٠م.

- **الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ).**

١٩- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، د. ت.

- **الحميدي: أبو عبد الله بن محمد بن أبي نصر (ت٤٨٨هـ).**

٢٠- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق: إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣م.

- **الحميري: محمد بن عبد المنعم الحميري. (ت٧٢٧هـ).**

٢١- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٥م.

- **ابن حنبل: أحمد (ت٢٤١هـ).**

٢٢- المسند ، ط١ ، نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩م.

- **ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي.**

٢٣- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- **ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد القيسي (٥٢٩هـ)**

٢٤- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق: د.حسين يوسف فريوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٩٨٩م.

٢٥- مطمح الأنفس ، تحقيق: محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

- **ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)**

٢٦- الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق: محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

٢٧- أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام – قسم الأندلس – نشر ليفي بروفنسال بعنوان تاريخ أسبانيا الإسلامية ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦م.

- **ابن خفاجة: أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة (ت ٥٣٣هـ).**

٢٨- ديوان ابن خفاجة الأندلسي ، تحقيق: كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١م.

- **ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)**

٢٩- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٣٠- المقدمة تصحيح أبي عبد الله السعيد المندوه ، ط١ ، مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت ، ١٩٩٤م.

- **ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن خلكان (ت٦٨١هـ).**

٣١- وفيات الأعيان ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م.

- **الدباغ: عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (٦٩٦هـ).**

٣٢- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق: إبراهيم شبوح ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

- **الدردير: أحمد بن محمد بن أحمد العدوي (ت١٠٢١هـ)**

٣٣- الشرح الصغير على أقرب المسالك ، طبعة وزارة العدل بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٤١٠هـ.

- **ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني (القرن ١٢هـ)**

٣٤- المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق: محمد شمام ، ط٣ ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٧م.

- **الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ).**

٣٥- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٠م.

٣٦- العبر في خبر من غبر ، تحقيق: محمد سعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

- **ابن رشد: الوليد محمد بن أحمد (ت٥٢٠هـ)**

٣٧- الفتاوى ، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م.

- **الرقيق القيرواني: إبراهيم بن القاسم (ت٤١٧هـ).**

٣٨- تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق: المنجي الكعبي ، نشر رفيق السقطي ، تونس ، ١٩٦٨م.

- **الزبيدي: محمد مرتضى (ت١٢٠٥هـ)**

٣٩- تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، د.ت ، بيروت.

- **ابن الزبير: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت٧٠٨هـ).**

٤٠- صلة الصلة ، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٨هـ.

- **ابن أبي زرع: علي بن عبد ا لله الفاسي (ت٧٤١هـ)**

٤١- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٢م.

- **الزركشي: أبو عبد ا لله محمد بن إبراهيم (ت ٩٣٢هـ).**

٤٢- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق: محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦م.

- **ابن زيري: الأمير عبد ا لله بن بلقين (ت نهاية القرن الخامس)**

٤٣- التبيان: تحقيق: أمين توفيق الطيبي ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ١٩٩٥م.

- **السعدي: عبد الرحمن بن عبد ا لله (ت١٠٦٦هـ).**

٤٤- تاريخ السوادان ، نشر وتحقيق: هوداس وبنوه ، الطبعة الثانية ، المدرسة الباريسية لتدريس الألسن الشرقية ، باريس ، ١٩٦٤م.

- **ابن سعيد: علي بن موسى بن سعيد (ت٦٨٥هـ)**

٤٥- المغرب في حلي المغرب ، تحقيق: شوقي ضيف ، ط٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨م.

- **السلفي: أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني (ت٥٧٦هـ).**

٤٦- أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السلفي ، أعدها إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٥م.

- **ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (ت٥٩٤هـ).**

٤٧- المن بالإمامة ، تحقيق: د. عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م.

- ابن صالح: عبيد الله.

٤٨- نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر ليفي بروفنسال ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٤م.

- الضبي: أحمد بن يحيى بن عميرة (ت٥٩٩هـ).

٤٩- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، تحقيق: إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة - بيروت ، ١٩٨٩م.

- الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠هـ).

٥٠- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

- الطرطوشي: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت٥٢٠هـ).

٥١- سراج الملوك ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٢هـ.

- الطوفي: نجم الدين سليمان بن سعيد (ت٧١٦هـ)

٥٢- شرح مختصر الروضة ، تحقيق: د. عبد الله التركي ، نشر مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧م.

- ابن عبد الملك المراكشي ، محمد بن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ).

٥٣- الذيل والتكملة ،

السفر الأول ، تحقيق: د. محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت.

السفر الخامس ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٦٥م.

السفر الثامن ، تحقيق: محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ١٩٨٤م.

- **ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي.**

٥٤- رسالة في الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال في المجلة الأسيوية ، أبريل – يونيو ١٩٣٤ Journal Asiatique

- **أبو العرب: محمد بن تميم.**

٥٥- طبقات علماء افريقية وتونس ، تحقيق: علي الشابي ونعيم اليافي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٦٨م.

- **ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت٥٤٢هـ).**

٥٦- أحكام القرآن ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٢م.

٥٧- رحلة ابن العربي ، نشر د. عصمت دندش في مجلة المناهل العدد ٩ ، يوليو ١٩٧٧م.

٥٨- العواصم من القواصم ، تحقيق: د. عمار طالبي ، نشره بعنوان آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٤م.

- **ابن عذارى المراكشي: أحمد بن محمد بن عذارى.**

٥٩- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:**

ج٣ تحقيق ج كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

ج٤ تحقيق: إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

قسم الموحدين ، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥م.

- **ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن عطية (ت ٥٤١هـ).**

٦٠- فهرس ابن عطية ، تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٠هـ.

- **ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ)**

٦١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د. ت.

- **عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت٥٤٤هـ).**

٦٢- ترتيب المدارك ، تحقيق: مجموعة من الباحثين ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ، الرباط ، ١٩٦٨م.

٦٣- الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض ، تحقيق: د. محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧٨م.

- **ابن عياض: أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض (ت٥٧٥هـ).**

٦٤- التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق: محمد بن شريفة ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٣م.

- **الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ).**

٦٥- إحياء علوم الدين ، طبعة دمشق ، مكتبة عبد الوكيل الدروبي ، د.ت.

- **الفراء: أبو يعلى محمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ)**

٦٦- الأحكام السلطانية ، تحقيق: محمد الفقي ،ط٢ ، طبع شركة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

- **ابن فرحون: إبراهيم بن علي (ت٧٩٩هـ)**

٦٧- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث ، القاهرة ، د.ت.

- **ابن الفرضي: أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي القرطبي (ت٤٠٣هـ).**

٦٨- تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق: إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٤١٠هـ.

- **ابن القاضي: أحمد المكناسي (ت١٠٢٥هـ).**

٦٩- جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣م.

- **ابن قدامة: عبد ا لله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ)**

٧٠- المغني ، تحقيق: د. عبد ا لله التركي ، ود.عبد الفتاح الحلـو ، هجـر للطباعـة والنشر ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ.

- **القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦١٧هـ).**

٧١- الجامع لأحكام القرآن ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١م.

- **ابن القطان: أبو محمد حسن بن علي بن عبد الملك الكتامي المراكشي.**

٧٢- نظـم الجمـان ، تحقيـق: محمـود مكـي ، دار الغـرب الإسـلامي ، بـيروت ، ١٩٩٠م.

- **ابن الكردبوس: عبد الملك بن الكردبوس التوزري.**

٧٣- الإكتفاء في أخبـار الخلفـاء ، تحقيـق: أحمـد مختـار العبـادي ، مجلـة المعهـد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦م.

- **كعت: محمود (القرن العاشر الهجري)**

٧٤- تـاريخ الفتـاش في أخبـار البلـدان والجيـوش وأكـابر النـاس ، تحقيـق هـوداس ودلافـوس ، الطبعـة الثانيـة ، المدرسـة الباريسـية لتدريـس الألسـن الشـرقية ، باريس ، ١٩٦٤م.

- **المالكي: أبو بكر عبد ا لله بن محمد (ت٤٧٤هـ).**

٧٥- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية ، تحقيق بشير البكـوش ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٣م.

- **الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد (ت٤٥٠هـ)**

٧٦- أدب الدنيا والدين ، دار الفكر ، دمشق ، د.ت.

- **مجهول:**
٧٧- الإستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليف: د. سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الأسكندرية ، ١٩٥٨م.
- **مجهول:**
٧٨- بيوتات فاس الكبرى ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٢م.
- **مجهول:**
٧٩- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩م.
- **محمد بن غازي العثماني (ت٩١٩هـ)**
٨٠- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٤م.
- **المرادي: أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي (ت٤٨٩هـ)**
٨١- السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة ، تحقيق: د. سامي النشار ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨١م.
- **المراكشي: عبد الواحد بن علي (ت ٦٦٩هـ)**
٨٢- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد العريان ومحمد العلمي ، ط7 ، دار الكتاب ، المغرب ، ١٩٧٨م.
- **المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ).**
٨٣- أزهار الرياض في أخبار عياض ، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي ، الرباط ، ١٩٧٨م.
٨٤- نفح الطيب ، تحقيق: يوسف البقاعي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٦م.
- **المقريزي: أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)**
٨٥- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ، د.ت.

- ابن منظور: محمد بن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ).

٨٦- لسان العرب ، الطبعة الثالثة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤م.

- الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي (ت١٣١٥هـ).

٨٧- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م.

- النباهي: أبو الحسن بن عبد ا لله المالقي.

٨٨- تاريخ قضاة الأندلس ، المسمى "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" المكتب التجاري للطباعة ، بيروت ، د. ت.

- النويري: أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ).

٨٩- تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط ، مستخرج من كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب ، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٤م.

- الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٩١٤هـ)

٩٠- المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب ، تحقيق: جماعة من الباحثين نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ، الرباط ، ١٩٨١م.

- ابن أبي يعلى: القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى (ت٥٢٦هـ).

٩١- طبقات الحنابلة ، طبعة دار المعرفة ، بيروت.

- المـــراجع:

- **د. إبراهيم بوتشيش.**

٩٢- المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، نشر دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٣م.

- **ابراهيم الجمل.**

٩٣- الإمام عبد الله بن ياسين ، دار الإصلاح ، القاهرة ، د.ت.

- **د. إبراهيم حركات.**

٩٤- المغرب عبر التاريخ ، نشر دار السلمي ، الدار البيضاء ، ١٩٦٥م.

٩٥- النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، منشورات مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، د.ت.

- **د. إبراهيم طرخان.**

٩٦- امبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

- **د. إحسان عباس.**

٩٧- تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين" ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٥م.

- **أحمد بن الأمين.**

٩٨- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٩م.

- **د. أحمد مختار العبادي.**

٩٩- دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، العدد ٥ ، ١٩٦٠م.

١٠٠- في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الأسكندرية ، د.ت.

- **إدريس العلوي.**

١٠١- الدرر البهية والجواهر النبوية ، طبعة حجرية ، فاس ، ١٨٩٦م.

- ارشيالد لويس

١٠٢- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة: أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

- د.ا محمد بن عبود.

١٠٣- جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، مطبعة النور ، تطوان ، ١٩٨٧م.

- بالنثيا ، انخل جنثالث

١٠٤- تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة: د. حسين مؤنس ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

- بل ، ألفريد.

١٠٥- الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٧م.

- توماس أرنولد.

١٠٦- الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ط٣ ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م

- جودت الركابي.

١٠٧- في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

- جوليان ، شارل أندري.

١٠٨- تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة: محمد مزالي والبشير سلامة ، ط. الدار التونسية للنشر بتونس ، والشركة الوطنية للنشر بالجزائر ١٩٧٩م.

- الحبيب الجنحاني.

١٠٩- دراسات في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦م.

- د. حسن إبراهيم حسن.

١١٠- تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

- د. حسن أحمد محمود.

١١١- قيام دولة المرابطين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧م.

- الحسن السائح.

١١٢- الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م.

١١٣- موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي ، دورة القاضي عياض ، نشر وزارة الأوقاف ، الرباط ، ١٩٨٣م.

- د. حسن عيسى عبد الظاهر

١١٤- الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفلاني ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٤٠١هـ.

- د. حسن الوراكلي.

١١٥- أبو الفضل القاضي عياض السبتي (ثبت ببليوجرافي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤م).

١١٦- ابن صارة الشنتريني ، مطبعة النور ، تطوان ، ١٤٠٥هـ.

- د. حسين مؤنس.

١١٧- أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام ، القاهرة ، ١٩٨٧م.

١١٨- تاريخ المغرب وحضارته ، نشر العصر الحديث للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٢م.

١١٩- الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٢م.

١٢٠- سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤م.

١٢١- السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، ١٩٥٠م.

١٢٢- شيوخ العصر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

- **زامباور ، أدوار دفون.**

١٢٣- معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة: د. زكي محمد حسن ، حسن أحمد محمود ، جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥١م.

- **الزركلي ، خير الدين.**

١٢٤- الأعلام ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- **د. سامي النشار.**

١٢٥- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧م.

- **د. سعدون عباس نصر ا لله.**

١٢٦- دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥م.

- **سعيد اعراب.**

١٢٧- مع القاضي أبي بكر بن العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م.

- **د. السيد عبد العزيز سالم.**

١٢٨- تاريخ مدينة المرية ، قاعدة وأسطول الأندلس ، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، الأسكندرية ، ١٩٨٤م.

١٢٩- تاريخ المغرب الكبير ، (العصر الإسلامي) دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م.

- **شكيب أرسلان.**

١٣٠- الحلل السندسية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت.

- **د. صباح الشيخلي.**

١٣١- حقائق جديدة عن الحركة المرابطية ، مجلة المؤرخ العربي ، العـدد ٢٧ ، سنة ١٩٨٦م.

- **الصديق بن العربي.**

١٣٢- المغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ.

- **د. ضريف محمد.**

١٣٣- تاريخ الفكر السياسي بالمغرب ، نشر أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩م.

- **العباس بن ابراهيم السملالي.**

١٣٤- الإعلام بمن حـل مراكش وأغمـات مـن الأعـلام ، المطبعـة الملكيـة ، الربـاط ، ١٩٧٤م.

- **د. عباس الجراري.**

١٣٥- أسباب إنتشار المذهب المالكي ، ندوة الإمام مالك ، ج١ ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

١٣٦- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ١٩٨٢م.

١٣٧- الموحدون ثورة سياسية ومذهبية ، مجلة المناهل ، العدد الأول ، سنة ١٩٧٤م.

- **د. عبد البديع الخولي.**

١٣٨- الفكر التربوي في الأندلس، دار الفكر العربي ، القاهرة ن ١٩٨٥م.

- **د. عبد الرحمن الحجي.**

١٣٩- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة ، دار الإصلاح ، الدمام ، ١٤٠٣هـ.

- **عبد الرحمن الفاسي.**

١٤٠- ذيل وتعليق حول قضيـة المعتمـد بـن عبـاد ، المنـاهل ، العـدد العاشر ، سنة ١٩٧٧م.

- **د. عبد الكريم عثمان.**

١٤١- سيرة الغزالي ، دار الفكر ، دمشق ، د. ت.

- **د. عبد ا لله العروي.**

١٤٢- مجمل تاريخ المغرب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٤م.

- **عبد ا لله كنون.**

١٤٣- ذكريات مشاهير رجال المغرب "عبد ا لله بن ياسين" ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧١م.

١٤٤- النبوغ المغربي في الأدب العربي ، بيروت ، ١٩٧٥م.

- **د. عبد المجيد بدوي.**

١٤٥- التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٨٨م.

- **د. عبد المجيد النجار.**

١٤٦- المهدي بن تومرت ، نشر دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م.

- **د. عبد الواحد شعيب.**

١٤٧- دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ، مالطا ، ١٩٩٠م.

- **عبد الوهاب بن منصور.**

١٤٨- قبائل المغرب ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٨م.

- **د. عصمت دندش.**

١٤٩- اضواء جديدة على المرابطين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩١م.

١٥٠- دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر ابن العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م.

١٥١- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م.

- **د. أبو العلاء عفيفي.**

١٥٢- أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين ، مجلة كلية آداب الأسكندرية ، المجلد ١١ ، ١٩٥٧م.

- **د. عمر فروخ.**

١٥٣- تاريخ الفكر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- **ليفي بروفنسال.**

١٥٤- الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة: السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ، ١٩٩٠م.

- **مجموعة باحثين.**

١٥٥- التاريخ الأندلسي من خلال النصوص ، نشر شركة المدارس ، الدار البيضاء ، ١٤١٢هـ.

- **د. محمد أحمد الغربي.**

١٥٦- موريتانيا ومشاغل المغرب الأفريقية ، مطبعة ملاطو ، الرباط ، ١٩٦٤م.

- **محمد بن تاويت.**

١٥٧- تاريخ سبتة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٢هـ

- **د. محمد رزوق.**

١٥٨- دراسات في تاريخ المغرب ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ١٩٩١م.

- **د. محمد بن شريفة.**

١٥٩- اسرة بني عشرة ، مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، ١٩٦٥م.

- **د. محمد شعيرة.**

١٦٠- المرابطون: تاريخهم السياسي ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

- **محمد الطاهر بن عاشور.**

١٦١- التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م.

- محمد عبد ا لله عنان.

١٦٢- دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني "دول الطوائف" ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

١٦٣- دولة الإسلام في الأندلس "العصر الثالث" عصر المرابطين والموحدين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٠م.

- محمد بن محمد مخلوف.

١٦٤- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ.

- محمد المختار السوسي.

١٦٥- سوس العالمة ، مطبعة فضالة ، المحمدية (المغرب) ، ١٩٦٠م.

١٦٦- المعسول ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٦١م.

- محمود إسماعيل عبد الرازق.

١٦٧- الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن ٤هـ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦م.

- محمود مكي

١٦٨- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدان السابع والثامن ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠م.

- محي الدين اللاذقاني.

١٦٩- فانتازيا التاريخ ، بحث مقدم لندوة الأندلس ، قرون من التقلبات والعطاءات ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٩٩٣م.

- المختار بن حامد

١٧٠- حياة موريتانيا (الحياة الثقافية) ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٠م.

- **مصطفى بنسباع**

١٧١- إحراق كتاب الأحياء ، ملتقي الدراسات المغربية الأندلسية ، الندوة الخامسة ، نشر كلية الآداب بتطوان ، ١٩٩٣م.

- **منجد مصطفى بهجت.**

١٧٢- الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦م.

- **نقولا زيادة.**

١٧٣- أفريقيات ، نشر رياض الريس للكتب ، لندن ، ١٩٩١م.

- **هويسي ميراندة**

١٧٤- علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان ، العدد ٣ - ٤ ، سنة ١٩٥٨ ، ١٩٥٩م.

- **يوسف أشباخ.**

١٧٥- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة: محمد عبد الله عنان ، ط٢ ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

- **يوسف حواله.**

١٧٦- بنو عباد في أشبيليه ، طبع دار العلم ، جدة ، ١٤١٠هـ.

- **الموسوعات:**

١٧٧- تاريخ افريقيا العام (اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام ، اليونسكو ، باريس ١٩٨٨م).

١٧٨- الموسوعة الإسلامية الميسرة أشرف على تحريرها هـ.أ.جب ، وج.هـ. كالمرز ، ترجمة راشد البراوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

- Ben Achen hou (A)

1- Sidiabdallah Mou - 1 gara ou Abdallah Ibn Yassin, Hesperis 1946.

- Cuoq (J):

2- Histoire de I'Islamisation de L'afrique de L'ouest, paris 1984

- Delachapelle (F):

3- Esquisse D'une Histoire du sahara occidental, hesperis, T 11, 1930.

- Delafosse (M):

4- Ghana & Le Mali & L'emplacement de leurs Capitales B.C.E.H.S.A.O.F. 1924.

- Devisse (J):

5- Te Gdaoust, paris 1970

6- The Almoravides.

- DOZY (R):

7- Recherches sur I'histoire de L'andalus.

8- Histoire des Musulmans de L'Espagne. LYDE 1932

- Froelich (J):

9- Essai surles Causes et Methodies de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest du xi - xx Siecle, Oxford 1969.

- Gruvel & Chudeau:

10- A travers La Mauritanie occidentale (Desaint - Louis a Part - Etienne volume 1, paris 1909.

- Ki - Zerbo (J):

11- Histoire de L'Afrique paris 1972.

- Lavoix (H):

12- Catalogue des Monnaies de la Biblioteque Nationale de paris.

- Levi - Provencal

13- Histoire de I'Espagne Musulmane paris 1967.

14- La fondation de Marrakech Alger 1957.

- Marcais (M):

15- La Berberie Musulmane & L'orient au moyen age, paris 1946.

16- Manuel d'art Musulman paris 1926.

- Marty (P):

17- Etudes Sur L'Islam au Senegal Paris 1917.

- Mirinda (H):

18- La Salida de Los Almoravides del desierto, Hesperis 1959.

- Mones (H):

19- Le Role des Hommes de religion dans I'histoire de I'espagne musulmane Jusqu'a la fin du califat, studia islamica, xx

- SLAUCH (N):

20- I'Empire de Bergouata, Revue du Monde Musulman t 10, 1919.

- Terrasse' (H):

21- Histoire du Maroc casablanca 1950.

22- Sanctuaires et forteresses Almohade, hesperis t 4, 1924.

- Zouber (M):

23- Ahmed Baba de toubouctou, paris 1977.

المحتويـــــات

- تقديم

أ-اهمية الموضوع ص١

ب-عرض لمصادر البحث ومراجعه ص٣

*التمهيد: ص٩-٣٧

العلماء و ادوارهم فى المغرب الاسلامى قبل المرابطين

-أدوار العلماء فى المغرب فى اواخر الدولة

الاموية وبداية الدولة العباسية ص١٢

-ادوار العلماء فى الدولة الاغلبية ص١٥

-ادوار العلماء بدولة الفاطميين ص١٨

-الاوضاع التى كانت سائده فى المغرب العربى ص ٣٥

الباب الاول: العلماء والدولة المرابطية ص٣٨-١٣٩

*الفصل الاول : العلماء وتاسيس الدولة ص٣٨

-ظهور المرابطين ص٤٠

-مرحلة الرباط ص٤٧

-الجهاد فى المغرب الاقصى ص٥٣

-الامير ابوبكر بن عمر ص٦٦

*الفصل الثانى: اثر العلماء فى الاتجاه الفكرى للدولة ص٧٩

-المذهب الفقهى للمرابطين ص٧٩

-مذهب العلماء فى الحكم ص٩٠

مذهب العلماء العقائدى ص٩٦

موقف العلماء من التصوف ص١٠٢

*الفصل الثالث:-العلماء وسياسة الدولة الوحدوية ص١٠٩

-الحال فى الاندلس عند قيام دولة المرابطين ص١٠٩

-دور العلماء فى موقعة الزلاقة ص١٢٠

-دور العلماء فى اسقاط امراء الطوائف وتوحيد العدوتين ص١٣١

الباب الثانى: العلماء والسلطة ص١٤٠-٢٥٦

***الفصل الاول: العلماء فى مواقع النفوذ ص١٤٠**

-مستشارين ص١٤٠

-قضاة ص١٤١

-نشرة العلم ص١٥٤

***الفصل الثانى: موقف العلماء من السلطة ص١٧٦**

-ابن تومرت ص١٧٧

-ثورات القضاة فى الاندلس ص١٩٩

***الفصل الثالث: العلماء حكاما ص٢٠٩**

-القاضى ابن جحاف ص٢١٠

-ابوجعفر حمدين بن حمدين ص٢٢٩

***الفصل الرابع: أثر العلماء فى الدعوة والجهاد ص٢٤٠**

-اثر العلماء فى الدعوة ص٢٤٧

- أثر العلماء في الجهاد. ص٢٥١

الخاتمة ص٢٥٧

المصادر و المراجع ص٢٦٠